

الألف
كتاب
الثاني
٢٠٣

رُحَلَاءُ مَارِكُو بُولُو

الجزء الثالث



ترجم إلى الإنجليزية: وليم مارسدن
ترجم إلى العربية: عبد العزيز جاويد



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

رحلات مارکوبولو

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيسة مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لشعبي المطيعي
مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمد قطب

الإخراج الفني
لمياء محرم

مكتبة
شيخ المترجمين
عبد العزيز توفيق جاويده

رحلات ماركوبولو

ترجمها إلى الإنجليزية
وليم مارسدن

ترجمها إلى العربية
عبد العزيز جاويد

الجزء الثالث



الهيئة العامة للمكتبات

١٩٩٦

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	١١
الفصل الثاني	١٥
الفصل الثالث	١٩
الفصل الرابع	٢٠
الفصل الخامس	٢٢
الفصل السادس	٢٣
الفصل السابع	٢٥
الفصل الثامن	٢٦
الفصل التاسع	٢٨
الفصل العاشر	٢٩
الفصل الحادي عشر	٣٠
الفصل الثاني عشر	٣١
الفصل الثالث عشر	٣٣
الفصل الرابع عشر	٣٥
الفصل الخامس عشر	٣٦
الفصل السادس عشر	٣٧
الفصل السابع عشر	٣٩
الفصل الثامن عشر	٤٠
الفصل التاسع عشر	٤١
الفصل العشرون	٤٣
الفصل الحادي والعشرون	٥٧
الفصل الثاني والعشرون	٥٩
الفصل الثالث والعشرون	٦٢

٦٤	• • • • •	الفصل الرابع والعشرون
٦٦	• • • • •	الفصل الخامس والعشرون
٦٨	• • • • •	الفصل السادس والعشرون
٦٩	• • • • •	الفصل السابع والعشرون
٧٠	• • • • •	الفصل الثامن والعشرون
٧٢	• • • • •	الفصل التاسع والعشرون
٧٤	• • • • •	الفصل الثلاثون
٧٥	• • • • •	الفصل الحادي والثلاثون
٧٦	• • • • •	الفصل الثاني والثلاثون
٧٧	• • • • •	الفصل الثالث والثلاثون
٧٨	• • • • •	الفصل الرابع والثلاثون
٨٠	• • • • •	الفصل الخامس والثلاثون
٨٢	• • • • •	الفصل السادس والثلاثون
٨٥	• • • • •	الفصل السابع والثلاثون
٨٧	• • • • •	الفصل الثامن والثلاثون
٨٨	• • • • •	الفصل التاسع والثلاثون
٩١	• • • • •	الفصل الأربعون
٩٣	• • • • •	الفصل الحادي والأربعون
٩٥	• • • • •	الفصل الثاني والأربعون
٩٦	• • • • •	الفصل الثالث والأربعون
٩٨	• • • • •	الفصل الرابع والأربعون
١٠٢	• • • • •	الفصل الخامس والأربعون
١٠٤	• • • • •	الفصل السادس والأربعون
١٠٥	• • • • •	الفصل السابع والأربعون
١١٠	• • • • •	الفصل الثامن والأربعون
١١١	• • • • •	الفصل التاسع والأربعون
١١٤	• • • • •	الفصل الخمسون
١١٥	• • • • •	الفصل الحادي والخمسون

١١٦	• • • • •	الفصل الثاني والخمسون
١١٨	• • • • •	الفصل الثالث والخمسون
١٢٠	• • • • •	الفصل الرابع والخمسون
١٢١	• • • • •	الفصل الخامس والخمسون
١٢٢	• • • • •	الفصل السادس والخمسون
١٢٤	• • • • •	الفصل السابع والخمسون
١٢٦	• • • • •	الفصل الثامن والخمسون
١٢٧	• • • • •	الفصل التاسع والخمسون
١٢٨	• • • • •	الفصل الستون
١٣٠	• • • • •	الفصل الحادي والستون
١٣١	• • • • •	الفصل الثاني والستون
١٣٢	• • • • •	الفصل الثالث والستون
١٣٣	• • • • •	الفصل الرابع والستون
١٣٤	• • • • •	الفصل الخامس والستون
١٣٥	• • • • •	الفصل السادس والستون
١٣٧	• • • • •	الفصل السابع والستون
١٣٨	• • • • •	الفصل الثامن والستون
١٤٠	• • • • •	الفصل التاسع والستون
١٤١	• • • • •	الفصل السبعون
١٤٣	• • • • •	الفصل الحادي والسبعون
١٤٥	• • • • •	تذييل

هوامش الجزء الثالث

١٥٣	• • • • •	هوامش الفصل الأول
١٥٥	• • • • •	هوامش الفصل الثاني
١٥٨	• • • • •	هوامش الفصل الثالث
١٥٩	• • • • •	هوامش الفصل الرابع

١٦١	• • • • •	هوامش الفصل الخامس
١٦٢	• • • • •	هوامش الفصل السادس
١٦٤	• • • • •	هوامش الفصل السابع
١٦٥	• • • • •	هوامش الفصل الثامن
١٦٧	• • • • •	هوامش الفصل التاسع
١٦٨	• • • • •	هوامش الفصل العاشر
١٦٩	• • • • •	هوامش الفصل الحادى عشر
١٧١	• • • • •	هوامش الفصل الثانى عشر
١٧٣	• • • • •	هوامش الفصل الثالث عشر
١٧٥	• • • • •	هوامش الفصل الرابع عشر
١٧٦	• • • • •	هوامش الفصل الخامس عشر
١٧٧	• • • • •	هوامش الفصل السادس عشر
١٧٩	• • • • •	هوامش الفصل السابع عشر
١٨٠	• • • • •	هوامش الفصل الثامن عشر
١٨١	• • • • •	هوامش الفصل التاسع عشر
١٨٤	• • • • •	هوامش الفصل العشرين
١٩٦	• • • • •	هوامش الفصل الحادى والعشرين
١٩٨	• • • • •	هوامش الفصل الثانى والعشرين
٢٠٣	• • • • •	هوامش الفصل الثالث والعشرين
٢٠٦	• • • • •	هوامش الفصل الرابع والعشرين
٢٠٨	• • • • •	هوامش الفصل الخامس والعشرين
٢١١	• • • • •	هوامش الفصل السادس والعشرين
٢١٣	• • • • •	هوامش الفصل السابع والعشرين
٢١٥	• • • • •	هوامش الفصل الثامن والعشرين
٢١٧	• • • • •	هوامش الفصل التاسع والعشرين
٢١٩	• • • • •	هوامش الفصل الثلاثين
٢٢٠	• • • • •	هوامش الفصل الحادى والثلاثين
٢٢١	• • • • •	هوامش الفصل الثانى والثلاثين

٢٢٢	• • • • •	هوامش الفصل الثالث والثلاثين
٢٢٤	• • • • •	هوامش الفصل الرابع والثلاثين
٢٢٥	• • • • •	هوامش الفصل الخامس والثلاثين
٢٢٧	• • • • •	هوامش الفصل السادس والثلاثين
٢٣٠	• • • • •	هوامش الفصل السابع والثلاثين
٢٣٣	• • • • •	هوامش الفصل الثامن والثلاثين
٢٣٤	• • • • •	هوامش الفصل التاسع والثلاثين
٢٣٦	• • • • •	هوامش الفصل الأربعين
٢٣٨	• • • • •	هوامش الفصل الحادي والأربعين
٢٣٩	• • • • •	هوامش الفصل الثاني والأربعين
٢٤٠	• • • • •	هوامش الفصل الثالث والأربعين
٢٤٢	• • • • •	هوامش الفصل الرابع والأربعين
٢٤٦	• • • • •	هوامش الفصل الخامس والأربعين
٢٤٨	• • • • •	هوامش الفصل السادس والأربعين
٢٤٩	• • • • •	هوامش الفصل السابع والأربعين
	• • • • •	هوامش الفصل الثامن والأربعين
٢٥٠	• • • • •	هوامش الفصل التاسع والأربعين
٢٥١	• • • • •	هوامش الفصل الخمسين
٢٥٢	• • • • •	هوامش الفصل الرابع والستين
٢٥٣	• • • • •	هوامش الفصل التاسع والستين

الفصل الأول

عن الهند ، مقسمة الى الهند
الكبرى والصغرى والوسطى - عن
عادات سكانها وأعرافهم وعن أشياء
كثيرة عجيبة وخارقة تلاحظ هناك ،
وقبيل كل شيء عن أنواع السفن
المستعملة في الملاحة *

أما وقد تناولنا ، في الأجزاء السابقة من عملنا ، ولايات
وأقاليم مختلفة ، فإننا الآن سنودعها وننتقل الى حديث
الهند ، التي ستروى على مسامعكم قصة ظروفها المعجبة *
وسنبداً حديثنا بوصف للسفن التي يستخدمها التجار ، وهي
سفن مصنوعة من خشب التنوب (١) *

وللسفن سطح وحيد يقسم الفراغ تحته الى حوالي ستين
مقصورة صغيرة ، تقل أو تزيد تبعاً لحجم السفن ، وكل منها
معدة لنزول تاجر واحد (٢) * وهي مزودة بدفة جيدة * ولها
أربع ساريات لكل منها شراع ، كما أن لبعضها ساريتين يمكن
إقامتهما وخفضهما ثانية حسب الضرورة (٣) *

ولبعض السفن ذات الحجم الأضخم ، فضلاً عن (المقاصير)
أو الحجيرات ، تقاسيم : (حواجز) تصل الى ثلاثة عشر
وتقوم في مخزنها ، وهي تتكون من فلنكات غليظة ، تعشق
بعضها في بعض Incastrati (أي مثبتة بالنقر واللصق أو
بالافتراز حفراً وتعشيقاً) * والغرض من هذه هو الاحتياط

من الحوادث التي قد تعرض السفينة لصدع يعرضها للرشح المائي ، كالا اصطدام بصخرة أو تلقى ضربة من حوت ، وهي حالة كثيرة الحدوث ، وذلك لأن السفينة حين تمخر الماء ليلا . . يحدث اختراقها للأمواج زيدا أبيض يستلفت نظر الحيوان الجائع وتوقعا للحصول على الطعام يندفع بشدة الى البقعة ، فيصدم السفينة ، وكثيرا ما يدفع نحو الداخل جزءا من قاعها .

وإذا جرى الماء من المكان الذي حدثت فيه الإصابة ، فإنه يتسرب الى بئر السفينة ، التي يحتفظون بها على الدوام خالية من كل شيء . ومتى اكتشف الملاحون موقع الثقب والتسرب يبادرون على الفور الى ازالة البضائع من القسم المتأثر بالماء ، وهنا لا يستطيع الماء نتيجة لشدة حبك الألواح بعضها مع بعض ، المرور من قسم الى آخر .

وعندئذ يصلحون التلف ، ويعيدون البضائع الى مكانها من العنبر الذي رفعت منه . وجميع السفن مغطاة بألواح مزدوجة ، أعنى ، أن لها طبقة أخرى من الألواح الواقعة الممدودة فوق فرشاة الفلنكات بكل جزء من أجزاء السفينة . ثم تقلط هذه الألواح بالشاقة (الحبال البالية) من الداخل والخارج ، كما تثبت بالمسامير الحديدية . وهي لا تطل بالقرار ، لأن البلاد لا تنتج تلك المادة ، ولكن تكسى قيعان السفن بالتركيب التالي : فيتناول الناس الجير الحى والقنب ، فيقطعون الأخير نتفا صغيرة ، وبعد دق الجير والقنب معا ، يضيفون اليهما نوعا من الزيت يحصلون عليه من شجرة معينة مكونين من المجموع ضربا من المعجون ، يحتفظ بخواصه اللزجة بشكل أثبت ، كما أنه مادة أفضل من القرار (٤) .

وتحتاج أكبر السفن حجما الى طقم ملاحين عدده ثلاثمائة رجل ، كما تحتاج غيرها الى مائتين ، وغيرها الى مائة وخمسين فقط ، حسب تفاوت حجمها كبرا وصغرا . وهي

تحمل عددا من السلال (أو زكائب الحصير المملوءة بالفلفل)
يتراوح بين خمسة آلاف الى ستة .

وكانت السفن فى الأزمنة الحالية ذات حمولة أكبر مما
هى الآن ، ولكن نظرا لأن شدة عنف البحر فى كثير من الأماكن
حطمت الجزر ولا سيما الموجودة منها فى بعض الموانئ
الرئيسية ، فقد حدث نقص فى عمق المياه بالنسبة لسفن من
هذه الحمولة ، وبناء على هذا بنيت السفن - فيما بعد ذلك
من الزمان - من حجم أصغر .

وتحرك السفن بالمجاديف العادية والطويلة بدرجة
سواء ، ويحتاج كل منها فى تشغيله الى أربعة رجال . وسفن
الحجم الأكبر تصحبها اثنتان أو ثلاثة من الباركات Barks
الكبيرة (أى سفن بثلاث ساريات) سمعتها ألف سلة من الفلفل ،
وعليها ملاحون عدتهم ستون أو ثمانون أو مائة . وكثيرا
ما تستخدم هذه السفن الصغرى فى سحب الكبرى ، متى
استخدمت مجاديفها ، أو حتى متى كانت تستخدم الشراع
شريطة أن تهب الريح على جانب السفينة ، ولكن ليس من
خلفها نصا ، وذلك لأنه فى هذه الحالة لا مفر لقلوع السفينة
الكبرى من أن تطفئ على قلوع السفن الصغرى ، فتكون
النتيجة أن تصطدم بها . وتحمل السفن معها أيضا عددا من
الزوارق الصغيرة يصل الى عشرة ، لكى تحمل المراسى الى حيث
تلقى ، ولصيد السمك فضلا عن مأرب أخرى ، وهى معلقة
على جوانب السفن ، وتبدل الى الماء متى دعت الحاجة الى
استخدامها . أما البوارك (جمع باركة) فمزودة بالمثل
يقوازيها الصغيرة .

واذا احتاجت سفينة الى اصلاح ، بعد أن تقضى فى رحلة
لها سنة أو أكثر ، فقد جرت العادة بكسائها بطبقة من الخشب
تعلو ألواحها الأصلية ، مكونة طبقة ثالثة ، فتقلف وتصد
بمادة عازلة بنفس طريقة معالجة الطبقات الأخرى ، ويتكرر

ذلك كلما احتاجت الى اصلاح جديد حتى يبلغ عدد الطليقات
ستاً ، وبعدها تدخل في عداد عدم الصلاحية للخدمة وعدم
المدايرة بالابحار . والآن وقد وصفنا السفن فسننتقل الى
الحديث عن الهند ، على أننا سنتحدث ابتداء عن جزر معينة
توجد في هذا القسم من المحيط الذي توجد فيه في الوقت
الحاضر ونبدأ حديثنا بالجزيرة المسماة : زيبانجو .

الفصل الثانى

عن جزيرة زيبانجو (١) .

ان زيبانجو جزيرة تقع فى المحيط الشرقى ، وتبعد
حوالى خمس عشرة مائة ميل عن أرض القارة ، أى عن ساحل
مانجى (٢) . وهى ضخمة المساحة ، وسكانها شقر البشرة ،
حسنو الخلقة ، تنم عاداتهم عن التعضر . ودينهم عبادة
الأوثان . وهم مستقلون تماما عن كل سلطان أجنبى ،
لا يحكمهم الا ملوكهم (٣) . ولديهم الذهب بأعظم وفرة ،
لأن مصادره لديهم لا تنفذ (٤) ، ولكن نظرا لأن الملك
لا يسمح بتصديره ، فان عدد التجار الذين يزورون البلاد
قلة قليلة ، كما أنها لا ترتادها سفن كثيرة قادمة من أقطار
أخرى . والى ذلك الظرف يصح لنا أن ننسب ما عليه قصر
العاقل من فخامة و ثراء خارقين ، وذلك حسبا يروى لنا من
يتاح لهم دخول ذلك المكان . فسطحه كله مكسو بصفائح
الذهب ، بنفس الطريقة التى تغطى بها البيوت ، بعمارة
أصح الكنائس ، بالرصاص .

وسقوف القاعات مصنوعة من نفس المعدن النفيس ،
ولكثير من الأجنحة مناضد صغيرة من خالص الذهب ذى
السبك الكبير ، كما أن للنوافذ أيضا حليات من الذهب (٥) .
والحق أن ثراء القصر يبلغ من الوفرة العريضة ما يجعل من
المستحيل نقل فكرة الى الناس عنه . وتوجد اللآلئ أيضا
بهذه الجزيرة بمقادير ضخمة ، وهى ذات لون أحمر (بمبى)
مستديرة الشكل ، وكبيرة الحجم وتبادل أو تفوق فى قيمتها

أثمان اللآلئ البيضاء (٦) - وجرت عادة طائفة من السكان بدفن موتاهم ، وطائفة أخرى باحراقهم (٧) .

وقد اعتادت الطائفة الأولى وضع إحدى تلك اللآلئ في فم الجثة . ويوجد بتلك البلاد أيضا عدد من الأحجار النفيسة .

وذاغت شهرة ثراء هذه الجزيرة ذيوعا عظيما جدا ، حتى لقد ساورت رغبة قوية نفس الخان الأعظم قبلاي ، الذي يتولى الحكم الآن ، أن يغزوها ويلحقها بممتلكاته . ولكي ينفذ هذه الرغبة ، أعد عمارة بحرية ضخمة العدد ، أنزل بها عددا جما من الجند ، تحت قيادة اثنين من قواده العظام ، كان اسم أحدهما أبا كاتان ، واسم الآخر فونسانسين (٨) .

أطلقت الحملة من ميناء زاي تون وكن ساي (٩) ، حتى إذا عبرت البحر الأوسط ، بلغت الجزيرة بسلام ، ولكن دب دبيب الغيرة بين القائدين ، فنظر أحدهما إلى خطط الآخر بازدياد ورغص تنفيذ أوامره ، فكانت عاقبة ذلك أن لم يستطعا الاستيلاء على أية مدينة ولا أى مكان حصين ، غدا واحدا فقط ، أخذ عنوة ، بعد أن رفضت حاميته التسليم وصدرت التعليمات بعرضهم جميعا على السيف (اعدامهم) ، وطوعا لها قطعت رؤوسهم جميعا ، غدا ثمانية أفراد تمكنوا بفعل سحر شيطاني ، يتكون من جوهرة أو تغويذة ، أدخلت في الذراع اليمنى بين الجلد واللحم ، من أن يصبحوا في أمان من أثر الحديد الذي لم يستطع لهم قتلا ولا جرحا . على أنه لما اكتشفت هذه الحقيقة ، انهالوا عليهم بهراوة خشبية غليظة ، فماتوا لساعتهم (١٠) .

وحدث بعد مدة قصيرة أن ريحا عاصفة بدأت تهب بقوة عظيمة ، ودفعت سفن التتار الراسية قرب شاطئ الجزيرة دفعا حتى تشابكت . فقرر مجلس الضباط الذي عقد عندئذ

على ظهر إحدى السفن ضرورة الابتعاد عن البر ، ومن ثم فإنه ما كادت الجند تعود إلى اعتلاء السفن حتى انطلقت بهم إلى عرض البحر .

ومع هذا فإن الزوينة اشتدت إلى درجة بالغة العنف حتى أغرقت عددا من السفن . وأنقذ من فيها من الناس أنفسهم بتشبثهم بقطع من خشب السفن المحطمة ، واستقروا على جزيرة تقع على حوالي أربعة أميال من ساحل زيبانجو .

فأما السفن الأخرى التي نجت من قبضة الأعصار ، لأنها لم تكن بالغة القرب من البر ، والتي اعتلاها القائدان ومعهما كبار الضباط أو أولئك الذين تؤهلهم رتبهم لقيادة مائة ألف جندي أو عشرة آلاف ، فقد يمت شطر وطنهم وعادت بهم إلى الخان الأعظم . فأما التتار الذين خلفوا على الجزيرة التي تحطمت عليها سفنهم ، والذين بلغت عدتهم ثلاثين ألف رجل تقريبا ، فإنهم لما وجدوا أنفسهم بلا سفن ، وقد تغلغل عنهم قوادهم ، وتجردوا من السلاح والميرة ، فإنهم لم يتوقعوا شيئا آخر غير الأسر أو الهلاك ، سيما وأن الجزيرة لم يكن بها مساكن يلجأون إليها ويجددون نشاطهم .

وما أن هدأت العاصفة وأصبح البحر أملس ساكنا حتى أقبل عليهم أهل الجزيرة الكبرى بجيش كبير ، ملأ سفنا جمة العدد لكي يأسروا هؤلاء التتار الذين تحطمت سفنهم ، حتى إذا هبطوا إلى البر ، تقدموا ليبحثوا عنهم ، ولكن في شراذم غير منظمة .

ولكن التتار تصرفوا من جانبهم بحذر الحصيف المتدبر ، ونظروا لتواريهم عن الأنظار وراء بعض المرتفعات في وسط الجزيرة ، بينما كان العدو يسارع مهرولا في البحث عنهم عن طريق واحد سلكه ، فإنهم قاموا بدورة بحذاء الشاطئ

عن طريق آخر ، قادهم الى المكان الذى يرسو فيه أسطون زوارفهم .

فلما أن وجدوا هذه السفن مهجورة من أصحابها وعليها أعلامها ترفرف فى الهواء ، اعتلوا على الفور واندفعوا بها بعيدا عن الجزيرة ، واتجهوا الى المدينة الرئيسية بزيبانجو ، فسمح لهم بسبب الأعلام بدخول مرفئها بغير اعتراض أو مضايقة (١١) وهناك لم يجدوا الى جانب النساء سوى قلة من السكان ، فاحتفظوا بالنساء ليكن فى خدمتهم وطردها كل من عداهن .

ولما أبلغ الملك بما حدث أصيب بغم شديد ، وأصدر تعليماته على الفور بالقام حصار شديد على المدينة ، بلغ من قوة فاعليته أن لم يستطع انسان دخولها ولا الفرار منها ، أثناء الشهور الستة التى استمر فيها الحصار . وبعد انقضاء تلك المدة ، سلم التتار ، وقد يئسوا من كل عون أو مدد ، شريطة النجاة بحياتهم .

حدثت كل هذه الأحداث فى عام ١٢٦٤ (١٢) . وعندما علم الخان الأعظم ، بعد بضع سنوات أن النتيجة الأسيفة للحملة كانت بسبب الخلاف الذى نشب بين القائدين ، أمر بقطع رأس أحدهما ، فأما الثانى فقد أرسله الى جزيرة زوروزا المتوحشة (١٣) التى جرت العادة باعدام المجرمين فيها بالطريقة التالية : فهم يطوقونهم حول ذراعيهم ، فى جلد جاموسة يؤخذ طريا من البهيمة فينخاط عليهم ، ضيقا محبوكا . فاذا جف الجلد ضغط على الجسم بشدة تجعل الضحية غير قادر على ابداء أى حراك ولا نجدة نفسه بأية حال من الأحوال ، وبذلك يهلك أتعس هلاك (١٤) .

الفصل الثالث

عن طبيعة الأوثان التي تعبد في
زيبانجو ، وعن ولع الناس وادمانهم
أكل اللحوم البشرية .

تصنع الأصنام بجزيرة زيبانجو هذه والجزر الأخرى
القريبة منها ، على أشكال متعددة ، فلبعضها رعوس ثيران ،
ولبعضها رعوس خنازير أو كلاب أو أعناز ، وكثير غيرها
من الحيوانات . ويظهر بعضها برأس واحد له سحنتان ،
ولبعضها ثلاثة رعوس ، أحدها بموضعه الطبيعي والآخران
فوق الكتفين . ولبعضها أربع أذرع ولغيرها عشر من ثم
جدير بأن يقدم له أشد أنواع العبادة دقة وتفصيلا (١) .
وإذا سألهم المسيحيون : لماذا يضيفون على آلهتهم هذه الأشكال
المنوعة ، أجابوا بأنهم وجدوا آباءهم من قبلهم كذلك
يفعلون . فهم يقولون : « ان من سبقونا تركوها كذلك ،
وكذلك سننقلها الى من يخلقوننا » .

والممارسات المنوعة التي تمارس أمام هذه الأوثان
شريرة وشيطانية بحيث يصبح تقديم بيان عنها في كتابنا
هذا ، ضربا من عدم التقوى والفحش . ومع هذا فينبغي أن
يعلم القارئ أن السكان الوثنيين في هذه الجزر يبادرون
متى قبضوا على شخص أحد أعدائهم ممن لا يملكون الموارد
اللازمة لافتداء أنفسهم بالمال ، الى دعوة جميع أقاربهم
وأصدقائهم الى منزلهم ، واذ يجهزون عليه فانهم يقطعون
جسمه ويأكلونه ، برفح قصف مشترك ، مؤكدين أن اللحم
البشري يفوق كل لحم آخر في نكهته وطعمه .

الفصل الرابع

حول بحر التشن ، الممتد بين هذه
الجزيرة وولاية مانجى .

وينبغى أن يكون مفهوما أن البحر الذى تقع فيه
زيبانجو انما يسمى بحر الصين (١) وهذا البحر الشرقى
مترام بالغ السعة ، بحيث انه طبقا لما يرويه محنكة الربابنة
والملاحين الذين يرتادونه ، لا بد أنهم على بينة من حقيقة
الأمر ، لا يحتوى أقل من سبعة آلاف وأربعمائة وأربعين
جزيرة معظمها مأهول (٢) . ويقال انه ليس من الأشجار
التي تنمو بها ، شجرة واحدة لا تتضوع بأزكى الروائح (٣) .
وهى تنتج كثيرا من التوابل والعقاقير ، وبخاصة خشب
الصبر والفلفل الذى ينمو بوفرة عظيمة بنوعيه الأبيض
والأسود (٤) . ومن المحال تقدير قيمة الذهب والأشياء
الأخرى التى يعثر عليها بتلك الجزر ، بيد أن بعدها عن
القارة سحيق ، كما أن الملاحه اليها محفوفة بمتاعب ومكاره
شديدة بحيث ان السفن المستخدمة فى التجارة ، بين ميناءى
زاي تون وكفن ساي ، لا تجنى مكاسب كبيرة ، وذلك
لاضطرارها الى استغراق سنة كاملة فى رحلتها ، حيث تبخر
فى الشتاء وتعود فى الصيف . وذلك لأنه لا تهب فى هذه
المناطق الا ريحان ، احدهما شتاء والأخرى أثناء فصل
الصيف ، بحيث انهم مضطرون الى الاستفادة من الأولى فى
رحلة الخروج ، ومن الثانية فى رحلة العودة الى الأوطان (٥) .
وهذه الأقاليم سحيقة البعد عن قارة الهند . وينبغى لنا ،

أن ندرك تماما حين نسمى هذا البحر بحر الصين ، أنه جزء
من المحيط ، وذلك لأنه كما نتحدث نحن عن البحر الانجليزى
أو « بحر ايبجه » ، فكذلك يتحدث أهل الشرق عن بحر الصين
وعن بحر الهند ، بينما تدخل تلك البحار كلها تحت المصطلح
العام وهو المحيط . وسنتوقف من الآن عن البحث فى شأن
هذه الأقاليم والجزر ، بسبب شدة بعدها عن مجالنا ، فضلا
عن أنى لم أزرها بشخصى ولأنها ليست تابعة لممتلكات الخان
الأعظم . والآن نعود الى زاي تون .

الفصل الخامس

عن خليج كاينان وانهاره •

إذا أنت غادرت ميناء زاي تون واتخذت اتجاهها غربيا
يميل نحو الجنوب ، مسافة خمس عشرة مائة ميل ، مررت
على الخليج المسمى كاينان (١) ، الذي يمتد مسافة رحلة
شهرين بحرا ، على امتداد شاطئه الشمالي ، الذي يؤلف
حدود الجزء الجنوبي من ولاية مانجى ، ومن هناك الى حيث
يقترب من أقاليم أنيا وتولومان ، وأقاليم أخرى كثيرة ورد
ذكرها من قبل (٢) • ويوجد فى هذا الخليج حشد كبير من
الجزر ، معظمها أهل جدا بالسكان (٣) ، ويجمع من البحر
حول سواحلها قدر كبير من تير الذهب ، فى الأماكن التى
تصب فيها الأنهار مياهها • ويوجد هناك كذلك النحاس
وأشياء أخرى كثيرة (٤) ، وفى هذه كلها تدور تجارة ،
تزود فكيها كل جزيرة مثيلاتها بما لا تنتجه • وهم يتجرون
أيضا مع أهل القارة ، مبادلين على ذهبهم ونحاسهم بما
يحتاجون اليه من ضروريات • ويزرع القمح بوفرة أيضا
فى معظم هذه الجزر • وهذا الخليج من شدة الاتساع ،
وسكانه من الوفرة العددية ، بحيث يبدو كأنما هو عالم
آخر •

الفصل السادس

عن اقليم زيامبا ، وعن ملك ذلك
الاقليم ، وعن تحوله الى تابع للخان
الأعظم .

الآن نعود الى الحديث عن موضوعنا السابق . عندما
تغادر زاي تون وتبحر خمس عشرة مائة من الأميال عبر
ذلك الخليج، كما ذكر آنفا ، تصل الى بلاد تسمى زيامبا، وهي
ذات اتساع عظيم وثروة (١) . ويحكمها ملوكها الوطنيون
ولها لغتها الخاصة . والسكان بها من عبدة الأوثان (٢) .
وتدفع للخان الأعظم (٣) جزية سنوية من الفيلة وخشب
الصبر ، وسنروى لكم مناسبتها وظروفها فيما بعد (٤)
وحوالي ١٢٢٦ صمم قبلاى ، وقد تلقى بيانات عن عظيم
ثراء هذه المملكة ، على ارسال قوة كبيرة ، تكون من الخيالة
والمشاة ، للقيام بفتحها (٥) وتم غزو البلاد وفقا لذلك بجيش
جرار ، وضع تحت امرة أحد قواده يسمى صوجاتو . فلما
أن شعر الملك، وكان اسمه أكامبال (٦)، وشيخا كبيرا علت به
السنون ، بعدم قدرته على المقاومة فى ميدان القتال تلقاء
قوات الخان الأعظم ، انسحب الى معاقله الحصينة ، التى
أورثته أمنا وسلامة ، وهناك دافع عن نفسه دفاع الأبطال .
على أن المدن المفتوحة ، والمساكن القائمة على السهول ،
اجتاحت فى نفس الوقت ودمرت تدميرا ، فلما أن أدرك الملك
أن بلاده سيدمرها العدو عن آخرها أرسل السفراء الى الخان
الأعظم بقصد أن يعرض عليه أنه وهو الشيخ المسن الذى ظل
على الدوام محتفظا بممتلكاته فى حالة من الهدوء والسلم ،

حريص على انقاذهم من الدمار الذى يتهددهم ، وأنه راغب
نظير سحب الجيش الفازى ، فى ان يدفع كل عام جزية
تشريعية فخرية من الأفيال والخشب الذهبى الرائحة .
وعندما تسلم الخان الأعظم هذا الاقتراح ، اخذته الرحمة ،
فأرسل من فوره الى صوجاتو يأمره بالتراجع من هناك بالقوة
تحت امرته ، ووجهه الى فتح أقاليم أخرى ، وهو أمر نفذ
بلا توان (٧) . ومنذ تلك اللحظة داوم الملك على أن يرسل
كل عام الى الخان الأعظم ، على صورة جزية ، مقداراً ضخماً
جداً من خشب الصبر (٨) مصحوباً بعشرين من أضخم وأجمل
الأفيال التى توجد فى نواحيه (٩) . وعلى هذا النحو أصبح
ملك زيامبا رعية للخان الأعظم .

والآن ، وقد قصصنا عليك ما سلف من أحداث ، فأننا
سنذكر بعض الظروف المتعلقة بهذا الملك ومملكته . ففى
المقام الأول ينبغى ألا يفوت القارىء أنه لا يمكن أن تتزوج
فتاة فى مملكته ، حتى يبلوها الملك أولاً . فمن حظيت منهن
بمرضاته ، احتفظ بها ردحا من الزمن ، فاذا صرفها الملك ،
نفحها مبلغاً من المال ، حتى تستطيع أن تحصل ، طبقاً لمنزلتها
الاجتماعية فى الحياة على زيجة مناسبة ومجزية . وزار
ماركو بولو هذا المكان (١٠) فى عام ١٢٨٠ ، وكان للملك
فى تلك الفترة ثلاثمائة وستة وعشرون طفلاً ، بين اناث
وذكور . فأما الذكور فقد برزوا فى ميدان القتال جنداً
بواسل . وتكثر فى البلاد الفيلة وخشب الصبر بوفرة . وبها
أيضاً كثير من غابات الأبانوس ذات السواد الرائع ، ومنها
تصنع قطع أثاث جميلة متنوعة (١١) . على أنه ليس هناك
طرف آخر يحتاج الى ذكر خاص . واذا تغادر هذا المكان فأننا
سننتحدث الآن عن الجزيرة المسماة جاوة الكبرى .

الفصل السابع

عن جزيرة جاوة *

إذا أنت أقلت من زيامبا ، وأبحرت بين الجنوب والجنوب الشرقى مسافة خمس عشرة مائة من الأميال ، بلغت جزيرة ذات حجم كبير جدا تسمى جزيرة جاوة (١) ، وهى ، فيما يقرر بعض أحسن الملاحين علما ، أكبر جزيرة فى العالم ، اذ يربو محيطها على ثلاثة آلاف ميل * وهى تحت سيادة ملك واحد فقط ، كما أن السكان لا يدفعون جزية لأية دولة أخرى * وهم عبدة أو ثان والبلاد زاخرة بالسلع الثمينة * فالفلفل ، وجوزة الطيب ، وسنبل الطيب والخلنجان والكبابه الصينى والقرنفل وجميع الأنواع الأخرى الثمينة من التوابل والعقاقير هى من منتجات الجزيرة (٢) ، الأمر الذى يستدعى أن تزورها كثير من المراكب المحملة بالبضائع ، التى تدر على أربابها مكاسب ضخمة * ويفوق مقدار الذهب الذى يجمع هناك كل تقدير وكل تصور * ومن هناك كان تجار زاي تون ومانجى بصفة عامة يستوردون ، ولا يزالون الى اليوم يستوردون من ذلك المعدن مقداراً ضخماً ، ومن هناك ، أيضا يتم الحصول على الشطر الأكبر من التوابل التى توزع بكل أرجاء العالم (٣) * فأما عن أن الخان الأعظم لم يخضع هذه الجزيرة لسلطانه ، فهو لابد راجع الى بعد شقة الرحلة وأخطار الملاحة (٤) *

الفصل الثامن

عن جزيرتي صوندور وكوندور ،
وعن اقليم لوتشاك .

عند رحيلك من جزيرة جاوة ، واتخاذك في البحر
سبيلا بين الجنوب والجنوب الغربي ، مسافة سبعمئة ميل ،
تلتقي بجزيرتين ، تسمى أكبرهما صوندور وتسمى الصغرى
كوندور (١) ونظرا لأنهما كلتيهما خاليتان من السكان ، لم
تعد هناك ضرورة لقول المزيد عنهما .

وبعد قطع مسافة خمسين ميلا من هذه الجزر ، في اتجاه
جنوبي بشرق ، تبلغ ولاية فسيحة وغنية ، تشكل جزءا من
أرض القارة وتسمى لوتشاك (٢) . وسكانها ممن يعبدون
الأصنام . ولديهم لغة خاصة بهم ، كما أن الذي يحكمهم
ملكهم الخاص ، الذي لا يدفع جزية لأي ملك آخر ، إذ أن
موقع البلاد يحميها من كل هجوم أجنبي .

ولو أمكن الهجوم عليها ، لما فات الخان الأعظم أن يضمها
إلى ممتلكاته . وفي هذا الاقليم ينمو السابان Sappan ، أي
خشب البريزيل بمقادير عظيمة . والذهب موفور لدرجة
لا تكاد تصدق ، والفيلة موجودة هي الأخرى كما أن قنائص
الطراد بالكلاب أو الطيور موفرة .

ومن هنا تصدر جميع محارات (البورسلين) التي إذا
حملت إلى أقاليم أخرى ، تداولها الناس نقودا ، كما لوحظ

سابقا (٣) • وهم يزرعون هنا نوعا من الفواكه تسمى
برتشى ، وهى تقارب الليمونة فى حجمها ولها نكهة
لذيذة (٤) •

وبعد هذه الظروف لا يكاد يوجد هناك شئ يستحق
الذكر ، ما لم يكن ذلك مجرد القول بأن البلاد جبلية قفر ،
لا يكاد الغرباء يطرقونها الا قليلا ، خاصة وأن الملك لا يشجع
زيارتهم لها ، حتى تظل كنوزه وأسرار مملكته ، مجهولة من
بقية العالم جهد الطاقة (٥) •

الفصل التاسع

عن جزيرة بنتان ، وعن مملكة
مالايور .

عند الرحيل من لوتشاك ، والمحافظة على اتجاه جنوبى على امتداد خمسمائة ميل ، تصل الى جزيرة تسمى بنتان (١) ، وهى جزيرة ساحلها غير آهل وغير منزرع ، ولكن الغابات زاخرة بالأشجار ذات الأريج العطر . ويظل البحر بين ولاية لوتشاك وجزيرة بنتان هذه ، وهى مسافة طولها ستون ميلا ، ضحلا لا يزيد عمقه عن أربع قامات ، وهو عمق ضحل يضطر من يبحرون فيه الى رفع دفاف سفنهم (حتى لا تمس قعر البحر) (٢) . وبعد الابحار فى هذه الأميال الستين باتجاه جنوبى بشرق ، ثم التقدم ثلاثين ميلا بعد ذلك ، تصل الى جزيرة هى ذاتها مملكة ، تسمى مالايور ، وهو أيضا اسم مدينتها الكبرى (٣) . ويحكم هذا الشعب ملك كما أن له لفته الخاصة . والمدينة ضخمة جيدة العمارة . وتدور فيها تجارة جسيمة فى التوابل والعقاقير ، التى تزخر بها المنطقة بوفرة . ولم يعد يعنى لنا شئ يستحق الذكر . واذا تقدمنا قدما من هناك فاننا سنتحدث الآن عن جاوة الصغرى .

الفصل العاشر

عن جزيرة جاوة الصغرى *

إذا رحلت من جزيرة بنتان ، وأبحرت فى الاتجاه الجنوبي الشرقى مسافة مائة ميل تقريبا ، تبلغ جزيرة جاوة الصغرى (١) * ومع هذا فرغم أنها صغيرة وهو نعت يمكن أن يطلق عليها بالمقارنة الى غيرها ، فان محيطها لا يقل طوله عن ألفى ميل * وبهذه الجزيرة ثمانى ممالك يحكمها ملوك بنفس العدد ، ولكل مملكة منها لغتها الخاصة ، المتميزة تماما عن لغات الممالك الأخرى جميعا * والقوم وثنىون * وهى تحتوى على كثرة موفرة من الثروات وجميع أنواع التوابل، وخشب الصبر وخشب السابان (أو اليريزيل) للصباغة وأنواع أخرى مختلفة من العقاقير (٢) ، التى لا تستورد الى بلادنا بسبب طول الرحلة وأخطار الملاحة ، ولكنها تجد طريقها الى ولايات مانجى وكاثاى *

وسنعالج الآن على حدة كل ما يتصل بسكان كل من هاته الممالك ، ولكن لعل من الصائب ابتداء ملاحظة أن الجزيرة تقع متوغلة بشدة فى الاتجاه الجنوبي ، بحيث يصبح نجم الشمال (القطبى) غير مرئى بها (٣) * وزار ماركو بولو ستا من الممالك الثمانى ، ومن ثم فهو سيصفها ، ضارباً صفحا عن الاثنتين الأخيرين ، اللتين لم تتح له فرصة مشاهدتهما *

الفصل الحادى عشر

عن مملكة فيلتش ، بجزيرة جاوة
الصغرى .

سنبدأ بمملكة فيلتش ، التى هى احدى الممالك
الثمانى (١) . ومعظم سكانها وثنىون ، وان كان كثير ممن
يقطنون مدن الموانى ، اعتنقوا الدين الاسلامى ، على يد
تجار العرب الذين يترددون عليهم على الدوام (٢) . فاما من
يسكنون الجبال منهم فيعيشون عيش البهائم (٣) ، فهم
ياكلون لحوم البشر ويتناولون - بغير تمييز بين الطاهر
والنجس - كل انواع اللحم الأخرى (٤) . ويوجهون عبادتهم
الى أشياء متنوعة ، وذلك لأن كل فرد يعبد طوال يومه أول
شيء يقع عليه ناظره عندما ينهض من نومه فى الصباح (٥) .

الفصل الثانى عشر

عن الملكة الثانية المسماة مملكة
باسمان .

عند مغادرتك المملكة الأخيرة ، تدخل مملكة باسمان (١) ،
وهى مملكة مستقلة عن بقية الممالك الأخرى ، كما أن لها
لفتها الخاصة . ويدين الناس بالطاعة للخان الأعظم ، بيد أنهم
لا يدفعون له جزية ، فضلا عن أن بلادهم تبعد عنه بعدا
سحيقا لا يتيسر معه ارسال قوات الى هذه المناطق . أجل ان
الجزيرة بأكملها خاضعة له اسما ، وعندما تمر السفن
هناك ، ينتهزون الفرصة فيرسلون اليه سلعا نادرة وتحفا
عجيبة ، وبخاصة نوعا معينا من الصقور (٢) .

ويوجد بالبلاد كثير من الفيلة والخراثيت الضارية ،
والأخيرة أصغر حجما بكثير من الفيل ، ولكن أقدامها
متماثلة . ويشبه جلدھا جلد الجاموس . ولها فى وسط
الجبهة قرن وحيد ، ولكنها لا تؤذى بهذا السلاح من تهاجمه ،
اذ لا تستخدم لهذا الغرض الا لسانها ، المسلح بأشواك طويلة
وحادة ، كما تستخدم ركبھا أو أقدامها ، وطريقة هجومها
هى الدوس بأقدامها على الشخص ثم تمزيقه بلسانها (٣)
ورعوسها تشابه رأس خنزير برى كما أنها تحمل الرأس
منخفضا نحو الأرض . وهى تبتهج بالبرك الطينية ، وتتصف
بمعدات قدرة (٤) .

والحيوان ليس بذلك الوصف الشائع عنه من أنه من
الحيوانات التي تستسلم للعداوى ، كما يعتقد الناس في
بلادنا . ولكن طبعه على نقيض هذا تماما (٥) .

وتوجد بتلك الناحية قرود متنوعة الأصناف ، ونسور
في سواد الغربان ، وهي ذات حجم ضخم ، وتتابع طريدها
بأحسن وجه .

وينبغي أن يعلم الناس أجمعين أن ما يذاع حول الأجساد
المجففة للكائنات البشرية المصغرة أو الأقزام المجلوبة من
الهند ، أن هو إلا حديث خرافة وهراء ، إذ أن مثل هؤلاء
الناس المزعمين إنما يصنعون بهذه الجزيرة صنعا على
الطريقة التالية : أن البلاد تنتج نوعا من القرود ، له حجم
لا بأس به ، وله سحنة تشبه وجه الانسان . فيعمد من
يتخذون صيدها عملا لهم ، الى حلق شعرها ، غير تاركين منه
شيئا ، الا ما كان حول الدقن ، وفي المناطق الأخرى التي
ينمو فيها الشعر بالطبيعة في الجسم البشرى .

وعندئذ يجففونها ويصبرونها بالكافور وغيره من
عقاقير ، حتى اذا جهزوها بطريقة تكسبها مظهر رجال قصار
القامة ، وضعوها في صناديق من خشب وباعوها لأهل
التجارة فيحملونها الى كل أرجاء العالم . ولكن الحق أن هذا
إنما هو مجرد خداع ودجل ، إذ الواقع هو ما شرحناه
بالضبط ، ولم يحدث قط أن عثر الناس على الأقزام - لا ببلاد
الهند ولا بأية بلاد أخرى مهما بلغ من توحشها ، (وجهل
الناس بها) ، على مثل هذه الهيئة المصغرة (٦) . وبحسبنا
ما قيل عن هذه المملكة ، التي لم يعد فيها شيء آخر يستحق
الذكر ، ونتحدث الآن عن مكان آخر يسمى سمارا .

الفصل الثالث عشر

عن الملكة الثالثة ، المسماة

سمارا .

إذا غادرت باسمان ، دخلت مملكة سمارا (١) ، وهي مملكة أخرى بين الممالك التي تنقسم إليها الجزيرة . وأقام ماركو بولو بهذه المملكة خمسة أشهر ، تعطل أثناءها عن الحركة ، على غير رغبة منه تماما ، بسبب الرياح المضادة (٢) . ولا يمكن مشاهدة نجمة الشمال هنا ، ولا حتى النجوم التي في الدب الأكبر (٣) والقوم هنا وثنيون ، ويحكمهم أمير قوى الشكيمة ، يعترف بنفسه تابعا اقطاعيا للخان الأعظم .

ولما كان من الضروري مواصلة المكث على هذه الجزيرة زمنا طويلا ، فإن ماركو بولو استقر على أرضها مع جماعة عدتها ألفا رجل تقريبا ، ودرأ لشر الأهالي المتوحشين ، الذين ينتهزون الفرصة للقبض على المشاة المنفردين وقتلهم ثم أكلهم ، أمر بأن ينفق حوله خندق عظيم وعميق من جهة البر ، بطريقة تجعل كل طرف من طرفي الخندق ينتهي في الميناء الذي ترسو به السفن . وقوى هذا الخندق بابتناء عدة معقل أو متاريس من الخشب ، حيث تيسر البلاد مددا ضخما من تلك المادة (الخشب) ، حتى إذا أصبح هذا الضرب من التحصين حاميا له ، تم له بذلك الاحتفاظ برجاله في أمن مطلق أثناء الشهور الخمسة التي أقاموها . وبلغ من متانة الثقة التي امتلأت بها نفوس الأهالي أنهم زودوهم بمدد من

الأطعمة وغيرها من المواد الضرورية ، طبقا لاتفاق عقده معهم (٤) .

ولن تجد بأى مكان من العالم أسماكا للمائدة أبدع مما تجده هنا . والقمح لا يزرع بالمملكة ، ولكن الناس يعيشون على الأرز . ولا يصنعون خمرا ، على أنهم ينتجون من نوع من الشجر يشبه نخيل البلح شرابا ممتازا بالطريقة التالية : فانهم يقطعون جريدة من النخلة ويضعون مكانها وعاء يتلقى العصير وهو يتنذى من الجرح ويمتلئ الوعاء فى مدى يوم وليلة (٥) .

ويمتاز هذا الشراب بمزايا صحية عظيمة حتى انه ليزيل أضرار مرض الاستسقاء وكذا أوجاع الرئتين والطحال (٦) . وعندما يرى الناس أن هذه الأفرع التى قطعت ، لم تعد تسح أى عصير ، يعمدون الى سقاية الأشجار ، بجلب المياه الغزيرة الكافية لهذا الغرض من النهر فى أنابيب أو قنوات ، فاذا تم ذلك عادت العصارة الى النز مرة ثانية كما فعلت أولا (٧) . وبعض أشجار ذلك النخيل تنتجه بالطبيعة بلون محمر وبعضها الآخر بلون باهت . وينمو جوز الهند هنا أيضا ، فى حجم رأس الانسان ، ويعوى مادة صالحة للأكل حلوة لذينة الطعم وبيضاء كاللبن .

وتجوف هذا القلب اللين ، مملوء بسائل فى صفاء الماء كما أنه بارد وأجمل نكهة وأرق تكويننا من النبيذ ، أو أى نوع آخر من الشراب على الإطلاق (٨) . ويطعم الأهالى اللحم بجميع أنواعه ، الصالح والفساد ، بغير تمييز .

الفصل الرابع عشر

عن الملكة الرابعة ، المسماة

• دراجويان •

ان دراجويان مملكة يحكمها أميرها الخاص ، ولها لغتها المميزة (١) ، وسكانها غير متمدينين وهم عبدة أو ثان ، يدينون لسلطان النخاع الأعظم بالطاعة • وهم يراعون هذه العادة الرهيبة ، متى أصيب أى فرد من أفراد العائلة بالمرض : يرسل أقارب المريض فى طلب السحرة ، ويطلبون منهم ، عند قيامهم بفحص الأعراض ، أن يصرحوا اذا كان سيسترد عافيته أم لا • فيجيب هؤلاء السحرة ، حسبما توحى اليهم الأرواح الشريرة اما بأنه سيبرأ واما بضد ذلك • فاذا كان القرار انه لا يمكن أن يشفى ، دعا الأقارب رجالا معينين ، وظيفتهم التى يتمونها بغاية المهارة ، أن يطبقوا على فم المريض ويكتموا أنفاسه حتى يفطس • فاذا تم ذلك قطعوا الجسد اربا ، ليجهزوه طعاما لهم ، فاذا تم اعداده على هذا النحو ، اجتمع الأقارب والتهموه كله فى قصف وبهجة ، غير تاركين منه شيئا حتى نخاع العظام • اذ لو ترك جزئ واحد من الجسم ، لولد الهوام ، فيما يرون ، فان هذه الهوام تموت ، لافتقارها الى الغذاء بعد ذلك ، ويكون موتها سببا فى انزال عقاب محزن بروح المتوفى •

وبعد هذا يتحولون الى جمع العظام ، حتى اذا أودغوها صندوقا صغيرا جميلا ، حملوها الى غار فى الجبال ، تكون فيه بئامن من كل ازعاج من الحيوانات الضارية • واذا هم تمكنوا من القاء القبض على أى شخص لا ينتسب الى حيهم ، ولا يستلجع دفع فديته ، قتلوه والتهموه •

الفصل الخامس عشر

عن الملكة الخامسة المسماة
لامبرى •

للامبرى بالمثل أيضا ملكها الخاص ولغتها المميزة (١) :
والقوم يعبدون الأصنام أيضا ، ويسمون أنفسهم تابعين
اقطاعيين • « Vassals » للخان الأعظم • وتنتج البلاد
القرزينو (وهو خشب البريزيل أو السابان) بوفرة
عظيمة (٢) ، بقدر ما تنتج الكافور مع عدة أنواع أخرى من
العقاقير (٣) • وهم يبذرون بذور نبات يشابه السابان ،
فاذا شب وشرع ينبت الأفرع ، نقلوه الى بقعة أخرى ، حيث
يترك مدة ثلاث سنوات • ثم ينتزع من جذوره ويستخدم
صباغا (٤) • وأحضر ماركو بولو بعض بذور هذا النبات الى
البندقية وزرعها هناك ، ولكن نظرا لأن المناخ هناك ليس
دافئا بدرجة كافية ، فان واحدة منها لم تنبت •

وبهذه الملكة أناس بذيول ، طولها شبر ، كذيل
الكلب ، ولكنها ليست مغطاة بالشعر • والغالبية العظمى
منهم مخلوقون على هذا الشكل ، ولكنهم يسكنون الجبال
ولا يقيمون في مدن (٥) والخرتيت حيوان يشيع وجوده في
الغابات ، كما أن هناك أعدادا وفيرة من جميع أصناف
الصيد • ما بين بهائم وطير •

الفصل السادس عشر

عن الملكة السادسة ، المسماة
: مملكة فانفور ، حيث يحصل على
دقيق من شجرة معينة .

ان فانفور مملكة بنفس الجزيرة (١) ، يحكمها أميرها
الخاص ، وهناك يعبد الناس الأصنام بالمثل أيضا ، ويدينون
بالطاعة للخان الأعظم . وينتج بهذا الجزء من الاقليم ، نوع
من الكافور ، يفوق كثيرا كل ما عداه من الأنواع . وهو
يسمى كافوز فانفور ، كما أنه يباع بما يعادل وزنه من
الذهب (٢) .

وليس هناك قمح ولا أى نوع آخر من الحبوب ، وإنما
طعام السكان هو الأرز ، مع اللبن والخمر المستخرج من
الأشجار على الطريقة التى سبق وصفها عند الحديث عن
سمارا . ولديهم أيضا شجرة يستخرجون منها بطريقة
فريدة ، ضربا من الدقيق (٣) وساقها باسق ويبلغ من شدة
غلظه أن محيطه قد يستطيع تحويطه رجالان . فاذا نزع عن
عن هذه الشجرة لحاؤها الخارجى ظهر أن المادة الخشبية تعادل
فى سمكها ثلاث بوصات ، وأن الجزء الأوسط مليء بنخاع أو
لب يعطى دقيقا ، يشابه ما يستخرج من جوز البلوط (٤) .

ويوضع ذلك اللب أو النخاع فى أوان مملوءة بالماء ،
ويحرك بعصى ، حتى تعلق الى السطح جميع الألياف وغيرها
من الشوائب ويهبط الى القاع الجزء الدقيقى النقى . فاذا

تم ذلك دلق الماء • ويعد الدقيق الذى يتبقى ، وقد تجرد من كل المواد الغريبة ، للاستخدام بتحويله الى كعك وانواع مختلفة من الفطائر (٥) •

وأكل ماركو بولو مرارا عديدة من هذا الطعام ، الذى يكاد يشبه الخبز فى مظهره وطعمه ، كما أحضر بعضا منه الى بلاده البندقية (٦) . ان خشب الشجرة ، الذى يبلغ سمكه ثلاث بوصات تقريبا (كما سبق أن ذكرنا) ، يمكن ان يشبه بالحديد من هذه الناحية ، فانه متى ألقى فى الماء غطس فورا • وهو قابل للشق فى اتجاه متساو من طرف الى آخر ، مثل قصب الخيزران • ويصنع الأهالى من هذا حرايا قصيرة : ولو أنها صنعت ذات طول كبير أيا كان ، لجعلها ثقلها مستحيلة الحمل أو الاستخدام • ثم انهم يشحذونها من أحد طرفيها ويجعلونها بالنار شديدة الصلابة ، حتى لتصبح قادرة على اختراق أى نوع من الدروع ، كما أنها تفضل الحديد من كثير من الأوجه (٧) • وبحسبنا الآن ما قلناه حول موضوع هذه المملكة (التى هى أجزاء الجزيرة) • ولن نتحدث عن الممالك الأخرى التى تؤلف الأجزاء الباقية ، لأن ماركو بولو لم يزرها • فإذا تقدمنا أماما ، انتقلنا بعد هذا الى وصف جزيرة صغيرة تسمى نوكويران •

الفصل السابع عشر

عن جزيرة نوكويران *

عند انصرافك من جاوة (الصغرى) ومملكة لامبرى ،
وابحارك ما يقارب مائة وخمسين ميلا ، تلتقى بجزيرتين ،
تسمى احدهما نوكويران (١) ، والثانية انجامان . وليست
نوكويران تحت حكم ملك ، وشعبها لا يبعد الا قليلا عن حال
البهائم ، اذ يمضون جميعا عراة الأجسام اناثا كانوا أم
ذكورا ، لا يستر أى جزء من أجسامهم شىء . وهم وثنيون .
تزخر غاباتهم بأبسق الأشجار وأثمناها ، مثل الصندل الأبيض
والأحمر ، والأشجار الى تحمل ثمار جوز الهند والقرنفل
وخشب السابان (أو البريزيل) . هذا الى أن لديهم مجموعة
متنوعة وكبيرة من العقاقير (٢) واذا نواصل المضى فى سبيلنا ،
فاننا سنتحدث عن انجامان *

الفصل الثامن عشر

عن جزيرة أنجامان •

• أن انجامان جزيرة كبيرة جدا ، لا يحكمها ملك (١) •
والمسكان وثنئون ، كما أنهم جنس بهيمي ومتوحش الى أقصى
حد ، ولهم رؤوس وغيون وأسنان تشابه ما للفصيلة
الكلبية (٢) • وهم قساة بفطرتهم ، وكل من أمكنهم أن يضعوا
عليه أيديهم من غير بنى أمتهم صرعوه وأكلوه • ولديهم
مقادير وفيرة وأنواع عديدة من العقاقير • وطعامهم الأرز
واللبن واللحم بجميع أوصافه وأصنافه • ولديهم من الثمار
جوز الهند وتفايح الجنة (٣) ، وفواكه أخرى كثيرة تختلف
عما ينمو من فاكهة بلادنا •

الفصل التاسع عشر

عن جزيرة زيلان *

إذا أنت ارتحلت عن جزيرة انجامان ، واتخذت في البحر سبيلا يتجه نحو جنوب الغرب ، طوله ألف ميل ، ظهرت لك جزيرة زيلان (١) * والجزيرة - بسبب ما هي عليه من حجم - أفضل ظروفًا من أية جزيرة أخرى في العالم * ويبلغ طول محيطها ألفين وأربعمائة ميل ، ولكنها كانت في العصور القديمة أكبر من هذا ، حيث كان مقياس محيطها آنذاك ثلاثة آلاف وستمائة ميل بالتمام ، كما تقسول الخريطة السليالية *Mapa Mundi* على أن العواصف الشمالية التي تهب بقسوة وعنف عارم ، أكلت الجبال بالتحبات والتعرية حتى القسود سقطت في بعض أجزائها وغاصت في البحر ، كما أن الجزيرة لم تعد تحتفظ لهذا السبب بحجمها الأصلي *

ويحكمها ملك اسمه سندوناز (٢) * والناس بها يعبدون الأوثان ويعيشون في استقلال عن كل دولة أخرى * ويمضي الرجال والنساء كلاهما في حالة عري تقريبا حيث يقتصرون فقط على لف قماشة حول المنطقة الوسطى من أجسامهم (٤) *

وليس لديهم حبوب عدا الأرز والسمسم الذي يستخرجون منه الزيت * ويتألف طعامهم من اللبن والأرز واللحم ، كما أنهم يشربون الخمر المستخرجة من الأشجار ، وهي الخمر التي سبق وصفها آنفا (٥) وهنا يوجد أيضا خير ما في العالم من أنواع خشب السابان (البريزيل) * وتنتج الجزيرة

ياقوتاً أجمل وأثمن مما يعثر عليه بأية جهة في العالم ،
وكذلك الصافير (اى الياقوت الازرق) والتوباز والجمشت
والعقيق الاحمر ، وكذا انواعاً أخرى كثيرة من الأحجار
الكريمة والثمينة (٦) .

ويقال ان الملك يمتلك أعظم ياقوتة شوهدت في العالم ،
وهي جوهرة طولها شبر ، في غلظ ذراع الانسان ، وهي
صقيلة براقية على نحو يتجاوز كل وصف ، وهي مبرأة من
كل عيب ، وتبدو كأنما هي نار متوهجة (٧) وهي على الجملة ،
ثمينة جداً حتى ليتعذر تقويم قيمتها بالمال . وأرسل الخان
الأعظم ، قبلاى ، السفراء الى هذا العاهل يناشده أن يمنحه
ملكية هذه الياقوتة ، على أن يدفع اليه في مقابلها ما يعادل
قيمة مدينته .

فكان جوابه على النحو التالى : « انه لن يبيعها ولو دفعت
اليه جميع كنوز العالم ، كما أنه لا يسمح بأية حال أن تفارق
مملكته ، لأنها جوهرة سلمها اليه أسلافه فى العرش » (٨) ،
وبهذا أخفق الخان الأعظم فى الحصول عليها .

وسكان هذه الجزيرة ليسوا بحال رجال حرب ، ولكنهم
على نقيض ذلك أذلاء جبناء (٩) فاذا أوجبت الظروف
استخدام الجند ، حصلوا عليهم من دول أخرى مجاورة من
بين أفراد المسلمين . والآن ولم يعد هناك . أى شيء آخر
يستحق الذكر ، فإنا سنتجاوزها للحديث عن ما أبار .

الفصل العشرون

عن ولاية ما أبار *

ق ١ : بعد مغادرة جزيرة زيلان ، والابحار غربا ستين ميلا (١) ، تصل الى ولاية ما أبار الكبيرة (٢) التى ليست جزيرة ، بل جزء من قارة الهند الكبرى ، كما يسمونها ، وهى أعظم وأغنى أقطار العالم طرا . ويحكمها أربعة ملوك يسمى الرئيس منهم سندر باندى (٣) .

وتقع فى ممتلكاته منطقة لصيد اللؤلؤ ، فى الخليج الذى يقع بين ما أبار (المعبر) وجزيرة زيلان (٤) ، حيث لا يزيد عمق الماء فيه عن عشر قامات الى اثنتى عشرة قامه ، كما انه لا يزيد فى بعض الاماكن عن قامتين (٥) . وتجرى عملية صيد اللؤلؤ على الطريقة التالية : فيشكل جماعة من التجار من انفسهم شركات منفصلة ، ويستخدمون سفنا وزوارق كثيرة مختلفة الأحجام ، مزودة أحسن تزويد بالحبال والخطافات والبكرات حتى يستطاع اعتلاؤها بأمان وقد ألقت مراسيها (٦) . وهم يستخدمون ويحملون معهم أشخاصا برعوا فى فن الغوص على المحار الذى يحوى اللآلىء . فيصعدون الى سطح الماء عندما لا يستطيعون كتم أنفاسهم لمدة أطول ، ثم يعودون الى الغوص ثانية بعد فترة وجيزة (٧) . ويواصلون العمل فى هذه العمليات طوال اليوم كله ، ويجمعون بما يبدلون من جهود (فى مدى الموسم) كمية من المحار كافية لتزويد جميع الأقطار بمطالبها (٨) . والنسبة العظمى من اللؤلؤ المجلوب من المصنيد فى هذا الخليج

مستديرة وذات بريق جيد . والبقعة التي يؤخذ منها المحار بأعظم عدد ، تسمى بتالا ، وتقع على شاطئ القارة الهندية ، ومن هناك تمتد المصايد ستين ميلا نحو الجنوب (٩) .

ونظرا لأن الخليج مملوء بنوع من السمك الكبير ، الذى كثيرا ما يهلك الغواصين ، فان التجار يحتاطون بأن يصطحبوا معهم جماعة من السحرة تنتسب الى طائفة من البراهمة ، لهم القوة بواسطة فنهم الشيطاني على كبح هذه الأسماك وتخيلها ، وبدا يمتنعونها من ائزال أى أذى (١٠) .

ونظرا لأن الصيد لا يتم الا نهارا فقط فانهم يوقفون أثر السحر فى المساء ، حتى لا يقدم غير الأمناء من الأشخاص ، ممن يجنحون الى انتهاز فرصة الغوص ليلا وسرقة المحار ، على الغوص لما بداخلهم من خوف من التدمير غير المحدود الذى تحدثه هذه الحيوانات (١١) .

وهؤلاء السحرة يعدون بالمثل بارعين مهرة فى فن شبل حركة جميع أنواع الحيوانات والطيور وسلبها القدرة على الهرب . ويبدأ موسم الصيد فى شهر أبريل ، ويستمر حتى منتصف مايو (١٢) .

وامتياز الاشتغال بالمصايد يعطى على صورة « التزام » من الملك ، الذى لا يحصل الا على عشر الناتج فقط ، أما السحرة فيحصلون على واحد من عشرين ، وبالتالى فانهم يحتفظون لأنفسهم بربح جسيم (١٣) . وحتى اذا انتهت المدة المذكورة أعلاه تكون كمية المحار استنفدت ، وعندئذ تؤخذ السفن الى مكان آخر ، يبعد ثلاثمائة ميل كاملة عن هذا الخليج ، حيث يوطن القوم أنفسهم فى شهر سبتمبر ، وينواصلون العمل حتى منتصف أكتوبر (١٤) ، وفضلا عن

عشر اللآلئ التي هي حق للملك فانه يحتتم أن يكون له الاختيار في كل كبيرة الحجم منها منتظمة الشكل ، ولأنه يدفع ثمنها بسنخاء ، لا يكره التجار أن يحملوها اليه لذلك الغرض (١٥) .

ق ٢ : يسير سكان هذا الجزء من البلاد عراة لا يستر أجسامهم الا قطعة من قماش يغطون بها ما يحتتم الاحتشام تغطيته من أجزاء الجسم (٦) . وليس الملك بأكثر استتارا من سائر رعيته ، لولا أن له قطعة قماش أغلى ، ولكنه يتميز عن غيره بصورة فاخرة بما يتزين به من مختلف أنواع الزينة مثل ياقة مرصعة بالجواهر مثل الصفيري (Sapphires) والزمرد والياقوت الأحمر ، ذات القيمة الطائلة .

كما أنه يلبس - معلقا في عنقه ومتدليا الى صدره - سمطا حريريا دقيقا يضم مائة وأربع جوانات ، والجمانة (لؤلؤة) وياقوتة كبيرة وجميلة . ومرد هذا العدد المعين ، هو أنه مطالب بحكم سنن دينية أن يكرر صلاة أو يدعو دعاء ، بقدر هذا العدد كل يوم ، تزلفا لآلهته ، وهنوا ما لم يفت أسلافه أن يفعلوه مطلقا (١٧) .

ويتألف الدعاء اليومي (أي الصلاة) من هذه الكلمات باكوكا باكوكا باكوكا ، التي يكررونها أربعاً ومائة مرة . وهو يلبس في كل ذراع ثلاث أساور ذهبية مزينة باللؤلؤ والجواهر ، ويضع على ثلاثة أجزاء من الساق أشرطة ذهبية مرصعة بنفس الطريقة ، كما يضع في أصابع قدميه ، فضلا عن أصابع يديه ، خواتم لا تقدر بثمن (١٨) . الحق ان من أيسر الأمور على هذا الأمير اتخاذ مثل هذه الرموز والحق الملكية الفاخرة ، وذلك لأن الجواهر واللآلئ كلها من انتاج بلاده (١٩) .

وله على الأقل ألف من الزوجات والاماء ، ومتى رأى امرأة أعجبه جمالها ، عبر فوراً عن رغبته فى احتيازها * فوضع بتلك الطريقة يده على زوجة أخيه ، ونظراً لأنه كان رجلاً حكيماً راجح العقل ، فإنهم أقنعوه بالألا يجعل من ذلك مثار خلاف ، وإن أوشك عدة مرات أن يحتكم إلى السلاح * وكانت أمهما تعترض عليهما محتجة فى تلك الحالات ، وتكشف عن ثدييها قائلة : « أن أنتما يا ولدى ، حقرتما نفسيكما بالشقاق والعداء بينكما ، فانى سأقطع على الفور من جسمى هذين الثديين اللذين أرضعاكما » وهكذا كان الانفعال يذهب ويهدأ *

ويحتفظ الملك حول شخصه بكثير من الفرسان ، يميزون بتسمية معناها « خدام الملك المخلصون ، فى هذه الدنيا وفى الدار الآخرة » * وهم يحيطون بشخصه فى البلاط ، ويركبون إلى جانبه فى المراكب ، ويرافقونه فى كل المناسبات * ولهم سلطان ونفوذ كبير بكل أرجاء المملكة * وعند وفاة الملك ، وعندما يقام حفل احراق بدنه ، يلقى جميع هؤلاء الخدام المخلصون بأنفسهم فى النار عيناها ، ويحترقون مع الجثة الملكية ، وذلك بقصد أن يكونوا فى صحبته فى حياة أخرى تالية (٢٠) *

وتنتشر بين القوم العادة التالية أيضا : فإذا مات ملك ، لم يتعرض ابنه الذى يخلفه للكنوز التى جمعها سلفه ، أخذاً بفكرة : هى أن تلك الكنوز ستنعكس على قدرته فى الحكم ، إذا هو لم يظهر - متى تهيأ له امتلاك البلاد بأكملها - قدرته على ملء الخزائن كما فعل أبوه من قبل * ونتيجة لهذه الفكرة المتسلطة ، فمن المفروض أن الأجيال المتعاقبة تجمع ثروات طائلة *

وإذا أن الخيل لا تربي بهذه الأقطار ، فإن الملك وأخوته الأمراء الملكيين الثلاثة ينفقون مبالغ كبيرة من المال كل عام

في شرائها من تجار من هرمز وديوفار (ظفار) وبتشر وأدم (عدن) ، يحملون تلك الخيل الى هناك ليبيعوها ، ويصبحون أثرياء من تلك التجارة ، وذلك لأنهم ينقلون ما تصل عدته الى خمسة آلاف حصان ، يحصلون في الواحد منها على خمسمائة ساجى من الذهب ، وهى تعادل مائة مارك من الفضة . وعند نهاية السنة ، وربما لم يظل من هذه الخيول على قيد الحياة ثلاثمائة ولعل ذلك يجىء نتيجة - فيما يظن - لعدم توفر أشخاص أوتوا أهلية للعناية بها أو لاعطائها الأدوية المناسبة ، ومن هنا تنشأ الحاجة الى تعويض ما فقد منها بغيرها كل عام (٢٢) على أنه فى رأى أن مناخ المنطقة غير مناسب لجنس الخيل ، وأن ذلك هو مرد صعوبة استيلائها أو الاحتفاظ بها .

وهم يطعمونها اللحم المجهز بالأرز ، وغير ذلك من اللحوم المجهزة (٢٣) وذلك نظرا لأن البلاد لا تنتج حبوبا أخرى عدا الأرز . والفرس هنا ، وإن كانت ضخمة الجسم وغشيتها حصان كبير لا تنتج الا « فلوا » صغير الحجم مشوها ، بأرجل كسيحة كما أنه غير لائق للتدريب على الركوب .

وتنتشر فى هذا المكان هذه العادة العجيبة : فعندما يعلن رجل ارتكب جريمة ، حوكم عليها وحكم عليه بالاعدام رغبتة ، وهو يقاد الى ساحة الاعدام ، فى التضحية بنفسه لصنم من الأصنام ، يضعه أقاربه وأصدقائه على الفور فوق ضرب من الكراسى ويسلمونه اثنتى عشرة سكيئا مشحونة من جيد الفولاذ . ثم يطوفون به على هذا الوضع فى أرجاء المدينة ، معلنين بأعلى صوت ، أن هذا الرجل الشجاع على وشك التضحية بنفسه فى ميته تطوعية بدافع الحماية لعبادة الوثن .

وعند الوصول الى المكان الذى كان سينفذ فيه حكمهم القاتلون يتناول اثنتين من السكاكين واذ يصرخ قائلا : « انى

أقدم نفسي للموت تكريما لهذا الوثن ، فانه يسارع باغماد واحدة منهما في كل فخذ ، ثم يغمد واحدة في كل ذراع ، واثنين في كرشه واثنين في صدره . حتى اذا تم له على هذا النحو اغماد جميع السكاكين - عدا واحدة - في أجزاء مختلفة من جسمه ، مكررا كل جرح الكلمات التي سبق ذكرها ، أغمد الأخيرة منها في قلبه فيفارق الحياة على الفور (٢٤) .

وما يكاد هذا المشهد يؤدي حتى يقبل ذوو قرباه ، متهللين فرحين فرحا عظيما ، ليحرقوا الجثة ، وعندئذ تقدم زوجته ، بدافع التقوى الحافلة والاعتبار لزوجها ، على القاء نفسها في النار ولا تلبث حتى تحترق معه . والمجتمع يهلل ويكبر كثيرا للنساء اللاتي يبدن هذا العزم ، كما أن من يحجمن عن إتيانه يلقين الاحتقار والذم (٢٥) .

ق ٣ : تبدى الغالبية العظمى للسكان الوثنيين بهذه البلادة اجلالا خاصا للثور ، ولن يستطيع - تحت أي اعتبار - حمل واحد منهم على تناول لحم الثيران (٢٦) . على أن هناك جماعة معينة من الناس تسمى الجاوى ، الذين لا يجرءون على ذبح الحيوان وان جاز لهم تناول لحمه ، ولكن شعب الجاوى اذا وجدوا جثة لحيوان ، سواء مات ميتة طبيعية أم غير ذلك ، أكلوا منه (٢٧) ، كما أن جميع الناس يجهضون بيوتهم بطبقة من جلة (بفتح الجيم) البقرة (٢٨) وطريقة نهم في الجلوس هي على بسط مفروشة على الأرض ، واذا هم سئلوا لماذا يجلسون على تلك الشاكلة أجابوا أن الجلوس على الأرض شرف ، وأنه كما أننا نشأنا من الارض ، فأننا كذلك عائدون اليها ، وأن أحدا لن يستطيع أن يفيها حقها من الاكرام فما بالك أن يقدم امرؤ على احتقارها . وهؤلاء « الجاوى » وجميع قبيلتهم هم أحفاد الذين ذبحوا القديس توما الرسول ، وبناء على هذا لا يستطيع فرد منهم دخول المبنى الذي يرقد فيه جسد الرسول المبارك ، ولو استخدمت قوة عشرة رجال

أولى بقية فى حمله الى الموضع ، اذ تصده القوة الخارفة
لنجمان المقدس (٩٢) .

والبلاد لا تنتج من الحبوب الا الارز والسهم (٣٠)
ويخرج الناس للمقتال بالرماح والتروس ، ولكن بغير ثياب
تسترهم ، كما انهم شعب حقير غير حربى (٣١) : فهم
لا يذبحون ماشية ، ولا أى نوع من أنواع الحيوان ليقاتلوا
به ، ولكنهم عندما يرغبون فى تناول لحم الغنم أو غيرها من
الدواب ، أو الطيور ، لجأوا الى العرب الذين لا يخضعون
لنفس الشرائع والعادات - لكى يؤدوا لهم تلك المهمة (٣٢)
ويغتسل النساء والرجال جميعا ، بالماء مرتين يوميا أى فى
الصباح والمساء . وهم لا يأكلون ولا يشربون حتى يتم لهم
هذا الاغتسال أو الوضوء ، ومن أهمل هذا الطقس ، يعد
هرطيقا كافرا (٣٣) .

وينبغى أن يلاحظ أنهم فى تناولهم الطعام لا يستخدمون
الا اليد اليمنى فقط ، كما انهم لا يمسون طعامهم باليسرى
أبدا . وهم يستخدمون يدهم اليمنى فى كل عمل نظيف
ورقيق ، ويحتفظون بالثانية للأغراض المنحطة من التطهير
البدنى وغير ذلك من الأعمال المتصلة بالوظائف الحيوانية .
وهم يشربون من نوع معين من الأوعية ، على أن يشرب كل
فرد من انائه ، ولا يستخدم مطلقا اناء شخص آخر
ولا يلصقون الاناء بأفواههم ولكن يرفعونه فوق الرأس ،
بغير أن يسمحوا للاناء بأية حال أن يمس الشفتين (٣٤)
واذا هم قدموا شرابا الى غريب لم يسلموه اناءهم ، ولكن ان
لم يكن له وعاء خاص به ، صبوا الخمر أو أى شراب آخر
فى يديه فيشربه منهما ، كأنما هما كأس (٣٥) .

والجرائم فى هذه البلاد ، تعاقب بعدالة دقيقة ، تضرب
بها الأمثال ، أما فيما يتعلق بالمدينين ، فتنتشر العادات
التالية : اذا كرر دائن مطالبة مدينة بالسداد ، فسوف المدين

من وقت لآخر بالوعود الكاذبة ، أمكن للدائن ربط المدين برسم دائرة حوله ، فلا يستطيع منها خروجا حتى يرضى دائنه ، اما بالدفع أو بتقديم ضمانات كافية * فان هسو حاول الفرار من الدائرة ، جعل نفسه عرضة لعقوبة الموت ، بوصفه خارقا لقواعد العدالة (٣٦) . وتصادف أنه عندما كان السير (السيد) ماركو بهذا القطر أثناء عودته الى وطنه ، شهد بعين رأسه مصافقة غريبة من هذا القبيل .

فقد كان الملك مدينا بمبلغ من المال لأحد التجار الأجانب ، ومع أن التاجر كثيرا ما ألح عليه فى الدفع ، فانه ظل يمتطله زمنا طويلا جدا بوعود وتأكيدات باطلة .

وبينما الملك ممتط جواده ذات يوم ، انتهز التاجر الفرصة فرسم دائرة حوله هو وحصانه * وما أن أدرك الملك ما تم فعله حتى توقف فورا عن السير ، كما أنه لم يتحرك من مكانه حتى تمت تلبية جميع مطالب التاجر . وشهد المارة المتفرجون ما جرى بكل اعجاب وأعلنوا أن الملك يستحق لقب « الأبلغ عدالة » ، عندما خضع هو نفسه لقوانين العدالة .

ويمتنع هؤلاء القوم عن تناول الخمر المصنوع من العنب ، واذا اتهم واحد منهم بذلك ، عد من سوء السمعة ، بحيث لا تقبل شهادته فى المحاكم (٣٧) وهناك تحيز مماثل لهذا يستشعره الناس ضد الأشخاص الذين ينتابون البحر ، الذين هم - فيما يلاحظون - قوم ذوو حظوظ محفوفة بالتهور ، وينبغى ألا تقبل شهادتهم وهم على هذا الوصف (٣٨) ، وهم لا يرون فى الزنى جريمة * وحرارة البلاد مفرطة ، ولذا يسير الأهالى عراة الأجسام . وليس هناك مطر الا فى شهور يوتية ويوليو وأغسطس ، فتلولا البرودة التى يجلبها المطر أثناء تلك الأشهر الثلاثة لكان من المستحيل تحمل الحياة (٣٩) .

ويوجد بهذه البلاد كثير من المهرة فى العلم المسمى « علم الفراسة Physiognomy » الذى يعلم المعرفة بطبيعة الناس وصفاتهم ، وهل هم ميالون الى الخير او الشر . ويتم تمييز تلك الصفات فورا طبقا لمظهر وشكل الرجل أو المرأة . كما أنهم يعرفون أيضا كل ما تتكهن به الأحوال من حوادث تبعا لملاقاتهم أنواعا معينة من البهائم والطيور .

ويهتم هؤلاء الناس بطيران الطيور اهتماما يفوق اهتمام أى شعب آخر فى العالم ، ومنها يتكهنون بحظ سعيد أو سيء (سانح أو بارح) . وفى كل يوم من أيام الاسبوع ساعة يعدونها نحسا مشئومة ، ويسمونها تشويياتش choyach (٤٠) ، وعلى هذا النحو مثلا ، تكون فى يوم الاثنين ساعة (صلاة) الضحى mi-tierce ، وتكون فى يوم الثلاثاء ساعة الظهيرة Tierce وفى يوم الأربعاء ساعة العصر (None) (٤١) ، وفى تلك الساعات لا يأتون شراء ولا بيعا ، ولا يقومون بأى نوع من أنواع المعاملات ، لاقتناعهم بأن النجاح لن يكون حليفا لهذه الصفحات . وعلى هذا النحو يتحققون من خواص كل يوم من الأيام على مدار السنة وهى خواص يصفونها ويدونونها فى كتبهم (٤٢) .

وهم يحددون الساعة من النهار بواسطة طول ظل الرجل عندما يقف منتصب القامة (٤٣) .

وعندما يولد طفل ، ذكرا كان أو أنثى ، يدون الأب أو الأم مذكرة مكتوبة باسم اليوم من الأسبوع الذى حدثت فيه الولادة ، وكذلك بعمر القمر ، واسم الشهر وساعة النهار . ويتم هذا لأن كل عمل من أعمال حياتهم فى المستقبل انما ينظمه علم التنجيم .

وبمجرد أن يبلغ الابن الثالثة عشرة من عمره ، يطلقون له الحرية ، ولا يسمحون له بعد ذلك بأن يظل مقيما بمنزل

أبيه ، ويمنحونه مبلغا يصل ، فى عملتهم ، الى ما يتراوح بين عشرين غروتا الى أربعة وعشرين * ومتى زودوه بهذا المبلغ ، اعتبروه قادرا على اكتساب عيشه ، بالاشتغال فى أية حرفة ، يستطيع الحصول منها على كسب * ولا يكف هؤلاء الصبيان عن الجرى هنا وهناك فى كل الاتجاهات طوال اليوم كله ، حيث يشترون سلعة من مكان ويبيعونها فى آخر (٤٤) *

وفى موسم هيد اللؤلؤ ، يكتشرون من ارتياد الشاطئ ، ويشترون من الصيادين أو من غيرهم ، خمس لآلىء (صغيرة) أو ستا أو أكثر ، حسب ما تسمح به * وواردهم ، حيث يحملونها بعد ذلك الى التجار ، الذين يلزمون بيوتهم لشدة حرارة الشمس ، فيقولون لهم : « كلنا هنا هذه اللآلىء كذا ، فاسمحوا لنا فيها بمكسب تروونه معقولا » * فيقدم اليهم التجار عندئذ شيئا يتجاوز الثمن الذى دفع فيها وتم به الحصول عليها *

وعلى هذه الشاكلة يتاجرون بالمثل فى سلع كثيرة أخرى ويصبحون متجرين ممتازين بالغى الكفاية * فاذا انتهت معاملات اليوم ، حملوا الى أمهاتهم المؤن والأطعمة اللازمة لطعامهم ، فيجهزنها لهم ، ولكنهم لا يتناولون على الاطلاق شيئا على حساب والديهم *

ق ٤ - : وتختلف جميع البهائم والطيور ، ليس فقط فى هذه المملكة ، بل وأيضا بالهند بصفة عامة ، عن مثيلاتها ببلادنا ، فيما عدا السمانى ، التى تماثل مثيلاتها عندنا تماما ، فاما ما خلاها فكلها مختلفة (٤٥) * وبالبلاد خفافيش (وطاويط) تصل الى حجم النسور ، ونسور فاحمة كالغربان وأكبر كثيرا من نسورنا * وطيранها سريع ، ولا يمكن أن يفوتها الامساك بقنائصها من الطيور (٤٦) *

وتوجد بمعابدهم أصنام كثير ، تمثلهم أشكالهم بصورة الذكور والاناث ، والى هؤلاء يهب الآباء والأمهات بناتهم *

فاذا تم اهداؤهن على هذا النحو ، كان المتوقع منهن ان يحضرن كلما طلبهن قساوسة الدير للاسهام في ارضاء الوتن ، فيدلفن الى هناك في مثل تلك المناسبات ، وهن يغنين ويلعبن على الآلات ، ويضفن البهجة بحضورهن تلك الاختفالات . وهؤلاء الشابات كثرات العدد جدا ويؤلفن جماعات كبيرة (٤٧) . وهن يحملن عدة مرات في كل اسبوع قربانا من الأطعمة الى الصنم الذى يخلصن له الدين ، ومن هذا الطعام يتناول الصنم فيما يقال .

ولهذه البغية ، توضع أمامه مائدة ، وعلى هذه المائدة تترك الأطعمة مدة ساعة كاملة ، لا تكف الأوانس أثناءها عن الغناء والعزف والقيام بحركات فاحشة . وتدوم تلك الحال بقدر ما يحتاج اليه شخص له مقامه ، من الزمن ليتناول وجبة مناسبة . وعندئذ يعلن (أى الفتيات) ان روح الصنم راضية بنصيبها من الوليمة المقدمة لها ، ثم يصطففن حوله ، ويشرعن فى تناول الطعام بدورهن ، وبعد هذا تنصرف كل الى منزلها . واليكم السبب الذى قدم تعليلا لاجتماع الشابات وأداء المراسم التى رأينا وصفها : « اذ يعلن الكهنة أن الاله الذكر مستاء من الالهة الانثى ساخط عليها ، ويرفض الاتصال بها بل حتى محاورتها ، وأنه اذا لم نتخذ بعض التدابير لاعادة السلام والانسجام بينهما . ذهبت جميع مصالح الدين أدراج الدمار ، وذلك نظرا لأن نعمة الالهة وبركاتهما ستحبس كلها عنهم من أجل ذلك ، يتوقع من كل المريعات المنذورات للدير أن يظهرن فى حالة عرى ، لا يسترهن الا قماشة حول أوساطهن ، وأن يرحن وهن على هذه الحال ينشدن الأناشيد للاله والالهة . ويعتقد هؤلاء الناس أن الاله كثيرا ما يسلى نفسه بالالهة » .

ويستخدم الأهالى ضربا من السرير المعادى أو النقال الخفيف ، مصنوعا من أشغال قصب خفيفة جدا ، قد صمم بمهالة ، بحيث انهم متى رقدوا عليه وجنحوا الى النوم ،

اسببهم اسدان الستائر حولهم بجذب ثقله خيط . وهم يسعدون
هذا ابتغاء طرد العناكب (الانتبآت) ، التي لها عضسه
اليمة ، وكذا رغبة في تجنب مضايقه البراعيت وغيرها من
الهوام الصغيرة ، وفي نفس الحين لا يطرد الهواء (٢٨) ،
التشديد اللزوم لتخفيف الحرارة المفرطة . على ان متعا من
هذا القبيل لا يحطى بها سوى ذوى اليسار والمكانة من
الناس ، فاما من عداهم من أبناء الطبقة الدنيا فيرقدون في
الشوارع في العراء (٤٩) .

ويرقد في ولاية المعبر هذه (٥٠) جثمان الشهيد المجيد
القديس توما الرسول ، الذى لقي الشهادة هناك . وهو
موجود بمدينة صغيرة ، لا يزورها كثير من التجار ، لعدم
صلاحيتها لأغراض تجارتهم ، غير أنه يؤمها لأسباب دينية ،
عدد ضخم من المسيحيين والعرب (٥١) كليهما ويعده الآخرون
نبيا عظيما ، ويسمونه أنانياس ، ومعناها الشخصية
المقدسة (٥٢) والمسيحيون الذين يقومون بحج هذه الكنيسة ،
يجمعون الثرى من البقعة التى ذبح فيها - وهو ثرى أحمر
اللون ، ويحملونه معهم بكل اجلال - وكثيرا ما يستخدمونه
فيما بعد ، فى عمل المعجزات ، واعطائه مذوبا فى الماء
للمرضى ، فيشفى كثيرا من الأمراض (٥٣) .

وفى عام ١٢٨٨ الميلادى ، رأى أمير قوى بالبلاد (٥٤) ،
جمع وقت ضم المحصول (باعتباره نصيبه) مقداراً ضخماً
جداً من الأرز ، ولم يجد لها أجراً تكفى لتخزينها كلها ،
أن يستخدم لهذا الغرض البيت الدينى التابع لكنيسة القديس
توما . ولما كان هذا مناقضاً لازادة من عليهم سداثة المكان ،
فأنهم التمسوا منه ألا يحتل على هذا النحو مكاناً خصص
لراحة الحجاج ، الذين كانوا يفدون لزيارة جسد ذلك
القديس المجيد . ورغم ذلك فإنه أصر بعناد على رأيه .

وفى الليلة التالية ظهر له الرسول المقدس فى المنام ،
بمسكا بيده حربة صغيرة ، سددها نحو عنق الملك ، قائلاً له :
« اذا أنت لم تخل على الفور بيتى ، الذى احتللته ، فانى
سأقتلك قتلة تعسة » . واستيقظ الأمير فى فزع شديد ،
وأصدر على الفور أوامره بتنفيذ ما طلب منه ، معلناً على
الملا أنه رأى الرسول فى منامه . وتتم هناك أنواع عديدة
من المعجزات ، عن طريق توسط القديس المبارك . ويملك
المسيحيون المنوطون برعاية الكنيسة أحراشا من تلك الأشجار
التي تنتج جوز الهند ، ومنها يحصلون على معاشهم ،
ويدفعون لأحد الأخوة الملكيين ضريبة قدرها غروت واحد
عن كل شجرة من (٥٥) الشجر .

ويروى أن مصرع هذا الرسول ذى القداسة العظمى ،
تم على الوجه التالى : فانه بعد أن أوى الى صومعة له ، شغل
فيها بالصلاة ، وحوله مجموعة من طير الطاووس ، التي
تمتلئ بها البلاد هناك ، تصادف أن وثنيا من قبيلة الجاوى
التي أسلفنا اليك صفتها ، كان يمر بتلك المنطقة ، ولم
يلحظ وجود الرجل المقدس ، فأطلق سهماً على أحد الطاواويس ،
فأصاب الرسول فى جنبه . فلما أن وجد نفسه مجروحاً ،
لم يمهل الا ريثما يشكر الرب على رحماته وأسلم الروح بين
يديه (٥٦) .

والناس فى هذه الولايات ، وان كانوا من السود ،
لا يولدون بمثل ذلك الصبغ العميق القاتم الذى يصلون
اليه بوسائل صناعية . فانهم ، لبلوغ تلك الغاية يدلكون
أجسام أطفالهم ثلاث مرات بالشيرج (زيت السمسم) (٥٧)
وهم يجعلون تماثيل آلهتهم سوداء ، فأما الشيطان فانهم

يرسمونه أبيض ، مؤكدين أن جميع الشياطين على ذلك
اللون (٥٨) . فاما من كان منهم يقدم العبادة للثور ، فأنهم
يأخذون معهم عندما يخرجون للقتال بعض شعرات من ثور
برى ، يربطونها بأعراف خيولهم ، معتقدين أن من فضيلتها
وأثرها أن كل من يحملها معه حيث ذهب ناج من كل خطر .
وتبعاً لهذا فإن شعر الثور البرى يباع بسعر مرتفع بتلك
الأقطار .

الفصل الحادى والعشرون

عن مملكة مورفيلى أو مونسول .

ان مملكة مورفيلى هى تلك التى تدخلها عندما تغادر مملكة المعبر ، بعد التقدم خمسمائة ميل فى اتجاه شمالى (١) . وسكانها يعبدون الأوثان ، ويعيشون فى استقلال عن كل دولة أخرى . وهم يقتاتون بالأرز واللحم والسمك والفواكه .

وفى جبال هذه المملكة يعثر على الماس (٢) . وفى أثناء فصل الأمطار تهطل المياه سيولا جارفة بين الجبال والكهوف ، فإذا هدأت السيول ذهب الناس لبحثوا عن الماس فى قيعان الأنهار ، فيجدون منه الكثير (٣) ، أخبر بعضهم السسير (السيد) ماركو أنه فى الصيف عندما تكون الحرارة مفرطة ، والمطر منقطعاً ، يصعد الناس الجبال بمشقة كبيرة ، وخطر جسيم لكثرة الأفاعى التى تملأ تلك الجبال . ويقال انه يوجد قرب القمة أودية عميقة ، مملوءة بالكهوف ومحوطة بالمنحدرات الوعرة ، وفيها يعثر على الماس ، وهنا اعتاد كثير من النسور واللقلاق الأبيض بناء عشوشها وهى التى تجذبها الحيات لأنها تتغذى بها . ويتخذ من يطلبون الماس من الأشخاص موقوفهم قرب أفواه الكهوف ، ومن هناك يقذفون عدة قطع من اللحم ، تتبعها النسور واللقلاقات حتى قاع الوادى وتحملها الى أعالى الصخور . وإلى هناك يبادر الرجال الى الصعود ، ويبعدون الطيور واذ يستردون قطع اللحم فانهم كثيرا ما يجدون الماس ملتصقا بها . فان

كان لدى الطيور الزمن الكافى لالتهام اللحم ، راقبوا مكان
جثومها ليلا ، وفى الصباح يجدون الماس بين الجملة والبعر
الذى يسقط منها (٤) ولكن ينبغى لك ألا تظن أن الماس الجيد
يقع للمسيحيين ، لأنه انما يحمل الى الخان الأعظم ، والى ملوك
ورؤساء ذلك الاقليم . وهم يصنعون بتلك البلاد أرق أنسجة
الأقطان ، التى يجدها المرء بأى جزء من أجزاء الهند (٥) .
ولديهم من الماشية القدر الكافى كما أن لديهم أضخم غنم فى
العالم والكثير من كل أنواع الطعام .

الفصل الثاني والعشرون

عن ولاية لاک أو نوآک أو لار •

متى غادرت المكان الذى ترقد فيه رفات الرسول المجيد ،
القديس توما ، وتقدمت غربا ، دخلت ولاية لار ، التى
يرجع اليها أصل البراهمة ، الذين ينتشرون بكل أرجاء
الهند (١) • وهؤلاء البراهمة خير وأشرف تجار على وجه
البيسطة (٢) • فما من اعتبار مهما يكن ، يمكن أن يحملهم
على النطق بكذبة واحدة ، وان توقفت حياتهم على ذلك •
ويستشعرون مقنا شديدا للسرقة ولكل اختلاس لمتاع
الآخرين (٣) • ويشتهرون بالمثل بفضيلة كبح النفس عن
الشهوات ، اذ يقنعون باحتياز زوجة واحدة (٤) •

واذا تاجر أجنبى يجهل عادات البلاد ، عرف نفسه
الى أحد هؤلاء ، ووكل اليه مهمة العناية بمهام عمله ، تولى
ذلك البرهمانى ادارته ، وتصرف فى البضاعة ، وقدم بيانا
صادقا بما أتمه ، مراعىا بضمير حى مصالح الغريب ، دون
أن يطالب بأية مكافأة على تعبته ، ان فات صاحب البضاعة
— فى قلة كياسة — أن يقدم اليه الجزاء التلقائى (٥) • وهم
يأكلون اللحم ويشربون خمر البلاد ، ومع هذا فانهم
لا يذبحون بأنفسهم أى حيوان بل يكلفون المسلمين بذلك (٦) •

ويتميز البراهمة بشارة معينة ، تتكون من خيط قطنى
غليظ ، يمر فوق الكتف ويربط تحت الابط ، بطريقة تجعل
الخيط يبدو على الصدر وخلف الظهر (٧) • والملك طائل

الشراء قوى السلطان ، يبتهج كل الابتهاج بامتلاك اللالىء
والاحجار التمينه (٨) . وعندما يقدم اليه تجار المعبر منها
ما امتاز بالجمال الفائق ، يتق بكلمتهم فيما يتعلق بتقدير
قيمتها ، ويعطيهم ضعف المبلغ الذى يعلنون ان كل واحدة
منها كلفتهم .

وفى ظل هذه الظروف ، تعرض عليه كثير من الجواهر
البديعة . والسكان هنا على وثنية بدائية شديدة تتعلق
بالسحر والعرافة .

وعندما يكونون على وشك القيام بصفقة شراء بضاعة ،
يشرعون على الفور فى ملاحظة سقوط ظل أجسامهم هم
أنفسهم فى ضوء الشمس ، فان كان الظل فى الطول الواجب ،
قاموا بالشراء فى نفس اليوم (٩) . وفوق هذا ، فانهم
عندما يكونون فى أى دكان بقصد شراء شىء ، فانهم ان رأوا
شيئا مما يكثر وجوده هناك ، لاحظوا بامعان الجهة التى
يجىء منها ، وتصرفوا فى عمليتهم على أساس ذلك .

وكذلك أيضا متى كانوا خارجين من بيوتهم ، وسمعوا
امرا يعطس ، عادوا الى بيوتهم وأقاموا عاكفين فيها . وهم
شديدو الاعتدال فيما يتعلق بالطعام ، ويعيشون الى سن
متقدمة . ويحتفظون بأسنانهم سليمة باستخدام نوع من
النبات اعتادوا عادة مضغه . وهو فى نفس الحين يساعد على
الهضم ويفضى على الجملة الى صحة الأبدان (١٠) .

وهناك بين أهالى هذا الاقليم ، طبقة شديدة الجنوح الى
حياة دينية ، تسمى التنجوى Tingui ، وتعيش اكراما
لآلهتها حياة شديدة التقشف (١١) . وهم يعيشون عراة
تماما ، لا يستررون أى جزء من أجسامهم ، ويقولون انه
لا يمكن أن يكون هناك أى عار فى حالة العرى هذه التى
جاءوا فيها الى هذا العالم ، أما فيما يتعلق بما يسمى الأجزاء

المخبلة ، فانهم يلاحظون انها لما لم تكن لديهم أعضاء للخطيئة ، فليست ثمة سبب يدعوهم الى حمرة الخجل من تعريضها للأنظار (١٢) .

وهم يعبدون التور ، ويحملون معهم تمثالا صغيرا له ، مصنوعا من النحاس الأصفر المذهب أو غيره من المعادن ، مربوطا على جباههم (١٣) وهم يقومون أيضا بحرق عظام التيران ، ويحولونها الى مسحوق ، ويعملون من هذا مرهما بقصد وضع علامات على أجزاء مختلفة من الجسم ، وهو أمر يفعلونه بطريقة ملوِّها التوقيير . وان هم التقوا بشخص بينهم وبينه مودة ، ضمخوا بهرة جبينه بشيء من هذا الرماد المجهز (١٤) .

وهم لا يحرمون أى مخلوق من الحياة ، ولا حتى ذبابة ولا برغوثا ولا قملة ، لاعتقادهم بأن لها أرواحا تنفخ فيها الحياة ، ويعد الاغتذاء بأى حيوان خطيئة شنيعة . وهم يمتنعون عن تناول الخضر أو الحشائش أو الجذور . حتى تجف ، على اعتقاد أن هذه أيضا لها أرواح . وهم لا يستخدمون فى طعامهم الملاعق ولا الصحاف ، بل يفرشون طعامهم على الأوراق الجافة لشجرة تفاحة آدم ، التى تسمى أيضا بتفاح الفردوس (١٥) .

وعندما يحسون بالحاجة الى قضاء الضرورة ، يذهبون الى شاطئ البحر ، حتى اذا أفرغوا ما فى بطونهم فى الرمل ، نشروه على الفور فى جميع الاتجاهات ، حتى لا يولد الهوام ، التى سيؤدى موتها جوعا فيما بعد الى ائقال ضميرهم بأوضاع اثم اليم (١٦) .

وهم يعيشون حتى يبلغوا سنا عالية جدا ، بل ان بعضهم لىلخ الخمسين بعد المائة ، مستمتعا بالصحة والعافية ، وان ناموا مفترشين الأرض العارية وهذا أمر لا بد أن يكون راجعا الى اعتدالهم وعفتهم (١٧) . واذا ماتوا أحرقت أجسامهم ، حتى لا تولد لنفس السبب ، أية ديدان .

الفصل الثالث والعشرون

عن جزيرة زيلان *

أكره أن أتجاوز عن بعض تفاصيل أسقطتها عندما تحدثت فيما سلف عن جزيرة زيلان ، وعلمتها عندما زرت ذلك القطر في رحلة عودتي الى أرض الوطن . يوجد بهذه الجزيرة جبل شاهق الارتفاع ، يبلغ من شدة صخريته ووعورة انحداره ، أن الصعود الى قمته يعد من المحال ، فيما يقال ، الا بمساعدة السلاسل الحديدية المستخدمة لذلك الغرض . وبهذه السلاسل يبلغ بعض الأشخاص القمة ، التي يقال ان قبر آدم ، جدنا الأول ، يوجد عليها . وذلك هو ما يقوله المسلمون (١) . ولكن الوثنيين يؤكدون انه يحتوى جثمان سوجر مونباركهان ، مؤسس نظامهم الدينى ، الذى يوقرونه كشخصية مقدسة (٢) . كان ابنا لأحد ملوك الجزيرة ، كرس نفسه لحياة زهد ، رافضا قبول الممالك أو أية ممتلكات دنيوية ، وان حاول أبوه بواسطة مفاتن النساء وكل شكل آخر من أشكال الامتناع يخطر على الخيال ، أن يثنيه عما عزم عليه من تصميم (٣) .

وكانت كل محاولة لاقتناعه بالعندول عن رأيه تذهب أدراج الرياح ، وفر الشاب خفية الى هذا الجبل المرتفع ، حيث ختم فى النهاية حياته الدنيوية الفانية بالاستمسك بالعزوبة والامتناع المطلق عن الشهوات .

والوثنيون يعدونه قديسا . فأما الأب فاذ شرد ليه
بالذع ضروب الحزن ، أمر فصنع لولده تمثال من الذهب
والأحجار النفيسة ، يحمل صورة ابنه وشبهه ، وطالب جميع
سكان المدينة بتكريمه وعبادته عبادة الرب . وذلك هو
الأصل في عبادة الأصنام بتلك البلاد ، على أن سوجومون
باركهان لا يزال يعد فوق كل ما عداه . ونتيجة لهذا
الاعتقاد ، يتقاطر الناس من مناطق مختلفة قاصية حاجين
الى الجبل الذى دفن عليه . ولا تزال بعض بقايا من شعره
وأسنانه والطست الذى كان يستخدمه ، باقية الى الآن
وتعرض على الأنظار باحتفال عظيم . على أن المسلمين يرون
أن هذه الأشياء إنما هي للنبي آدم ولذا فان تدينهم وتقواهم
تدفعانهم بالمثل الى زيارة الجبل (٥) .

وحدث فى عام ١٢٨١ ، ان الخان الأعظم سمع من بعض
المسلمين العرب الذين مروا بتلك البقعة ، بشهرة هذه
المخلفات الخاصة بأبينا الأول وأحس برغبة شديدة فى
امتلاكها ، حملته أن يرسل سفارة لطلبها من ملك زيلان .

وبعد رحلة مديدة مضية ، وصل سفراؤه فى النهاية
الى طلبتهم المقصودة ، وحصلوا من الملك على خرسين خلفيين
كبيرين ، مع بعض شعرات ووعاء أنيق من الحجر السماقى (٦)
المجزع . وعندما بلغ الخان الأعظم نبأ اقتراب رسله ، أثناء
عودتهم بهذه الطرف الثمينة ، أمر جميع سكان كانبالو
للخروج من المدينة لاستقبالها ، ثم قدمت الى حضرته بمراسم
عظيمة الأبهة والوقار (٧) والآن وقد ذكرنا هذه التفاصيل
المتعلقة بجبل زيلان ، فاننا سنعود أدراجنا الى مملكة المعبر
ونتحدث عن مدينة كائل .

الفصل الرابع والعشرون

• عن مدينة كاتل •

ان كاتل مدينة ضخمة (١) ، يعتمها استييار ، احد
الاخوة الاربعة ، ملوك اقليم المعبر ، وهو ملك غنى بما يملك
من ذهب وجوهر ، ويحتفظ بمملكته فى حالة من السلام
المقيم (٢) • ولهذا فانها كانت منتجعا مستجبا لدى التجار
الاجانب ، الذى يحسن الملك استقبالهم ومعاملتهم • وتبعاً
لهذا فان جميع السفن القادمة من الغرب - أى من موان مثل
هرمز وكهستى ، وعدن (عون) ، وأجزاء مختلفة من بلاد
العرب - محملة بالبضائع والخيول تتجه نحو هذا المرفأ ،
الذى له فوق هذا موقع صالح بالنسبة للتجارة • ويعمل
الأمير ، على خير وجه فاخر ، مالا يقل عن ثلاثمائة امرأة •

وجميع سكان هذه المدينة ، وكذلك جميع أهالى الهند
بعمامة ، يدمنون عادة وضع ورقة النبات المسمى « التنبول
Tembul » فى أفواههم باستمرار ، وهم يفعلون ذلك
ادماناً لعادة من ناحية وطلباً للمتعة التى يحدثها ذلك النبات
من ناحية أخرى (٣) • وهم عند مضغه يبصقون ما يحدثه
من لعاب • على أن ذوى المسكانة فيهم يتعاطون تلك الورقة
مجهزة بالكافور وغيره من عقاقير عطرية ، فضلاً عن مزيج
من الجير الحى (٤) • وقد بلغنى أنه جالب للصحة الى أقصى
حد • واذا قصد أى رجل أن يجابه آخر بأغلظ طريقة
وأشدّها احتقاراً وامتهاناً ، بصق فى وجهه عصير هذا الورق
المضروغ ، فاذا أهين رجل على هذا النحو ، هرع الى حضرة

الملك ، وقدم ظروف ما حل به من ضيم ، وأعلن رغبته في
الفصل في النزاع بالنزال •

وعندئذ يزودهما الملك بالأسلحة ، وهي تأتلف من
سيف وترس صغير ، ويعتشد الناس جميعا ليكونوا شهودا
في الصراع ، الذي يستمر بينهما حتى يقع أحدهما ميتا
في الحلبة • ومع هذا فلا يجوز لهما أن يحدثا جرحا بسن
السيف (٥) •

الفصل الخامس والعشرون

عن مملكة كولام .

عند مغادرة المعبر ، والتقدم جنوبا بغرب خمسمائة ميل تصل الى مملكة كولام (١) وهى دار اقامة لكثير من المسيحيين واليهود ، الذين يحتفظون بلغتهم الأصلية . وليس الملك تابعا لأى ملك آخر . وينمو هناك الكثير من خشب السايان - (أو خشب البريزيل) (٢) الجيد ، كما ينمو الفلفل بوفرة كبيرة ، حيث يوجد بكل من مناطق الغابات والمناطق المكشوفة بالبلاد . وهو يجمع فى شهور مايو ويونية ويولية والمعرشات أى التكميبات التى تنتج تزرع على هيئة مزارع مثرامية الاتساع (٣) ، يصنع هنا أيضا صباغ النيلج ، وهو من صنف ممتاز وبمقادير كبيرة . وهم ينتجون من نبات غشبي ، ينزع من جذوره وينقع فى براميل ماء ، حيث يترك حتى يتعطن ، ثم تعصر منه عصارتة ، فاذا عرضت هذه العصارة للشمس وتبخر ماؤها ، خلفت نوعا من العجينة ، تقطع قطعا صغيرة ، لها الشكل الذى نراه يجلب الى بلادنا (٤) .

وتشتد الحرارة فى بعض الشهور بحيث لا تكاد تطاق ، ومع هذا فان التجار يتوافدون الى هناك من مختلف أصقاع الأرض ، مثل مملكة مانجى وجزيرة العرب (٥) ، اذ تجذبهم المكاسب الضخمة التى يحصلون عليها من كل من البضائع التى يستوردونها وكذا مما يحملون أثناء العودة من بضائع . وتختلف كثير من الحيوانات الموجودة هنا عن مثيلاتها فى

الأصقاع الأخرى • فهنا يوجد ببور Tigers سوداء تماما (٦)
وصنوف من الطير من جنس الببغاء ، منها ما هو أبيض
ناصع كالثلج ، مع منقار وأرجل حمراء ، ومنها أخرى
ألوانها خليط بين الأحمر واللازوردى ، وأخرى ذات
حجوم مصغرة • والطواويس هنا أيضا أجمل شكلا وأضخم
حجما من طواويسنا ، كما أن لها شكلا مختلفا ، بل انه حتى
الدجاج المنزلى العادى له شكل مختلف (٧) •

وتنطبق هذه الملاحظة نفسها على الفواكه • ويقال ان
السبب فى هذا الاختلاف هو الحرارة الشديدة التى تسود هذه
المناطق • ويصنع الخمر من السكر الذى ينتجه نوع من
النخيل • وهو مفرط الجودة ، كما أنه مسكر أسرع من الخمر
المصنوع من العنب (٨) •

ويمتلك السكان مقادير وفيرة من كل ما هو ضرورى
لطعام الإنسان باستثناء الحبوب ، التى لا يوجد منها أى نوع
آخر عدا الأرز ، على أن مقادير هذا الأرز هائلة جدا • ويقيم
بينهم عدد كبير من المنجمين والأطباء ، العليمين جسد العلم
بفنونهم • وجميع الناس هناك ، سود ذكورا وإناثا ، وفيما
عدا قطعة من قماش يضعونها على مقدم أجسامهم ، فانهم
يسرون عراة تماما (٩) •

وقد جبلوا على الحسية المفرطة ، ويتخذون ذوى قرباهم
فى الدم زوجات ، فيتزوجون زوجات أبيهم عند وفاة الأب ،
كما يتزوجون أرامل اخوتهم المتوفين (١٠) • على أن هذا
— فيما أبلغت — هو حالة الأخلاق بكل أرجاء الهند •

الفصل السادس والعشرون

• عن كومارى •

• ان كومارى (١) هى ولاية ، يمكن أن تبدأ فيها رؤية جزء من مجموعة كواكبنا الشمالية ، التى لا يمكن رؤيتها فى جزيرة جاوه . كما أنها لا ترى أيضا الا بالكاد على بعد حوالى ثلاثين ميلا من هذا المكان ، وفيه تبدو مجموعة الكواكب هذه على ارتفاع ذراع فوق الأفق (٢) . وليست بالبلاد زراعة كثيرة ، وذلك لأن معظم أرضها مغطى بالغابات ، تأوى إليها أنواع كثيرة من الحيوانات ، وبخاصة القرود (التليا) ، التى لها من الشكل ومن كبر الحجم ، ما يجعل لها هيئة انسان (٣) . وهناك أيضا قرود طويلة الذيول تختلف اختلافا كبيرا عن الأولى من ناحية الحجم . ويكثر هناك الببر والنمر والوشق (وهو من فصيلة الستانير) •

الفصل السابع والعشرون

عن مملكة ديلي .

عند مغادرة ولاية كومارى ، والانطلاق غربا مسافة
بالثمائه ميل ، تصل الى مملكة ديلي التى لها ملكها الخاص
وبفتحها الممينة (١) . وهى لا تدفع الجزية لاية دولة أخرى
يعبد الناس الأصنام ، وليست هناك ميناء لرسو السفن ،
على أن هناك نهرا كبيرا له مدخل أمين (٢) . ولا تكمن قوة
البلاد فى كثرة عدد سكانها ، ولا فى شجاعتهم ، بل فى وعورة
المسالك والممرات التى لا يد من عبورها للدخول اليها ، والتى
تجعل غزوها على يد عدو شبه مستحيل (٣) . وهى تنتج
مقادير ضخمة من الفلفل والزنجبيل مع أنواع أخرى كثيرة
من التوابل (٤) فلو دفعت مركب بالصدفة داخل مصب نهرها ،
دون أن تقصد الاتجاه الى تلك الميناء ، أمسكوا بها وصادروا
جميع ما تحمل من بضائع قائلين : « كنتم تنوون الذهاب الى
مكان آخر ، ولكن آلهتنا اقتادتكم الينا حتى نمتلك متاعكم » .
وتصل السفن القادمة من مانجى الى هنا قبل انقضاء موسم
الجو الموائم وتحاول شحن حمولتها فى مدى أسبوع واحد ،
أو أقل من ذلك لو أمكن ، وذلك لأن المراسى غير آمنة بسبب
الشطوط الرملية الممتدة على طول الساحل ، والتى كثيرا
ما تعرضها للخطر ، مهما تزودت بالمراسى الخشبية الضخمة ،
المعدة للتغلب على عواصف الرياح العاتية (٥) ، والبلاد
مليئة بالبيور وكثير غيرها من الحيوان الشرش .

الفصل الثامن والعشرون

عن مالابار .

تعد مالابار مملكة متسعة الأطراف بالهند الكبرى ، تقع جهة الغرب ، وهي بلاد ينبغي ألا يفوتني أن اسرد بعض التفاصيل عنها (١) . ويحكم الناس ملكهم الخاص ، وهو ملك مستقل عن كل دولة أخرى ، كما أن لهم لغتهم الخاصة . وفي هذه البلاد يشاهد النجم الشمالى مرتفعا حوالى قامتين فوق الأفق . وهنا أيضا ، شان الحال بجزيرة جوزيرات ، التى لا تبعد كثيرا ، يكثر القراصنة ، الذين يطوفون كل عام فى هذه البحار بأكثر من مائة مركب صغيرة ويستولون على جميع السفن التجارية التى تمر بذلك الطريق وينتهبونها (٢) . وهم يأخذون معهم الى البحر زوجاتهم وأطفالهم من جميع الأعمار ، فيظلون فى صحبتهم أثناء موسم تطوافهم الصيفى كله . ولكى لا تفلت منهم سفينة واحدة ، فانهم يلقون مراسى سفنهم ، مع جعل المسافة بين الواحدة والأخرى خمسة أميال ، ويهنا تشغل عشرون سفينة متسعا مداه مائة ميل . فإذا ظهرت سفينة تجارية أمام واحدة منها ، أعطيت إشارة بالنار أو الدخان ، فتقترب مراكبهم كلها بعضها من بعض ، وتستولي على السفينة وهى تحاول المرور . ولا ينزل بأشخاص الملاحين أى أذى ، ولكنهم ما أن يستولوا على السفن ، حتى ينقلوهم الى الشاطئ ، ناضحين أيامهم ، بالتزود بشحنة أخرى من البضائع ، وقد تكون - فى حالة مرورهم بذلك الطريق مرة أخرى - وسيلة لاثراء أسريهم للمرة الثانية .

وتوجد بهذه المملكة وفرة هائلة من الفلفل والزنجبيل والكبابة وجوز الهند ، كما أنه يصنع بها أنعم وأجمل ما يمكن أن يوجد بأى بلد آخر من بلاد العالم من أنواع القطنيات (٣) . وتجلب السفن القادمة من مانجى ، النحاس جاعلة منه صابورة تحفظ توازنها، وتحمل فوق هذا الديباج القصب بالذهب والحرائر والشاش وسبائك الذهب والفضة، فضلا عن أنواع كثيرة من العقاقير مما لا تنتجه المبالبار، فيبادلون عليها بسلع الولاية (٤) . وهناك فى نفس تلك الأماكن تجار ، (يشحنون) السفن بالبضائع الأولى الى عدن فتحمل منها الى الاسكندرية (٥) .

والآن وقد تكلمنا عن مملكة مالابار ، فاتنا سننتقل الى الحديث عن مملكة جوزيرات ، التى تتاخمها . ولو أننا حاولنا أن نتناول بالحديث جميع مدن الهند ، لاجتمع لدينا بيان ضخيم لا آخر له ، قد يدعو الى السآمة ، ومن ثم فأننا سنمبس فحسب المدن التى لدينا حولها معلومات خاصة .

الفصل التاسع والعشرون

عن مملكة جوزيرات *

يحكم مملكة جوزيرات التي يجدها من الجانب الغربي بحر الهند ، ملكها الخاص ، كما أن لها لغتها الخاصة (١) .
ويظهر نجم الشمال من هناك مرتفعاً ست قامات عن الافق .
ويتيح هذا القطر مشوي القراصنة من أشد الأنواع استيتاساً ومجازفة (٢) ، ممن لو وقع في أيديهم أثناء تطوافهم تاجر مسافر ، اجبروه على القور على احتساء جرعة من ماء البحر ، وهي جرعة تكشف بما تفعله بأمعائه عما إذا كان مبتلعاً بعض اللآلئ أو الجواهر عندما أحس باقتراب أعدائه منه لكي يخفيها في بطنه *

وهنا توجد وفرة ضخمة من الزنجبيل والفلفل والنيلج .
وينتج القطن بها في مقادير عظيمة من شجرة يبلغ ارتفاعها ست ياردات وتظل تحمل الثمار مدة عشرين عاماً ، ولكن القطن المأخوذ من أشجار بلغت تلك السن ، لا يستخدم في المفازل بل في صنع الألفحة * وعلى عكس ذلك ، فالقطن المأخوذ من أشجار عمرها اثنا عشر عاماً ، صالح للموسلين وغيره من المنسوجات ذات النعومة والرقّة البالغة (٣) * وتدبغ هنا أعداد جمّة من جلود الماعز والجاموس والثيران البرية والخراثيت وغيرها من البهائم ، ثم توثق بها السفن وتوجه الى مختلف أجزاء بلاد العرب * وتصنع أغطية الفراش من جلد أزرق وأحمر ، يمتاز ببالغ الرقة والنعومة ويخاط

بخيوط الذهب والفضة (٤) ، وهى فرش اعتاد المسلمون الرقاد عليها . والنمارق (الشلت) أيضا ، المحلاة بأسلاك الذهب التى تمثل أشكالا للطير والحيوان ، هى من مصنوعات هذا المكان ، وتصل قيمتها فى بعض الحالات الى درجة فاحشة الغلو اذ تباع بستة ماركات من الفضة . وأشغال التوشية والتطريز تتم هنا فى رقة تفوق كل مثيلاتها بأجزاء العالم الأخرى قاطبة (٥) . واذا نمضى فى سبيلنا ، فائنا سنتحدث الآن عن مملكة كانان .

الفصل الثلاثون

عن مملكة كانان *

ان كانان مملكة كبيرة وفخمة ، تقع فى الاتجاه الغربى (١) * ونقول فى الاتجاه الغربى ، لأنه نظرا لأن رحلة السير ماركو كانت تمضى من الجانب الشرقى ، فانه يتحدث عن الأقاليم فى الاتجاه الذى وجدها فيه * ويحكمها أمير لا يدفع جزية لأى أمير آخر * والقوم فيها وثنىون لهم لغتهم الخاصة * ولا ينمو هنا الفلفل ولا الزنجبيل على أن البلاد تنتج نوعا من البخور بمقادير وفيرة ، وهو ليس أبيض اللون ولكنه على العكس قاتم * وتقصد هذا المكان كثير من السفن لتحمل وسقتها من هذا العقار ، فضلا عن أضرب متنوعة من أشياء أخرى (٢) * وهم يشحنون فى سفنهم بالمثل عددا من الخيول ، لكى تباع بمختلف أرجاء الهند (٣) *

الفصل الحادى والثلاثون

عن مملكة كامبايا •

وهذه أيضا مملكة متسعة ، تقع فى الاتجاه الغربى ،
ويحكمها ملكها الخاص ، الذى لا يدفع جزية ما لآى ملك
آخر ، كما أن لها لغتها الخاصة (١) • والقوم بها من
الوثنيين • وفى هذا القطر يشاهد نجم الشمال أكثر ارتفاعا
منه فى أى من الأقاليم السابقة ، وذلك بسبب وقوعه الى
الشمال الغربى أكثر • والتجارة المتداولة به جسيمة جدا ،
كما يصنع به مقدار كبير من النيلج (٢) • ويكثر به القماش
القطنى ، فضلا عن قطن الحشو (٣) • وتصدر من هناك كثير
من الجلود الجيدة الدباغة ، ويقبض ثمنها ذهبيا وفضة
ونحاسًا وتوتياء (٤) • ولما لم يبق شىء يستحق الذكر فانى
سأنتقل الى الحديث عن مملكة سرفينات •

الفصل الثاني والثلاثون

عن مملكة سرفيناث .

وسرفيناث أيضا مملكة تقع في اتجاه الغرب (١) ،
وسكانها من عبدة الأوثان ، ويحكمهم ملك لا يدفع جزية ،
ولهم لغتهم المميزة ، كما أنهم قوم لهم ميول كريمة وأخلاق
دمثة . وهم يكسبون معاشهم بالتجارة والصناعة ، كما أن
المكان ينتجعه عدد من التجار يحملون اليه بضائعهم ويأخذون
بدلًا منها سلع المملكة . وبلغنى مع هذا أن السكهان الذين
يخدمون في معابد الأوثان ينطوون على أشد ما حوى العالم
من الغدر والخيانة والقساوة (٢) . وسنتقل الآن الى
الحديث عن المملكة المسماة كسماكوران .

الفصل الثالث والثلاثون

• عن مملكة كسماكوران •

هذه بلاد فسيحة لها ملكها الخاص ولغتها المميزة (١) •
• وبعض السكان وثنيون ، ولكن غالبيتهم عرب مسلمون (٢) •
• وهم يعيشون على التجارة والصناعات • وطعامهم الأرز
والقمح ، بالإضافة إلى اللحم واللبن اللذين يوجدان لديهم
بوفرة • ويتوافد عليها تجار كثيرون ، بطريق البحر فضاء
عق البر • وهذه آخر مقاطعة بالهند الكبرى ، وأنت متقدم
إلى الشمال الغربي ، وذلك أنها كما تبدأ عند المعبر فهي
كذلك تنتهي هنا (٣) • وقد اقتصرنا في وصفها على الولايات
والمدن التي تقع على ساحل البحر ، وذلك أنه لو أننا خضنا
بالذكر ما يقع منها داخل البلاد لتضاعف كتابنا •

وسنتحدث الآن عن بعض جزر بعينها ، تسمى أحداها
جزيرة الذكور ، وتسمى الأخرى جزيرة الإناث •

الفصل الرابع والثلاثون

عن جزيرتى ، الذكور والاناث .

وبعيدا عن كينز ماكوران وعلى بعد حوالى خمسمائة ميل فى اتجاه الجنوب ، وفى المحيط توجد جزيرتان تبعدان حوالى ثلاثين ميلا احدهما عن الأخرى ويسكن الأولى منهما رجال ، ليس بينهم امرأة واحدة ، وتسمى جزيرة الذكور ، وتسكن الأخرى نساء ، ليس بينهن رجال ، وتسمى جزيرة الاناث (١) وسكان الجزيرتين من جنس واحد ، كما أنهم يعمدون مسيحيين ، ولكنهم يتبعون شريعة العهد القديم . ويزور الرجال جزيرة الاناث ويظلون معهن ثلاثة أشهر متعاقبة ، هى مارس وأبريل ومايو ، فيحتل كل رجل مسكنا منفصلا مع زوجته . ثم يعودون الى جزيرة الذكور ، حيث يظلون سائر شهور السنة بغير تواجد أى اناث معهم . وتحتفظ الزوجات بأبنائهن معهن حتى يبلغوا سن الثانية عشرة ، فيرسلوا للانضمام وآبائهم . فأما البنات فتحتفظ الأمهات بهن حتى تبلغن سن الزواج ، ثم يمنحن لبعض رجال الجزيرة الأخرى . وتولدت طريقة العيش هذه عن طبيعة الجو الخاصة بتلك المناطق ، التى لا تسمح بوجودهم طوال العام مع زوجاتهم ، بغير التعرض لدفع ثمن ذلك . ولديهم أسقفهم الذى يتبع كرسى جزيرة سقطرى (٢) . ويزود الرجال النساء بما يلزمهن من طعام ببذر الحبوب ، ولسكن النساء يجهزن

الأرض للزراعة ويحصدن المحصول . وتنتج الجزيرة أيضا
أنواعا عديدة من الفواكه ويعيش الرجال على اللبن واللحم
والأرز والسمك . حيث يصطادون منه مقادير هائلة لأنهم
صيادو سمك مهرة . والسمك بنوعيه الطازج والمملح
كليهما يباع للتجار الذين يقدون الى الجزيرة (٣) ، والذين
هدقهم الأول هو شزام العنبر الذي تجمع منه هناك مقادير .

الفصل الخامس والثلاثون

عن جزيرة سقطرى *

عند مغادرة هاتين الجزيرتين ، والتقدم خمسمائة ميل في اتجاه الجنوب ، تصل الى جزيرة سقطرى ، وهي جزيرة كبيرة جدا تزخر بلوازم الحياة (١) . ويعثر السكان على سواحلهم على كثير من العنبر الذى يفرغ من أحشاء الحيتان (٢) . ونظرا لأنه سلعة تجارية يشتد عليها الاقبال ، فانهم يجعلون حرفتهم الامساك بهذه الأسماك ، ويتوصلون الى ذلك بحربونة شائكة ، يرشقونها فى جسم الحوت رشقا قويا ثابتا بحيث لا يمكن نزعها . ويثبت فى هذه الحربونة الحديدية حبل طويل ، فى آخره « شمندورة » بقصد معرفة المكان الذى توجد به السمكة متى ماتت . وعندئذ يسحبونها الى الشاطئ ، ويشرعون فى استخراج العنبر من بطنها ، بينما يحصلون من رأسها على عدة براميل من الزيت (العنبرى) (٣) .

وجميع الناس ، ذكرانا واناثا ، يعيشون عراة تقريبا ، لا يسترهم الا غطاء ضئيل من الأمام والخلف ، شأن الذين سبق وصفهم . وليس لديهم أى نوع من الحبوب عدا الأرز ، الذى يعيشون عليه هو واللحم واللبن . وهم يدينون بالمسيحية ، كما أنهم يعمدون على الوجه الأكمل (٤) وهم تحت الحكم الروحى والزمى لكبير أساقفة لا يخضع لسلطان بابا روما ، بل لبطريك يقيم بمدينة بغداد ، وهو الذى يعينه فى منصبه ، وان هو انتخبه الناس أنفسهم تولى البطريك اعتماد ذلك بالاختيار (٥) . ويلجأ كثير من

القراصنة الى هذه الجزيرة بما يحملونه من بضاعة
اغتصبوها ، فيشتريها منهم الأهالي بغير تردد ولا وازع
مبررين تصرفهم بأنها بضائع نهبت من السوثيين
والمسلمين (٦) * وجميع السفن المتجهة الى ولاية عدن ترسو
هنا ، وتشترى مشتريات كثيرة من السمك والعنبر ، فضلا
عن أنواع مختلفة من البضائع القطنية ، التي تصنع بالجزيرة *

على أن الأهالي يشتغلون بالشعوذة والسحر أكثر من أى
شعب آخر ، وإن حرم عليهم كبير أساقفتهم ذلك ، وهو الذى
يصدر عليهم قرارات الحرمان واللعنة ، من أجل هذه
الخطيئة * على أنهم لا يهتمون بذلك أدنى اهتمام ، وإذا
أوقعت إحدى السفن التابعة لأحد القراصنة الضرر بأحدى
سفنهم لم يفتهم أن ينزلوا عليه إحدى تعاويذهم السحرية ،
بحيث لا يستطيع مواصلة تطوافه فى البحار حتى يعرضهم
عما حل بهم من أضرار ، وحتى لو أنه رزق ريحا مواتية
ومساعدة له فى طريقه ، فإن لديهم القدرة على تغيير اتجاهها ،
وبذلك يجبرونه - على الرغم منه - الى العودة الى الجزيرة *
ويمكنهم بالمثل ارغام البحر على الهدوء ، وبارادتهم يمكنهم
اثارة العواصف والتسبب فى تحطيم السفن ، واحداث
تأثيرات أخرى خارقة كثيرة ، لا حاجة بنا الى الافاضة فى
تفاصيلها (٧) * وسنتحدث الآن عن جزيرة مدغشقر *

الفصل السادس والثلاثون

عن جزيرة مدغشقر الكبيرة .

متى غادرت جزيرة سقطرى ، واتخذت سبيلا وسطا بين الجنوب والجنوب الغربى الى مسافة ألف ميل ، بلغت جزيرة مدغشقر الكبيرة ، وهى من أكبر وأخصب جزر العالم . ويبلغ طول محيطها ثلاثة آلاف من الأميال (١) . وسكانها مسلمون اى من أتباع شريعة محمد (٢) . ولهم أربعة أشياخ ، وهى كلمة يمكن أن يعبر عنها فى لغتنا الأجنبية بكلمة « الأكبرين سنا » « Elders » - يقتسمون الحكم فيما بينهم (٣) .

ويعيش السكان على التجارة والصناعة ، ويبيعون عددا لا حصر له من أنياب الفيلة ، وذلك لكثرة ما بالجزيرة من أفراد ذلك الحيوان ، شأنه فى زنزيبار أيضا التى تصدر بالمثل مقادير ضخمة من سن الفيل (٤) . والطعام الرئيسى الذى يؤكل على مدار فصول السنة هو لحم الجمال . على حين أن لحم أنواع الماشية الأخرى ، يستخدم أيضا طعاما لهم ، وإن فضل الناس عليها لحم الجمل ، بوصفه أصح وأشهى أنواع اللحم التى توجد بهذا الجزء من العالم (٥) .

وتحتوى الغابات على كثير من أشجار الصندل الأحمر . وبنفس نسبة كثرة وجوده يقل سعره . وهناك أيضا كثير من العنبر المستخرج من الحيتان ، فاذا قذفه المد على الساحل جمع لبيع .

ويعيد الأهالي الوشق (*) والبير وأنواعا أخرى من
الحيوان (٦) ، مثل الوعل والظبي والأيل الأسمر ، وهي
تتيح لهم رياضة وقبضا كثيرا ، شأن الطيور أيضا التي
تختلف عن طيور بلادنا وأجوائنا .

ويقبل الى الجزيرة كثير من السفن ، تقصدها من ارجاء
مختلفة من العالم ، جالبة معها تشكيلات من البضائع ، تأتلف
من الديباج المقصب والحراير ذات الرسومات المختلفة ، وهي
تباع لتجار الجزيرة أو يبادل بها على بضائع أخرى ، وكلها
تدر عليهم أرباحا طائلة . وليس ثمة ملجأ آخر للسفن
بالجزر الأخرى العديدة الواقعة الى الجنوب أكثر ، إذ
لا تقصد السفن الا هذه وجزيرة زنزيبار وحدهما .

ويجىء ذلك نتيجة لجريان مياه البحر بسرعة هائلة في
ذلك الاتجاه ، تجعل عودتها مستحيلة . والسفن التي تبهر
من ساحل مالابار الى هذه الجزيرة ، تقوم برحلتها في
عشرين يوما أو خمسة وعشرين ، ولكنها تضطر في رحلة
العودة أن تكافح في البحر مدة ثلاثة أشهر ، فما أشد قوة
تيار الماء الذي يجرى على الدوام نحو الجنوب ! (٧) .

ويقرر سكان الجزيرة ، أنه في فصل معين من السنة ،
يظهر لديهم قادم من مناطق الجنوب ، نوع خارق من الطير
يسمونه الرخ . ويقال انه يشبه النسر شكلا ، ولكنه أضخم
منه حجما بما لا مجال معه لمقارنته ، لأنه من الضخامة وشدة
القوة ، بحيث يمسك بالفيل ببرائنه ويحمله في الجو ، ثم
يتركه يهوى الى الأرض ، حتى اذا مات سطا على جثته
وافترسها . ويؤكد من شاهدوا هذا الطائر أنه متى بسط

(*) الوشق بفتح الواو والشين : حيوان من فصيلة القط ورتبة اللواحم ، من
الثدييات ، وهو بين القط والنمر ، رأسه كبير ، وعلى طرفي كل من أذنيه خصلة من
الشعر ، وذيله قصير ، يقطن الانابات ، كما يوجد في الصحاري والمناطق الزراعية (ميج) .
(المترجم عن الوسيط)

جناحيه كان امتدادهما ست عشرة خطوة من الطرف الى الطرف ، وان طول كل ريشة ثمانى خطوات ، مع ما يناسبها من الغلظ . واذا تصور السير ماركو بولو أن هذا المخلوق قد يكون من نوع الجريفيين Griffin المرسوم فى الصور ، والذى نصفه نسر ونصفه أسد ، فانه اهتم بوجه خاص بالاستفسار حول هذه النقطة ممن قرروا انهم رأوه ، ولكنهم اصرروا على ان شكله هو شكل طائر تماما ، أو قل انه شكل النسر . ولما ان سمع الخان الأعظم بهذه القصة غير العاديه ، ارسل رسله الى الجزيرة ، متذرعاً بالرغبة فى اطلاق سراح خادم له حبس هناك ، ولكن قصده كان فى الحقيقة الفحص عن احوال ذلك البلد ومدى صدق الأشياء العجيبة التى رويت عنه . فلما عادوا الى حضرة جلالته ، أحضروا معهم (كما سمعت) ريشة من ريش الرخ ، التى أكدوا ايجابيا أن طولها تسعون شبرا ، وان محيط انبوابتها راحتان . وأحدث هذا المنظر المدهش لجلالته سرورا مفرطا ، وأنعم على من قدموا اليه هذه الريشة بهدايا سنية (٨) . وحملوا اليه كذلك ناب خنزير برى ، وهو حيوان ينمو هناك حتى يبلغ حجم الجاموسة ، - فظهر أنه يزن أربعة عشر رطلا (٩) . وتضم الجزيرة بالمثل الزراف والحمير وحيوانات ضارية أخرى ، تختلف تماما عن حيوانات بلادنا . والآن وقد قلنا ما هو ضرورى فى هذا الموضوع ، فائنا سنتحول بحديثنا الى زئيبار .

الفصل السابع والثلاثون

عن جزيرة زنزيبار .

تقع جزيرة زنزيبار وراء جزيرة مدغشقر ، ويقال ان
حيطها يبلغ ألفى ميل (١) . والسكان يعبدون الأوثان ولهم
غتهم الخاصة ، كما أنهم لا يدفعون جزية لأية دولة أجنبية .
وهم ضخام الأجسام ، ولكن طولهم لا يتناسب مع ضخامة
جثثهم . فلو تناسب الأمران لبدوا مرده ضخاما . ومع ذلك
فأنهم ذوو بنية قوية ، وان الواحد منهم لقادر على حمل ثقل
ينوء به أربعة من رجالنا (فى الغرب) . ولكنه فى الحين
نفسه يحتاج الى طعام خمسة من رجالنا . وهم سود البشرة ،
عراة الأجسام ، لا يسترون الا الأجزاء الخاصة من أجسامهم
بقطعة من قماش (٢) . وشعرهم مفلفل جدا حتى ليصعب
بسطه ولو غمر بالماء . وأفواههم واسعة وأنوفهم مقلوبة
لأعلى نحو الجبهة ، وآذانهم طويلة ، وأعينهم متسعة ومخيفة
بحيث تضيفى عليهم شكل الشياطين . ولا تقل المرأة عن
الرجل نصيبا من هذه البشاعة ، فلهن الفم الواسع والأنوف
الغليظة الفطساء والعيون الكبيرة . وأيديهن ورعوسهن
أيضا ضخمة ضخامة تخرج عن كل تناسب (٣) . ويوجد
بهذه الجزيرة أبشع نساء العالم خلقة ، بما لهن من أفواه
كبيرة وأنوف غليظة ، وأثداء بشعة يبلغ حجم الواحد منها
أربعة أضعاف ثدى أية امرأة أخرى . وهم يقتاتون باللحم
واللبن والأرز والبلح (٤) . وليس لديهم كروم عنب .
ولكنهم يصنعون من الأرز والسكر نوعا من الخمر ، مع
إضافة بعض العقاقير اللاذعة ، وهى لذيدة الطعم جدا ، ولها

المفعول المسكر للأخرى . وتوجد الفيلة بأعداد هائلة في هذه الجزيرة ، وتشكل أنيابها سلعة تجارية مهمة . وينبغي ان يلاحظ بصدق هذه الدواب أن طريقة تزاوجها ، هي بعكس المخلوقات البهيمية جملة ، وذلك نتيجة لموقع العضو الانتوى وهي تماثل طريقة النوع البشرى (٥) .

ويوجد بهذه البلاد أيضا الزراف وهو حيوان رشيق . جسمه حسن التناسب ، وقائمتاه الأماميتان طويلتان وعاليتان ، بينما الخلفيتان قصيرتان ، والعنق طويل جدا والرأس صغير ، وهو حيوان وديع . واللون الغالب فيه فاتح مع بقع مستديرة مائلة الى الحمرة . وارتفاعه (أو طول العنق) ، بما في ذلك الرأس ، هو ثلاث خطوات (٦) . وتختلف غنم هذه البلاد عن غنمنا ، فانها بيضاء الجسم تماما فيما عدا الرعوس فانها سوداء (٧) ، وهذا هو أيضا لون الكلاب هناك . والحيوانات بعامة لها شكل مختلف عن شكل حيواناتنا . وتزور المكان كثير من السفن التجارية ، وهي تبادل على ما تجلب من بضائع بأنياب الفيلة والعنبر ، الذي يكثر وجوده على سواحل الجزيرة ، نتيجة لامتلاء البحر بالحياتان .

ويشتبك شيوخ الجزيرة في الحرب أحيانا بعضهم مع بعض ، ويبدى قومهم بسالة كبيرة في القتال واحتقارا للموت (٨) وليس لديهم خيول ولكنهم يقاتلون ممتطين الفيلة والجمال . وهم يضعون على ظهور الفيلة قلاعا ، تتسع لما يتراوح بين خمسة عشر الى عشرين رجلا ، مسلحين بالسيوف والحراب والحجارة ، وهي الأسلحة التي يقاتلون بها (٩) وقبل الاشتباك في القتال يعطون فيلتهم جرعات من الخمر ، ظانين أنها تجعلهم أكثر حيوية وأشد ضراوة في الهجوم (١٠) .

الفصل الثامن والثلاثون

عن مجموعة الجزر الوفيرة ببحر
الهند *

عند معالجة ولايات الهند ، لم أصف منها الا أهمها
وأعظمها شهرة ، وفعلت نفس الشيء ازام الجزر ، التي تبلغ
في العدد مالا يصدقه عقل * وسمعت حقا من ملاحى هذه
البلاد وأبرز ربابنتها ، كما قرأت في كتابات من شقوا بسفنهم
عباب البحار الهندية ، أنها تبلغ مالا يقل عن اثنتى عشرة
ألفا وسبعمئة جزيرة بما فيها الآلهة بالسكان والخالية
منهم (١) * يمتد القسم المسمى بالهند الكبرى من المعبر الى
كزما كوران ، ويضم ثلاث عشرة مملكة كبيرة ، عددنا منها
عشرا * وتبدأ الهند الصغرى عند زيامبا وتمتد حتى
مورفيلي ، مشتملة على ثمانى ممالك ، عدا ما يوجد منها
بالجزر وهي كثيرة العدد جدا * وسنتحدث الآن عن الهند
الثانية أو الهند الوسطى ، التي تسمى أباسكيا (٢) *

الفصل التاسع والثلاثون

عن الهند الثانية أو الوسطى
المسماة أباسكيا (عن الحبشة) .

ان أباسكيا قطر فسيح الأطراف ، يسمى بالهند الوسطى أو الثانية . وملكها الرئيسى يدين بالمسيحية . فأما الملوك الآخرون وعددهم ستة وهم تابعون للملك الأول ، فثلاثة منهم مسيحيون وثلاثة مسلمون (١) وقد نبئت أن المسيحيين بهذه الأصقاع يسمون أنفسهم ، لكى يعرفوا على هذا الدين ، بثلاث علامات أو سمات (على الوجه) ، واحدة منها على الجبين وواحدة على كل خد ، وهى تؤسم بحبيدة محماة ، ويمكن اعتبارها تعميدا ثانيا بالنار ، بعد الذى كان بالماء . فأما المسلمون فليس لديهم الا علامة واحدة ، توجد فى الجبهة وتصل الى منتصف الأنف . على أن اليهود الذين يكثرون عددهم هنا أيضا لهم علامتان تجعلان على الخدين .

وتقع عاصمة الملك الرئيسى المسيحى فى وسط البلاد (٢) . فأما ممتلكات الأمراء المسلمين فتقع فى اتجاه ولاية عدن (٣) وتم تنصير هذا الشعب على يد الرسول المجيد القديس توما ، الذى ما لبث بعد أن بشر بالانجيل بمملكة النوبة وهدى سكانها للنصرانية ، أن زار أباسكيا ، وهنا تمكن بفضل تأثير أحاديثه ، وقيامه بالمعجزات من بلوغ نفس الأثر . ثم انتقل بعد ذلك للإقامة بولاية المعبر ، حيث نال بعد تنصيره عددا لا حصر له من الأفراد ، تاج الشهادة كما ذكرنا آنفا ودفع بنفس المكان . وسكان أباسكيا هؤلاء قوم

شجعان ومقاتلون أشداء ، وذلك لتمرسهم دوماً بالقتال مع سلطان عدن وأهالي النوبة ، وكثير غيرهم ممن تتأخم بلادهم بلادهم . ونتيجة لممارسة النزال التي لا تقف عند حد ، يعدون خير جند في هذا الجزء من العالم (٤) .

وبلغنى أنه في عام ١٢٨٨ ، عقد ذلك الأمير الحبشى العظيم العزم على أن يزور بنفسه القبر المقدس للمسيح ببيت المقدس ، وهو حج يؤديه كل عام عدد هائل من رعاياه ، ولكن ثناه عن عزمه كبار رجال حكومته ، الذين صوروا له الأخطار التي سيتعرض لها أثناء مروره بهذا العدد الضخم من الأماكن التابعة للمسلمين أعدائه . وعندئذ صمم أن يرسل الى هناك أسقفاً ليكون ممثلاً له ، وهو رجل ذو شهرة عالية بالقداسة والورع ، ولما أن وصل الى بيت المقدس تلا الصلوات وقدم القرابين التي أوصى بتقريبها الملك . ومع هذا ، فانه في أثناء عودته من تلك المدينة مخترقاً ممتلكات سلطان عدن ، أمر ذلك السلطان به فقدم الى حضرته وحاول اقناعه باعتناق الاسلام . فلما أن رفض بالقدر المناسب من الحزم أن يتخلى عن دينه المسيحى ، أمر به السلطان فختن مستخفاً بغضب العاهل الحبشى ، ثم أمره بالرحيل . فلما أن وصل وقدم تقريراً بما أنزل به من اهانة وعنف ، أصدر الملك أوامره على الفور بحشد جيش ، سار على رأسه ، بقصد القضاء على السلطان ، الذى دعا بدوره لمعاونته اثنين من الأمراء المسلمين من جيرانه ، فانضما اليه بقوات ضخمة جداً . ودار عقب ذلك قتال ، انتصر فيه الملك الحبشى ، حتى اذا استولى على مدينة عدن أسلمها ليد السلب والنهب ، انتقاماً للاهانة التي لحقته فى شخص أسقفه (٥) .

ويعيش سكان هذه المملكة على القمح والأرز واللحم واللبن . وهم يستخرجون الزيت من السمسسم ، ولديهم بكثرة موفرة من جميع المواد الغذائية . وتوجد بالبلاد فيلة

وأسود وزرافات وأضرب كثيرة من حيوانات أخرى ، كحمر
الوحش والنسبانيس التى لها شكل الناس ، فضلا عن كثير من
الطيور ، البرية والمنزلية (٦) . وهى غنية بالذهب غنى
مفرط (٧) ، ويقصدها التجار كثيرا ، فيحصلون من ورائها
على مكاسب كبيرة . وسنتحدث الآن عن ولاية عدن .

الفصل الأربعون

عن ولاية عدن (١) •

• ويحكم ولاية عدن ملك ، يتلقب بالسلطان (٢) •
• وجميع الأهالي بها مسلمون ويمقتون المسيحيين أشد المقت •
• ويوجد بهذه المملكة كثير من المدن والقلاع ، كما أنها تمتلك
مزية مهمة ، هي ميناء ممتازة تؤمها السفن القادمة من الهند
محملة بالعقاقير والأفاويه • والتجار الذين يشترونها بقصد
نقلها الى الاسكندرية ، ينزلونها من السفن التي استوردت
فيها ويوزعون الحمولات على باركات أو سفن أصغر حجما ،
يمخرون بها خليجا من البحر مدة عشرين يوما ، تزيد أو
تقل ، حسب الجو الذي يلاقونه • حتى اذا بلغوا ميناءهم
حملوا بضائعهم على ظهور الجمال ، ونقلوها برا (في رحلة
ثلاثين يوما) حتى يصلوا نهر النيل ، وهناك توضع للمرة
الثانية في سفن صغيرة ، تسمى « الجرم Jerns » فيحملها
تيار ذلك النهر الى القاهرة ، ومنها تنقل في النهاية بقناة
صناعية تسمى « الكاليزي » (Kalizene) الى الاسكندرية (٣) •
• وهذا أقل الطرق التي يسلكها التجار ببضائعهم المنتجة ببلاد
الهند طولا ومشقة ، من عدن الى تلك المدينة • وفي ميناء
عدن هذا ، يشحن التجار أيضا عددا ضخما من الخيول
العربية ، التي يحملونها للبيع بجميع جزر الهند وممالكها ،
حاصلين فيها على أثمان مرتفعة ومحققين مكاسب ضخمة (٤) •

ويملك سلطان عدن كنوزا طائلة ، مما يجمعه من
المكوس التي يفرضها كذلك على البضائع التي ترد من الهند،

فضلا عن تلك التي تشحن في موانيه بوصفها البضائع
المقابلة ، وذلك نظرا لأن عدن أضخم سوق بتلك المنطقة ،
لتبادل السلع ، كما أنها المكان الذي تلجأ اليه جميع السفن
التجارية . وبلغنى أنه عندما قاد سلطان بايل (: القاهرة)
جيشه أول مرة على مدينة عكا ، واستولى عليها ، زودته مدينة
عدن هذه بثلاثين ألف حصان وأربعين ألف جمل ، بدافع من
حقدها على المسيحيين (٥) . وسنتحدث الآن عن مدينة
أسكير .

الفصل الحادى والأربعون

عن مدينة أسكبير *

حاكم هذه المدينة مسلم ، يحكمها بعدل تضرب به الأمثال ،
تحت السيادة العليا لسلطان عدن . وبعدها عنها يقارب
أربعين ميلا الى الجنوب الشرقى (١) . وتخضع لها كثير من
المدن والقلاع ومينائها صالحة لرسو السفن ، ويزورها كثير
من السفن التجارية القادمة من الهند ، والتي تعود منها حاملة
عددا من الخيول الصافنات ، التي تلقى أعظم التقدير بتلك
البلاد وتباع بها بأسعار طائلة .

وتنتج هذه المنطقة مقدارا عظيما من اللبان الأبيض ،
يعد من أجود الأنواع (٢) . وهو يسيل قطرة قطرة ، من
شجرة صغيرة معينة تشبه شجر التنوب Fir ويجرح الناس
جسم الشجرة بين حين وآخر ، أو ينزعون لحاءها ، ومن هذا
الجرح ، ينضج اللبان رويدا رويدا ثم لا يلبث بعد ذلك أن
يتجمد . وحتى لو لم تغدش الشجرة فقد كان يحدث النضج
مع ذلك نتيجة لفرط حرارة الجو . وبها أيضا كثير من النخل
الذى ينتج مقادير موفورة من أجود البلح . ولا يزرع بهذه
البلاد من الحبوب عدا الأرز والدخن ، ومن ثم يستدعى الحال
الحصول على مواد غذائية أخرى من المناطق الأخرى .
ولا تصنع خمرهم من العنب ، وإنما يجهز الناس شرابا من
الأرز والسكر والبلح ، وهو شراب لذيذ الطعم (٣) . ولديهم
نوع صغير الحجم من الغنم ، لا تقع أذناه بنفس موقعها مع
بقية أصناف ذلك النوع ، حيث ينمو في مكانها قرنان

صغيران ، وهناك أسفل قليلا فى اتجاه الأنف فتحتان تقومان بعمل الأذنين .

وهؤلاء الناس ضيادو أسماك مهرة ، يصيدون التونة بمقادير ضخمة ، حتى لقد يباع اثنان منها بفروت بندقى . وهم يجففونه فى الشمس (٤) ، ونظرا لأن البلاد أصبحت بسبب شدة الحر تكاد تحترق بالرمضاء ، ومن ثم لا يشاهد بها أى نوع من أنواع النبات ، فانهم يعودون ماشيتهم وأبقارهم وأغنامهم وخيولهم على الاغتذاء بالسماك المجفف ، الذى أصبحت تلك السائمة تتناوله بغير مضض ، لأنه يقدم اليها بغير انقطاع . والأسماك المستخدمة لهذا الغرض من الأنواع الصغيرة ، التى يصطادونها بكميات ضخمة أثناء شهور مارس وأبريل ومايو ، فاذا تم تجفيفها خزنوها فى بيوتهم طعاما لماشيتهم . ومع هذا فان الماشية لا تأبى الاغتذاء أيضا بالسماك الطازج ، وان تعودت بالأكثر تناوله جافا . ونتيجة كذلك لندرة الحبوب يصنع الأهالى ضربا من الخشكنان (البسكوت) من مادة الأسماك الأكبر حجما على النحوالتالى : فانهم يقطعونها قطعما صغيرة جدا ، ويبللونها بشراب يغلظونه ويجعلونه لزاقا بما يخلطونه به من الدقيق ، الذى يضاف على الخليط قوام العجينة . ثم يشككون العجينة أقراصا شبيهة بالخبز ، فيجففونها بعد ذلك ويجمدونها بتعريضها للشمس المحرقة . وتخزن كمية من هذا الخشكنان لتستخدم فى الاستهلاك على مدار السنة . ويبلغ من شدة رخص اللبان سالف الذكر بتلك البلاد أن يشتريه الحاكم بسعر عشر بيزنطيات (دوقيات ذهبية) لكل قنطار ، ثم يتولى هو بدوره بيعها ثانية للتجار بأربعين بيزنطية . وهو يفعل هذا بارشاد سلطان عدن (٥) الذى يحتكر كل ما تنتجه المنطقة بالسعر السالف ، ويجمع مكسبا ضخما من اعادة بيعه . واذ لم يبق شئ يستحق الذكر فى هذا المكان ، فاننا سنتحدث الآن عن مدينة دولفار .

الفصل الثاني والأربعون

عن مدينة دولفار *

تعد دولفار مدينة أو بلدة كبيرة وذات شأن ، وتبعد
عشرين ميلا عن اسكير (الشحر) ، فى اتجاه جنوبى
شرقى (١) * وسكانها مسلمون ، كما أن حاكمها خاضع
لسلطان عدن (٢) * ويقع هذا المكان قرب البحر وله ميناء
جيدة تقصدها كثير من السفن * وتحشد هنا أعداد من الخيول
العربية التى ترد من داخلية البلاد ، والتى يشتريها التجار
ويحملونها الى بلاد الهند ، وفيها يكسبون مكاسب طائلة
بالتصرف فيها بالبيع * وكذلك اللبان فانه ينتج هو الآخر
هنا ، ويشترى التجار * وتقع فى دائرة اختصاص دولفار
(أو ظفار اليمن) مدن وقلاع أخرى * وسنتحدث الآن عن
خليج قلاياتى *

الفصل الثالث والأربعون

عن مدينة قلاياتى *

ان قلاياتى انما هى مدينة كبيرة ، تقع على خليج يسمى خليج قلاتو ، يبعد عن مدينة ظفار بما يقارب خمسين ميلا الى الجنوب الشرقى (١) . والناس هنا من أتباع شريعة محمد ، كما أنهم خاضعون لسيادة ملك هرمز (٢) الذى يلجأ عندما تهاجمه وتضيق عليه الخناق دولة أخرى الى الاحتمااء بهذه المدينة التى هى من بالغ القوة فى حد ذاتها ، ومن حسن الموقع الممتاز ، بحيث انها لم تقع اطلاقا حتى الآن فى يد عدو (٣) . ولما كانت المنطقة المحيطة بها لا تنتج أى نوع من أنواع الحبوب ، فانها تستورد من مناطق أخرى . ومينائها مرفأ جيد ، وتصل اليه من الهند كثير من السفن التجارية ، التى تباع قطع القماش والتوابل بمكاسب بالغة ، وذلك لأن الطلب عليها جسيم لتزويد المدن والقلاع الواقعة على مسافة من الشاطئ (٤) ثم تعود السفن بالمثل فتحمل وسقات من الخيل ، يبيعونها فى بلاد الهند بأسعار مجزية .

وتقع القلعة فى موقع منيع عند مدخل خليج قلاتو ، بحيث لا تستطيع مركب الدخول اليه أو الخروج منه بغير اذن منها . ويحدث أحيانا أن يشق ملك هذه المدينة ، الذى تربطه ارتباطات معينة مع ملك كرمان كما أنه من أتباعه ، عصا الطاعة ، لأن الملك الأخير فرض عليه دفع مبالغ غير عادية . فاذا هو رفض دفع المطلوب منه ، وجرد عليه مولاة جيشا لاجباره على الاذعان ، غادر هرمز ، واتخذ قلاياتى

مركزا له ، حيث يصبح فى امكانه منع أية سفينة من الدخول أو الاقلاع * ومتى تعطلت التجارة على هذا النحو يحرم ملك كرمان من الرسوم التى يجبيها ، ومتى وقع عليه بسبب ذلك ضرر بليغ فى ايراداته ، اضطر الى تسوية نزاعه مع الملك * والواقع اذن أن الحصن المنيع القائم بهذا المكان ، لا يشكل بالفعل فقط مفتاحا للخليج بل وأيضا للبحر نفسه ، وذلك لأن المقيم بالحصن يمكنه فى كل الأوقات اكتشاف السفن التى تمر (٥) *

وعلى الاجمال يعيش سكان هذه المنطقة على البلح والسمك ، سواء منه الطازج والمملح ، وذلك لأن لديهم على طول المدى مقادير ضخمة منهما كليهما (٦) ، على أن ذوى المكانة أو القدرة المالية من الناس يحصلون على القمح ليتغذوا به من بلاد أخرى * وعند مغادرة قلاياتى ، والتقدم ثلاثمائة ميل نحو الشمال الشرقى تصل الى جزيرة هرمز *

الفصل الرابع والأربعون

عن هرمز *

يوجد على جزيرة هرمز مدينة جميلة وكبيرة مبنية قرب الشاطئ تماما (١) . ويحكمها ملك ، وهو لقب يعادل لقب أمير الثغور (التخوم) عندنا ، ولديه كثير من المدن والقلاع الخاضعة لسلطانه . والسكان مسلمون يعتنقون جميعا عقيدة محمد *

والحرارة التي تغيم هنا مفرطة ، ولكن القوم يتزودون بكل بيت بمراوح ، يدخلون بواسطتها الهواء الى مختلف الطوابق ، والى كل شقة من شقق المنزل حسب الارادة . فلولا هذه الوسيلة ما أمكن العيش بتلك المنطقة (٢) . ولن نزيدك الآن بيانا عن هذه المدينة ، لأننا أعطينا الكفاية في كتاب سابق عنها ومعها كيسى وكرمان (٣) *

الآن وقد عالجننا بالتطويل الكافى ، ولايات الهند الكبرى ومدنها ، التي تقع قرب ساحل البحر ، فضلا عن بعض أقاليم أثيوبيا ، المسماة بالهند الوسطى ، فأننى سأعود أدراجى ، قبل اختتام الكتاب، رغبة فى ملاحظة بعض الأقاليم التي تقع فى اتجاه الشمال وأغفلت الحديث عنها فى الكتب السابقة *

ومن ثم ينبغى أن يكون معلوما ، انه يقيم فى الأجزاء الشمالية من العالم كثير من التتار تحت رئيس اسمه قايدو ،

وهو من عترة جنجيزخان ، ومن الأقرباء الأذنين لقبلاى ،
الخان الأعظم (٤) . وهو ليس تابعا لآى أمير آخر (٥) .

ويرعى الناس عادات وأعراف أجدادهم ، ويعتبرون
تتاراً أصلاء . وهؤلاء التتار عبدة أوثان ، ويعبدون ربا
يسمونه نا آجاي (Naagai) ، أى رب الأرض ، لأنهم يظنون
ويؤمنون بأن ربهم هذا له السلطان فى الأرض ، وعلى كل
ما تخرجه من أشياء ، ويضعون لربهم هذا الزائف أوثانا
وتماثيل من لباد ، على ما أسلفنا اليك صفته من كتاب سابق .
وملكهم وجيوشه لا يتحصنون فى قلاع ولا حصون ولا حتى
فى مدن ، ولكنهم يظلون ، فى كل الأوقات ، فى السهول
الطلقة أو الوديان أو الغابات ، التى تملأ فجاج تلك
المنطقة .

وليس لديهم حبوب آيا كان نوعها ، ولكنهم يعيشون
على اللبن واللحم ، ويتعاشون بعضهم مع بعض فى انسجام
تام ، اذ ليس لملكهم - الذى يقدمون اليه طاعة مطلقة ، من
هدف أعز من الاحتفاظ بحبل الوئام والسلام بين رعاياه ،
وهو الواجب الجوهرى لآى عاهل - وهم يمتلكون رعلانا
هائلة من الخيل ، والبقر ، والغنم ، وغيرها من الحيوانات
المنزلية .

ويوجد بهذه المناطق الشمالية دبة بيضاء اللون ، هائلة
الحجم ، طول الواحد منها فى أغلب الحالات عشرون
شبرا (٦) . وبها أيضا ثعالب ، فراؤها سوداء فاحمة
كلها (٧) ، وأعداد غفيرة من حمر الوحش ، وحيوانات صغيرة
معينة اسمها الروند Rondes لها فراء بالغة الرقة ويسمونها
الناس عندنا فراء السمور أو الزيبلين Zibelines (٨) وفضلا
عن هذه ، فان هناك أنواعا أخرى من الدوبيات من نوع
الدلق وابن عرس ، والنوع الذى يسمونه فارة فرعون .
وأسراب هذا الحيوان الأخير . لا يصدق العقل أعدادها ،

ولكن التتار يستخدمون وسائل شديدة البراعة فى امساكها بحيث لا تستطيع واحدة منها أن تفلت من أيديهم .

ومن الضروري لمن شاء وصولا الى وطن هذا الشعب أن يقوم برحلة أربعة عشر يوما عبر سهل فسيح وبطحاء ، لا يسكنها أحد على الاطلاق - وهى حالة ترتبت عن كثرة ما فيه من تراكمات الماء والينابيع التى تحوله بأكمله الى مستنقع (٩) ثم لا يلبث هذا المتسع كله أن يتجمد نتيجة لطول مدة فصل البرودة ، فيما عدا بضعة أشهر من السنة تذيب فيها الشمس الثلوج ، وتحيل التربة الى طين ، يكون السفر عليه أصعب وأعسر مما لو كان جليدا كله .

ومع هذا فان هؤلاء القوم عمدوا لكى يمكنوا التجار من ارتياد بلادهم وشراء فرائهم التى هى السلعة التجارية الوحيدة لديهم ، الى أن يبذلوا الجهد لجعل عبور هذه البطحاء المستنقعية ممكنا للرحالة بتشبيدهم بيتا خشبيا عند نهاية كل مرحلة يوم يرتفع قليلا عن سطح الأرض ، وبه ينزل أشخاص ، يتولون اشتقبان التجار ومنحهم وسائل المقام والراحة ، وإرشادهم فى اليوم التالى الى المحطة التالية من هذا النوع ، وهكذا يتقدمون من مزلفة الى مزلفة ، حتى يتموا عبور البطحاء (١٠) ولكى يتمكنوا من السفر فوق سطح الأرض المتجمد ، ينشئون نوعا من المركبة لا يختلف عن مثيلتها التى يستخدمها سكان المناطق الجبلية شديدة الانحدار والتى يكاد يتعذر عبورها بالمناطق المجاورة لبلادنا ، وهى التى تسمى (تراجولا) أو زلاقة .

وهى خالية من العجلات ومسطحة القاع ولكنها تعلو من الأمام بانحناءة شبه دائرية ، وبهذا التركيب تصبح لاثقة للجري بسهولة على الجليد (١١) . وهم يحتفظون لجر هذه العربات الصغيرة بأنواع معينة من الحيوانات تشابه الكلاب ، بل يمكن تسميتها بهذا الاسم ، وإن بلغت حجم الحمير .

وهى قوية جدا ومتمرسة بالجبر (١٢) • وتربط ستة منها فى أزواج بكل عربة ، والعربة لا تحمل الا السائق الذى يسوق الكلاب وتاجرا واحدا مع حمولته من البضائع (١٣) •

فاذا تمت رحلة النهار ، غادرها هو ومجموعة الكلاب تلك ، واذ يغيرهما التاجر كليهما ، من يوم لآخر على هذا النحو ، فإنه يتم فى النهاية رحلته عبر البطحاء ، ثم يحمل معه بعد ذلك (فى طريق عودته) الفراء التى تأخذ طريقها لتباع فى هذا القسم الذى نسكنه من العالم •

الفصل الخامس والأربعون

عن الأقاليم التي تسمى منطقة
الظلمات .

توجد بعد أقصى أجزاء بلاد هؤلاء التتار بعدا ، وهي
التي يتم فيها الحصول على الجلود التي تحدثنا عنها ، منطقة
أخرى ، تمتد الى أقصى الأطراف الشمالية وتسمى منطقة
الظلمات ، وذلك لأن الشمس لا ترى فيها أثناء معظم شهور
الشتاء ، كما أن الجو معتم بنفس الدرجة على نحو يشبه
ما نجده قبيل انبثاق فجر النهار ، حين يمكن القول عنا اننا
نرى واننا لا نرى (١) .

ورجال هذا القطر ضخام البنية طوال القامة ، ولكن
يشرتهم شاحبة جدا . ولا تربطهم معا حكومة ملك أو أمير .
كما أنهم يعيشون بغير ما قوانين مستقرة وعادات مرعية ،
يل وفق الخليقة البهيمية . وأذهانهم كليله أيضا ويريم
عليهم جو من الغباء (٢) . وكثيرا ما يقدم التتار على حملات
نهب وسلب على هؤلاء الأقوام بغية اغتصاب ما لهم من ماشية
وبضائع .

وهم من أجل ذلك ينتهزون فرصة تلك الشهور التي
تعم فيها الظلمة البلاد ، حتى لا يحس أحد باقترابهم ، ولكن
لعدم قدرتهم من التحقق من الاتجاه الذي ينبغي أن يسلكوه
للعودة الى ديارهم بما نهبوه من غنائم ، فانهم يتخذون خيطاتهم
من أن يضلوا الطريق ، بركوب أفراس لها أفلاء صغيرة في
ذلك الوقت ، فيسمحون للصغار بمصاحبة أمهاتها حتى تخوم

يلادهم ، ولكنهم يتركون الصغار تحت الرعاية الواجبة عند بداية المنطقة المعتمدة * ومتى أتموا عمليتهم بمناطق الظلام واشتبهوا العودة الى منطقة الضياء ، وضعوا العنان على أعناق الأفراس وتركوها حرة فى اتخاذ طريقها *

وهنا تعمل غريزة الأمومة عملها فتقتادها مباشرة الى المكان الذى تركت فيها صغارها ، وبهذه الوسيلة يتمكن الراكبون من العودة بسلام الى محل اقامتهم *

وينتبهز سكان هذه المنطقة (القطبية) فرصة فصل الصيف ، حين يستمتعون بنهار دائم الضياء ، فيمسكون بأعداد غفيرة من حيوان القائم (الارمين) ، والدلق ، والأركولين (أو العرسة الرمادية والأركولين) (٣) والثعالب ، وحيوانات أخرى من هذا القبيل ، وهى حيوانات فراؤها أنعم وأرق ، فهى من ثم أثمن كثيرا ، من الحيوانات الموجودة بالمناطق التى يسكنها التتار ، الذين ، يدفعهم الجشع من أجل ذلك الى القيام بحملات السلب التى سبق وصفها (٤) . وفى أثناء الصيف أيضا يحمل هؤلاء القوم فراءهم الى الأقاليم المجاورة حيث يتصرفون فيها بالبيع بطريقة مجزية لهم الى أقصى حد ، وطبقا لما سمعته فان بعض ذلك الفراء يحمل حتى يصل الى روسيا على بعد (٥) وهى البلاد التى سنتحدث عنها فى هذا الجزء الختامى من عملنا *

الفصل السادس والأربعون

عن ولاية روسيا (١) .

ان ولاية روسيا ، وهى ولاية مترامية الأطراف ، تنقسم الى اجزاء كثيرة ، وتتأخم تلك الشقة الشمالية التى وصفت بأنها منطقة الظلمات (٢) . وسكانها مسيحيون يتبعون الطقوس اليونانية فى صلواتهم ومراسمهم الكنسية . والرجال فيها حسان الوجوه الى آخر حد ، طوال القامة ، شقر البشرة ، فأما النساء فهن شقراوات أيضا ممتلئات الاجسام ، مع شعر فاتح ، تعودن ارساله طويلا . وتدفع البلاد الجزية لملك التتار الغربيين ، الذين تتأخم حدودها الشرقية ممتلكاتهم (٣) . وفيها تجمع بوفرة هائلة فروات التواقم والأركولين ، والسمور الأسود ، والدلق (العرسة الشهباء) والثعلب ، وحيوانات أخرى من هذه القبيلة مع قدر كبير من الشمع (٤) . وهى تحتوى على مناجم عديدة ، يحصل منها على مقدار كبير من الفضة (٥) . والروسيا اقليم مفرط البرودة ، كما أكد لى العليمون بالأمور أنها تمتد حتى تبلغ المحيط الشمالى ، حيث تصاد السناقر والبزاة الجواله فى أعداد هائلة ، كما أسلفنا اليك فى جزء سابق من الكتاب ، وهى تحمل من هناك الى مختلف اجزاء العالم .

الفصل السابع والأربعون (١)

عن تركيا الكبرى *

يوجد بتركيا الكبرى ملك اسمه قايدو ، وهو ابن أخى الخان الأعظم ، لأنه ابن ابن كياجاتاي (أو جاغتاي) شقيق الخان الأعظم (٢) * وهو يملك مدنا وقبلاعا كثيرة ، كما أنه سيد عظيم جدا * وهو تترى كما أن رجاله هم أيضا من التتار وهم من خيرة المقاتلين ، ولا عجب فى هذا ، لأنهم جميعا رجال نشئوا على التمرس بالحرب ، وانى لأقرر لك أن قايدو هذا لم يدعن بالطاعة اطلاقا للخان الأعظم ، قبل أن يخوض معه أولا ، غمار حرب عظمى * ولا ينبغي عن بالك أن تركيا الكبرى هذه تقع الى الشمال الغربى منا ونحن نغادر هرمز ، بالطريق سالف الذكر *

وتقع تركيا الكبرى وراء نهر ايون (٣) وتمتد منبسطة شمالا حتى ممتلكات الخان الأعظم * وخاض هذا الملك قايدو معارك كثيرة مع الشعوب التابعة للخان الأعظم ، وسأقص عليك كيف اشتبك معه فى خلاف *

ينبغى أن تعلم علم اليقين أن قايدو أرسل ذات يوم الى الخان الأعظم ينبئه أنه يريد نصيب فيما حصلا عليه معا بالفتح ، مدعيا لنفسه نصيبا فى ولاية كاشاي وولاية مانجى أيضا * وأبلغه الخان الأعظم أنه راغب ملء فؤاده فى اعطائه نصيبه ، كما فعل مع أبنائه ، ان هو تردد ، من جانبه ، على بلاطه وحضر مجالسه بقدر ما يكتب اليه طالبا ذلك ، وأبدى الخان الأعظم ارادته فوق هذا أنه ينبغى له أن

يطيعه كالأخرين : أبائه وباروناته (أعنى نبلاءه) ، وقال
الخان الأعظم انه على هذا الشرط سيتمنحه نصيبه من فتوحات
الصين على أيديهم .

ولكن قايدو كان لا يطمئن الى عمه الخان الأعظم ، ومن
ثم رفض هذا الشرط قائلاً انه يريد أن يقدم له الطاعة وهو
فى اقليمه ، ولكنه يأتى الذهاب الى بلاطه على أى اعتبار من
الاعتبارات ، وذلك لخوفه من أن يلقي مصرعه .

وهكذا نشأ الشقاق بين قايدو والخان الأعظم ، وهو
الذى أدى الى اندلاع حرب كبرى ، ونشوب معارك ضخمة ،
حامية الوطيس بينهما . ووضع الخان الأعظم جيشاً حول
مملكة قايدو ، لمنع هو وشعبه من انزال أى ضرر بممتلكاته
أو شعبه .

ولكن رغم كل هذه الاحتياطات التى اتخذها الخان
الأعظم أغار قايدو على ممتلكاته وقاتل عدة مرات القوات
التي وجهت لاعتراضه ومقاومته . والآن استطاع الملك
قايدو ، ببذل الجهد الشديد ، أن يحشد فى الميدان مائة ألف
راكب ، وكلهم من خيرة الرجال ومن المكنكة المدربين على
الحرب والقتال . وفوق هذا ، كان منضمّاً اليه عدة نبلاء
(بارونات) من عترة الامبراطور ، أى من نسل جنجيز خان
مؤسس الامبراطورية .

وسننتقل الآن للحديث عن بعض المعارك التى دارت بين
قايدو وشعب الخان الأعظم ، على أننا سنبدأ بوصف طريقة
قتالهم . فانهم عندما يخرجون للحرب ، يكلف كل واحد منهم
بحمل ستين سهماً ، ثلاثون منها ذات حنجم أصغر ، أعد للرمية
عن بعد ، على حين أن الثلاثين الأخرى أكبر حجماً ، ولها نصل
عريض ، فيعمدون الى استخدام هذه الأخيرة عن قرب ،
فيضربون بها أعداءهم فى وجوههم وأذرعهم ، ويقطعون

أوتار قسيهم وينزلون بهم بواسطتها أضرارا فادحة . حتى إذا افرغوا كل سهامهم يستلون سيوفهم ودبابيسهم ، وينقضون بها بعضهم على بعض بضربات عنيفة .

ومن عام ١٢٦٦ ، حشد هذا الملك قايدو ومعه أبناء عمومته ، وكان اسم أحدهم جيسودار ، حشدا عرمرما من الناس ، هاجم به اثنين من نبلاء الخان الأعظم ، كانا هما أيضا من أبناء عمومة الملك قايدو ، وان توليا حكم بلادهما يتنصيب من الخان الأعظم . وكان اسم أحدهما تايى أو كيبان . وهما من أبناء كياجانا (جاغتاي) ، الذى تلقى تعميدا مسيحيا ، وكان شقيقا للخان الأعظم قبلاى . والآن ، خاض قايدو ورهطه غمار معركة مع ابنى عمه هذين ومعهما أيضا جيش عظيم ، وذلك لأنه كان هناك زهاء مائة ألف خيال فى كل جانب من الجانبين .

وحمل وطيس القتال بين الفريقين ، وقتل الكثيرون من كل من الجانبين ، ولكن المعركة انتهت أخيرا بفوز الملك قايدو بالنصر ، وانزال دمار فادح بأعدائه .

ولكن الأخوين ابنى عم الملك قايدو ، فرا دون أن يصابا بأذى ، وذلك لأنهما كانا يمتطيان جوادين فارهين حملاهما بعيدا بأعظم سرعة . فلما أن أحرز قايدو النصر على ماترى ، تزايد كبرياؤه وصلفه ، وعاد الى بلاده ، حيث أقام سنتين كاملتين فى سلام دون نشوب أى قتال بينه وبين الخان الأعظم ولكن قايدو عاود عند نهاية السنتين حشد جيش عظيم .

وكان يعلم أن ابن الخان الأعظم المدعو نوموجان كان فى قره قورم ، وأنه كان معه جورج حفيد البريسترجون ، ومع (الأميرين) أيضا ، جيش جرار من الفرسان . فلما أن جمع الملك قايدو جموعه ، زحف من بلاده ، وبلغ ، بغير أحداث تستحق الذكر المنطقة المجاورة لقره قورم ، حيث

تجمع الأميران ، وهما ابن الخان الأعظم ، وحفيد
البريسترجون ، مع جيشهما . وبدلاً من أن يتسرب الخوف
إلى قلب الأميرين ، استعدا لملاقاتهم بكل حمية وشجاعة ، حتى
إذا تم للقائدين حشد جيشهما بأكمله ، وكان مؤلفاً من عدد
لا يقل عن ستين ألف فارس ، زحفاً وعسكراً على خير وجه
وأحسن نظام وعن بعد حوالي عشرة أميال من الملك قايدو ،
الذي كان معسكراً برجاله بنفس السهل .

وظل الطرفان مقيمين بمعسكريهما حتى اليوم الثالث ،
وهما يعدان العدة للقتال على خير وجه ممكن ، وذلك لتعادل
أعدادهما تقريباً ، حيث لم تكن عدة أى منهما لتتجاوز
الستين ألف راكب ، مسلحين أجود تسليح بالقسي والنبال ،
وبسيف ودبوس وترس لكل .

وكان كل جيش مكوناً من ستة كراديس بكل منها عشرة
آلاف رجل ، ولكل منها فائدة . فلما تراءى الجمعان محتشدين
في الميدان ، ولم تبق إلا الإشارة بقرع النقرزان (٤) ، رفعاً
عقيرتهما بالغناء وعزف الآلات الموسيقية بطريقة معجبة
بديعة . وذلك لأنه لا يسمح للتتار بالشروع في القتال، حتى
يسمعوا نقارات قائدهم وقد أخذت تقرر ولكن ما تكاد تقرر
حتى يشرعوا في القتال ، كما أن من عاداتهم - وهم ينتظرون
على هذا النحو - إشارة المعركة - أن يغنوا ويعزفوا على
آلاتهم ذات الوترين بطريقة غريبة شجية ، ويمتلئون بالشدة
والبهجة .

وما كاد النقرزان يسمع حتى ابتدأت المعركة ، ووضعوا
أيديهم على قسيهم وثبتوا النشاب في الوتر . وما هي إلا لحظة
حتى امتلأ الجو بسهام كأنها المطر ، وحتى كنت ترى الكثير
من الرجال والكثير من الخيل ، قد سقطوا صرعى ، وحتى علا
الصياح والفجيج إلى عنان السماء ، وأصبح من الغسير على
المرء أن يسمع رعد الآلهة . والحق أنهم تقاتلوا كأنهم أعداء
ألداء .

والحق انه مادام لدى الفرد فيهم اية سهام في جمعته
فان من كان مستطيعا لم يكف قط عن الرماية ، ولكن اشتد
القتل وكثر المصابون بجروح مصمية : (قاتلة) . بحيث ان
المعركة بدأت بداية لا تبشر بالخير لأى من الطرفين . حتى اذا
استنفدوا ما لديهم من سهام ، ألقوا بقسيهم في قرابها ،
وشهروا سيوفهم ودبابيسهم ، ثم اذا هما يندفعان بعضهما
على بعض ويشرعان في كيل الضربات الرهيبة .

وهكذا ابتدءا معركة بالغة الشراسة والرهيبة ، وقد اعملا
القتل بعضهما في بعض حتى انه سرعان ما غطيت الأرض
باشلاء القتلى . وقام قايدو بوجه خاص بالمعجب العظيم من
آيات القتال ، فلولا بسالته الشخصية ، التي أعادت الشجاعة
الى أتباعه ، لأوشكت الهزيمة أن تحيق بهم عدة مرات . فاما
في الجانب الآخر ، فان ابن الخان الأعظم ، وحفيد
البريسترجون ، أظهرأ كذلك شجاعة عظيمة . وموجز القول ،
كانت هذه واحدة من أشد المعارك الدموية التي دارت بين
التتار ، وذلك لأنها استمرت حتى أرخى الليل سدوله ، ورغم
الجهود العنيفة لم تتمكن أى من الطائفتين من زحزحة الأخرى
من الميدان الذى غطته جثث لا عداد لها كان منظرها يثير
الحسرة فى النفوس ، فكم من سيدة ترملت فى ذلك اليوم
المشئوم ، وكم من ولد تيتم ! . وعندما غربت الشمس توقف
كل من الجانبين عن القتال ، وعادا الى معسكريهما ليستريحا
فى هذأة الليل .

وفى الصباح التالى ، قام الملك قايدو ، بعد أن تلقى
معلومات بأن الخان الأعظم ، جرد عليه جيشا جرارا ، بتعبئة
جنده بأسلحتهم عند الفجر ، فلما امتطوا جيادهم أمرهم
بالمسير نحو بلادهم . وبلغ من اعياء خصومهم من معركة اليوم
السابق أن لم يبذلوا أية محاولة لتعقبهم ، بل تركوهم
ينصرفون بلا أدنى مضايقة . وواصل جند قايدو تقهقرهم
حتى بلغوا سمرقند بتركيا الكبرى .

الفصل الثامن والأربعون

ماقاله الخان الأعظم عن الأضرار
التي الحقها به قايدو .

ثارت ثائرة الخان الأعظم بدرجة كبيرة على قايدو ،
الذي دأب دوماً على إلحاق أضرار جسيمة بشعبه ومملكته ،
وقال في نفسه ، لو لم يكن ابن أخيه لما وجب أن ينجو من
شر ميتة . بيد أن شغوره يروابط القرى حال بينه وبين
القضاء عليه وعلى أراضيه ، وهكذا أفلت قايدو من قبضة
الخان الأعظم . وسنترك الآن هذه المسألة ونحدثك حديثاً
عجيباً عن ابنة الملك قايدو .

الفصل التاسع والأربعون

عن ابنة الملك قايدو ، وكم كانت
قوية وباسلة ! •

ينبغي لك أن تعرف أن الملك قايدو كانت له ابنة تسمى
بلغه التتار أبجيارم (١) ، ومعناها القمر المنير • وكانت
هذه الأنسة من قوة البدن ، بحيث لم يوجد بالمملكة كلها شاب
يستطيع التغلب عليها ، إذ كانت تصرعهم جميعا • وأراد
أبوها الملك أن يزوجه ، ولكنها أبت ذلك قائلة انها لن تتخذ
لنفسها زوجا ، حتى تلتقى برجل يقهرها قوة واقتدارا ،
فأعطاهما أبوها وعدا مكتوبا بأنها تستطيع أن تتزوج بملء
إرادتها • فأرسلت الى كافة أرجاء العالم رجالا يعلنون • أنه
إذا جاء أى شاب لمنازلتها واختبار قوته مع قوتها ، فتغلب
عليها بالقوة ، فإنها ستقبله زوجا لها •

ولم يكد هذا الاعلان يذاع بين الناس ، حتى توافق
الكثيرون من كافة أرجاء الدنيا لي تجربوا حظهم معها • وتمت
التجربة بجدية مهيبة • واتخذ الملك مقعده فى القاعة
الكبرى للقصر ، مع حشد كبير من الرجال والنساء ، ثم حضرت
ابنة الملك فى ثوب من السندال (: فاخر الحرير الرقيق) ،
وقد زينت زينة فاخرة ، فتقدمت الى وسط القاعة ، ودخل
فى اثرها الشاب وقد ارتدى أيضا ثوبا من السندال • وتم
الاتفاق على أنه لو تمكن الفتى من التغلب عليها بحيث
يطرحها أرضا ، فإنه سيحظى بها زوجة له •

ولكن لو حدث العكس وقهرته ابنة الملك ، خسر لها مائة

حصان * وبهذه الطريقة حصلت الأنسة على أكثر من عشرة آلاف حصان ، اذ أنها لم تلتق بإنسان قادر على التغلب عليها ، ولا عجب فى ذلك ، فانها كانت من متانة التكوين فى كل أطرافها ، ومن فارع الطول وقوة البنية ، بحيث تكاد تعد فى المردة .

وأخيرا حدث حوالى عام ١٢٨٠ ، أن وفد على القصر ابن الملك ثرى ، كان شديد الجمال صغير السن ، وكانت تصعبه حاشية فائقة ممتازة وأحضر معه ألف حصان من أجمل الجياد .

وما كاد يصل حتى أعلن أنه جاء ليحرب قوته مع الأميرة . واستقبله الملك قايدو بحفاوة عظيمة لشدة رغبته أن يكون هذا الشاب ختينا له (أى زوجا لابنته) ، لعلمه أنه ابن ملك بامار (٢) ، وعلى هذا أبلغ قايدو ابنته سرا أنه يريد منها أن تسمح بأن تقهر فى هذه المرة . بيد أنها أبت قائلا ان أى شيء فى هذه الدنيا لا يمكن أن يحملها على فعل ذلك .

وعندئذ تبوأ الملك والملكة مكانيهما فى القاعة ، مع حشد عظيم من الجنسين ، وقدمت ابنة الملك نفسها على جارى العادة ، وكذلك فعل ابن الملك الذى استرعى الأنظار بجماله بقدر ما استرعاهما بقوته وشدة مراسه . والآن ، فلقد اتفق عندما أحضر الطرفان الى القاعة ، بناء على سمو رتبة الخاطب ، أن يكون شرط التجربة أنه اذا قهر الأمير الصغير ، وجب أن يخسر الألف حصان التى أحضرها معه للرهان . فلما أن تم هذا الاتفاق ، بدأ الصراع ، وتمنى كل من كان هناك بما فيهم الملك والملكة من كل فؤادهم ، لو كان الأمير هو الفائز ، وأصبح هو زوج الأميرة .

ولكن الأمور جرت على عكس آمالهم ، فبعد الكثير من الشد والجذب فازت ابنة الملك بالنصر ، وألقى الأمير الشاب على افريز القصر ، وخسر خيله الألف .

ولم يبق في القاعة انسان لم ينتحب على ما ناله من
هزيمة . وبعد هذا صار الملك يأخذ ابنته معه في ممالك
قتاله العديدة ، فما كان فارس واحد في جحفه كله ليبدى
من البسالة ما كانت تبديه ، وأخيرا اندفعت الفتاة الى وسط
الأعداء ، وأطبقت على أحد الفوارس وحملته الى قومها .
والآن نترك هذه القصة ونتحرك للحديث عن معركة كبرى
دارت بين قايدو وأرغون ، ابن أباقا سيد ديار الشرق (٣) .

الفصل الخمسون

كيف أرسل أباقا ابنه أرغون بجيش *

والآن ، فان أباقا سيد الشرق ، كان يملك ولايات كثيرة وبلادا كثيرة ، نتاخم ممتلكات الملك قايدو في الجانب المتجه نحو الشجرة التي تسمى في كتاب الاسكندر : « الشجرة الجافة » Arbor Secco (١) . واضطر أباقا نتيجة للأضرار التي أنزلها الملك قايدو ببلاده الى ارسال ابنه أرغون على رأس عدد ضخم جدا من الخيالة ، الى اقليم الشجرة الجافة ، حتى نهر ايون ، حيث أقاموا ابتغاء حماية الاقليم من غارات قوم قايدو . وبهذه الطريقة ظل أرغون ورجاله مقيمين بسهل « الشجرة الجافة » وكونوا من أنفسهم حاميات لكثير من المدن والبلدان المجاورة . وعند ذلك حشد الملك قايدو عددا ضخما من الخيالة ، جعل على امرتهم أخاه براق ، وهو رجل حكيم شجاع ، وأصدر اليه الأوامر بقتال أرغون . ووعد براق بتنفيذ أوامره ، وبذل قصارى جهده في حربه لأرغون وجيشه ، ثم زحف بجيشه ، وكان جيشا جرارا ، وتقدم في زحفه عدة أيام ، دون أن يلتقى بأية حادثة تستحق الذكر ، حتى بلغ نهر ايون ، حيث أصبح على بعد عشرة أميال فقط من جيش أرغون . وعلى الفور استعد الطرفان كلاهما للنزال وبعد اشتباك شرس حامى الوطيس ، شب بعد ذلك بثلاثة أيام ، دارت الدائرة على جيش براق ، الذي لاحقه عدوه بمذبحة عظيمة فوق مياه النهر .

الفصل الحادى والخمسون

وبعد هذا النصر بفترة وجيزة ، تلقى أرغون نبأ وفاة والده أباقا ، فأصابه من ذلك حزن عظيم ، ثم انطلق بجحفله كله ، ماضيا فى طريقه نحو بلاط أبيه ، وهى مسافة رحلتها أربعون يوما ، لكى يتولى الولاية . وقد كان لأباقا أخ اسمه أكومات سلطان ، اعتنق الاسلام ، فلم يكب يسمع نبأ وفاة أخيه أباقا ، حتى دبر خطة الاستيلاء على الملك ، على اعتبار أن أرغون كان على مسافة قاصية لا يستطيع معها منعه من تنفيذ خطته . وعندئذ جمع جيشا قويا وذهب رأسا الى بلاط أخيه أباقا ، واستولى على أزمة الأمور ، وهناك وجد من الكنوز مالا يكاد يصدقه عقل لبالغ ضخامته ، فعمد الى توزيع هذا باغداق على بارونات (أمراء) أباقا وفرسانه ، وبذا ملك أعنة أفئدتهم ، فأعلنوا أنهم لن يرضوا به بديلا . وفوق هذا فان أكومات سلطان أبدى صلاحية عظيمة وأصبح محبوبا من الناس أجمعين . ولكن لم يطل الأمد بسلطانه المغتصب ، حيث ترامت الأنباء بأن أرغون يقترب بجحفله جرار . ولم يبد أكومات أدنى جزع ، بل سارع حتى كان قد جمع عددا لا حد له من الراكبة ، أعلنوا جميعا أنهم على استعداد للزحف على أرغون ، وأنهم لا يبتغون شيئا سوى أسره واعدامه .

الفصل الثاني والخمسون

(كيف تقبم أكرامات بجيشه
لخارية أرغون) .

عندما اجتمع لأكرامات سلطان ستون ألف خيال كاملة ،
انطلق في طريقه لمنازلة أرغون وملئه ، وتوقف بعد مسيرة
عشرة أيام ، واذ ترامت إليه الأنباء بأن العدو كان على
مسيرة خمسة أيام منه ، وأن عدده يعادل عدد جيشه . وعندئذ
نصب أكرامات معسكره في سهل فسيح جميل المنظر ، وأذن
الناس بانتوائه انتظار عدوه هناك ، بوصف ذلك موضعاً
مناسباً للقتال . وما كاد يرتب معسكره ، حتى جمع ملاءه ،
أشراف القوم وسراتهم ، وخاطبهم قائلاً : « أيها الأمراء ! » .
تعلمون جيد العلم كيف ينبغي لي أن أكون أميراً متمتعاً بحق
الولاء الاقطاعي على كل ما كان يملكه أخى أباقا ، لأنني كنت
ابناً لأبيه واشتركت في فتح جميع البلاد والأراضي التي
نملكها . أجل ان أرغون كان ابناً لأخى أباقا ، وان بعضهم
يدعون أن الوراثة تذهب إليه كحق شرعي ، ولكن مع كامل
اجترامي لكل من يرون هذا الرأي ، فأنني أقول لهم انهم على
خطأ ، وذلك لأنه ، كما أن أباه ملك زمام هذه السيادة
الضخمة ، فليس الا عدلاً أن أتولاها بعد موته ، وكان ينبغي
لي بالحق أن يكون لي نصفها أثناء حياته ، وان أتاحت له
مكارمي الاحتفاظ بالكل . ولكن لما كان الأمر كما حدثتكم
فهيا أرجوكم ولندافع عن حقنا ضد أرغون ، حتى تظل
المملكة والسيادة في أيدينا جميعاً . وذلك لأنني أؤكد لكم ان
كل ما أرغبه لنفسى هو الشرف والشهرة ، بينما تكون لكم

جميع المفانم والطيبات والسيادات بكل أرجاء بلادنا
وولاياتنا . ولن أقول بعد ذلك شيئاً ، وذلك لعلمي أنكم
رجال عقلاء محبوبون للعدالة ، وأنكم ستصرفون من أجل
شرفنا وصالحنا جميعاً » . فلما انتهى من خطابه أجابه جميع
النبلاء والفرسان وغيرهم ممن كانوا هناك في صيحة واحدة ،
أنهم لن يتخلوا عنه مادام بأجسامهم رمق من الحياة ، وأنهم
مساعده على الناس جميعاً ، وبخاصة على أرغون ، مضيفين
أنهم لا يخشون شيئاً ، وأنهم لا يدأسوه فسلموه الى يديه .
وبعد هذا بقي أكمات وجيشه في معسكرهم ، منتظرين
اقتراب العدو .

الفصل الثالث والخمسون

كيف عقد أرغون مجلسا مع
نبلائه قبل لقاء أكومات *

ونعود الآن الى أرغون ، فانه ما يكاد يتلقى أنباء حركات
أكومات ، ويعلم أنه معسكر بهذا الجيش المرمم ، حتى اشتد
به التأثير ، ولكنه رأى الحكمة تقتضيه أن يبدى الشجاعة
والحمية أمام رجاله وبعد أن دعا كل نبلائه وحكماء
مستشاريه للقاءه فى خيمته ، لأنه كان معسكرا أيضا فى
منطقة موأمة جدا ، خاطبهم على الوجه التالى : « أيها الاخوة
والأصدقاء العادلون ، تعلمون علم اليقين كم كان أبى يحبكم
بحنان ، وكيف أنه وهو حى كان يعاملكم كاخوة وأبناء
وتعلمون كيف شهدتهم معه كثيرا من المعارك ، وكيف ساعدتموه
فى فتح ما ملك من بلاد * تعلمون أيضا أنى ابن لذلك الذى
أحبكم حبا جما ، وأنا نفسى أحبكم كأنكم قطعة من جسمى *
فمن الحق والعدل اذن ، أن تساعدونى على من يقف ضد
العدالة والحق لكى يحرمنا من ارثنا فى أرضنا * وتعلمون
قوى هذا كيف انه خرج على شرعتنا ، بل لقد نبذها وتخلى
عنها وأصبح مسلما يعبد محمدا ، وكم سيسوؤنا أن نسمح
للمسلمين بالولاية على التتار * والآن أيها الاخوان والأصدقاء
العدول ، كل هذه الأسباب ينبغى أن تبث فيكم الشجاعة
والارادة لبذل قصارى جهدكم للحيلولة دون حدوث شيء كهذا ،

من أجل ذلك أتوسل الى كل فرد فيكم أن يظهر نفسه رجلاً
شجاعاً ، وأن يبرز كل حميته حتى تكون لنا الغلبة في
المعركة ، وحتى تكون السيادة والولاية لكم وليس للمسلمين .
والحق ان كل فرد فيكم ينبغي أن يعمل على النصر ، ويطمئن
اليه ، وذلك لأن العدل في جانبنا وأعداؤنا في جانب الباطل .
ولن أزيدكم بعد هذا شيئاً الا أن أتوسل الى كل منكم للمرة
الثانية أن يؤدي واجبه » .

الفصل الرابع والخمسون

كيف رد النبلاء على أرغون .

فلما سمع النبلاء والفرسان الذين كانوا حاضرين خطاب أرغون ، عقد كل منهم عزمه على تفضيل الموت على الهزيمة ، وبينما هم وقوف صامتين متأملين فيما قال ، نهض أحد كبار الأمراء وتحدث على هذا النحو : « مولانا أرغون العادل ! مولانا أرغون العادل ، نعلم علم اليقين أن ما قلته لنا هو الحق والصدق ، ولذا فاني سأكون المتكلم باسم رجالك جميعا الذين يقفون معك في خوض هذه المعركة وانهي اليك على الملأ أننا لن نخذلك مادام فينا عرق ينبض بالحياة ، وأننا نؤثر الموت على عدم ادراك النصر ، ونحن على ثقة من أننا سنهزم أعداءك ، بسبب عدالة قضيتنا ، والبغى الذي اقترفوه ، وبناء على هذا أشير بأن نزحف عليهم من فورنا ، وأرجو كل رفاقنا أن يبلوا في المعركة من البلاء الحسن ما يجعل العالم كله يتحدث بذكرهم » فلما انتهى هذا الرجل من قوله ، أعلن الآخرون جميعا انهم على رأيه ، وتصايح الجيش بأكمله بأنهم يريدون من قائدهم أن يقودهم بغير امهال ، وطبقا لهذا ، شرع أرغون ورهطه زحفهم في بكرة صباح اليوم التالي بقلوب مكينة العزم ، فلما أن بلغوا السهل الفسيح الذي عسكر فيه أكومات ، أسسوا معسكرهم على أحسن تنظيم على مسافة عشرة أميال منه تقريبا . وما كاد أرغون يعسكر حتى أرسل رسولين ثقة برسالة الى عمه .

الفصل الخامس والخمسون

كيف أرسل أرغون رسولييه الى
أكومات •

عندما بلغ هذان الرسولان الثقة وهما رجلان متقدمان
فى السن جدا ، معسكر العدو ، ترجلا عند خيمة أكومات ،
حيث كان يحيط به حشد كبير من نبلائه ، فلما أن دخلا عليه
سلما بأدب جم • وكان أكومات يعرفهما جيد المعرفة فتلقاهما
بنفس الأدب الجم ، وأبلغهما ترحابه بهما وأمرهما بالجلوس
بين يديه • وبعد أن ظلا جالسين فترة قصيرة ، نهض أحدهما
واقفا على قدميه وألقى رسالته على النحو التالى : « مولانا
العادل أكومات ، يعجب ابن أخيك أرغون لسلوكك فى أخذك
مملكته منه ، ومن أقدامك ، الآن كذلك على الحضور للاشتباك
معه فى صراع قاتل ، والحق ان هذا ليس حسنا كما أنك
لم تتصرف كما ينبغى أن يتصرف عم نحو ابن أخيه • وبناء
على ذلك يبلغك على لساننا أنه يرجوك برفق ، بوصفك ذلك
العم والوالد الطيب ، أن ترد اليه حقه ، حتى لا تنشب بينكما
معركة ، فيغمرك بكل تكريم وتشريف وتكون مولى على كل
أراضيه من دونه • فهذه هى الرسالة التى يرسلها اليك ابن
أخيك على يدنا » •

الفصل السادس والخمسون

جواب آكومات على رسالة أرغون .

لما أن سمع آكومات سلطان (صلطان) ، رسالة ابن أخيه أرغون ، أجاب بالتالي : « سيدى الرسول ، ان ما يقوله ابن أخى ، لا يرقى الى شىء ، وذلك لأن الأرض أرضى وليست أرضه ، وقد فتحتها أنا وأبوه على حد سواء ، وبناء عليه ، أخبر ابن أخى أنه لو شاء ، جعلته أميرا عظيما ، وسأعطييه من الأرض القدر الكافى ، وسيكون منى كابنى تماما ، وأعلى الأمراء مقاما بعدى . فان لم يفعل ، فلتؤكد له أنى سأبدل كل ما فى وسعى لأذيقه الحمام . فذلك ما أنتوى فعله باين أخى ، ولن تحصل منى اطلاقا على أى شىء ولا أى ترتيب آخر » . فلما انتهى آكومات من حديثه سأل الرسولان ثانية : « أهذا كل الجواب الذى سنحصل عليه ؟ » . فأجابهم قائلا : « نعم ، ولن تحصلا على جواب آخر ما دمت حيا » . وانصرف الرسولان على الفور ، وسارا بأسرع ما يمكنهما الى معسكر أرغون ، ثم ترجلا عند خيمته وأبلغاه كل ما حدث . فلما سمع أرغون رسالة عمه ، ثارت ثائرتة ، وصاح على مسمع من كل من كانوا قريبين منه : « مادمت تلقيت مثل هذا الاعتداء والاهانة من عمى ، فانى لن أعيش ولن أملك أرضا ما لم أثار لنفسى بانتقام تتحدث بهوله الدنيا بأكملها ! » وبعد أن نطق هذه الكلمات خاطب نبلاءه وفرسانه قائلا :

« الآن لم يبق لنا من شيء نعمله الا أن ننطلق بأسرع ما يمكننا
ونذيق هؤلاء الخونة عذابي الوفاء كأس الموت ، وان ارادتي
أن نهاجمهم غدا صباحا ونبذل قصارانا في القضاء عليهم» .
وظلوا تلك الليلة كلها يعدون العدة للقتال ، واستعد أكومات
سلطان للمعركة أيضا وقد علم على جواسيسه بخطط أرغون ،
ونصح رجاله بأن يتحلوا بالبسالة والاقدام .

الفصل السابع والخمسون

المعركة بين أرغون وأكومات •

وفى اليوم التالى ، دعا أرغون رجاله الى السلاح ونظمهم
بمهارة نظام المعركة ، ثم خاطبهم بنصائح مشجعة ، تقدموا
من بعدها نحو الأعداء • وفعل أكومات الشيء نفسه ، والتقى
الجمعان أثناء تقدمهما واشتبكا بغير مزيد من المفاوضات •
وبدأت المعركة بوابل من السهام كان من الكثافة بحيث بدا
كأنما هو مطر هائل من السماء ، وكنت ترى الراكبة فى
كل مكان وقد قذفوا عن صهوات جيادهم وتسمع صيحات
وأناث من يرقدون على الأرض متخنيين بالجراح المصمية •
فيهولك ما تسمع • حتى اذا استنفدوا ما فى جعابهم من
سهام ، استلوا سيوفهم وهراواتهم ، وحمى وطيس القتال
نارا متأججة واشتدت الجلبة والصياح ، حتى لم تكن
لتستطيع سماع رعد الاله • واشتد الذبح وتعاضم بكل من
الجانبيين ، ولكن ظهر أخيرا ، وان أبدى أرغون نفسه من
البسالة كل خارق وعجيب ، وضرب من نفسه مثلا لكل رجاله ،
أن كل جهد عبث ، لأن الحظ قلب له ظهر المجن ، واضطر
رجالاه الى الفرار من الميدان ، وفى أثرهم مباشرة أكومات
ورجاله ، فشئتوهم كل مشئت • وأسر أرغون نفسه أثناء
الفرار ، فتوقفت المطاردة على الفور ، وعاد الظافرون الى
معسكرهم وخيامهم ، قد أسكرتهم نشوة الفرح بغير حدود •

وأمر آكومات بحبس ابن أخيه أرغون وتضييق الحراسة عليه ، ولما كان رجلا مولعا بملذاته فإنه عاد الى بلاطه ليستمتع بصحبة الفواني الجميلات المقيّئات هناك ، تاركاً قيادة الجيش للملك أو رئيس كبير، مع أوامر مشددة بالاحتفاظ بأرغون في حراسة محكمة ، وأن يتبعه به الى البلاط في مسيرات قصيرة ، حتى يتعب رجاله .

الفصل الثامن والخمسون

كيف اخلى سبيل أرغون *

والآن ، تصادف أن نبيلاً تترى متقدماً السن جداً ، مست الشفقة قلبه على أرغون ، وقال فى نفسه ان من بالغ الشر وعدم الولاء أن يحتفظ بمولاهم على هذا النحو أسيراً ، وأنه سيبدل خير ما فى وسعه ليطلق سراحه . فبدأ باقناع كثير غيره من الأمراء بتبنى هذه المشاعر نفسها ، وبلغ من ضخامة تأثيره الشخصى ، نتيجة لعلو سنه وسمو خلقه المعروف بحبه للعدالة والحكمة ، أن ضمهم جميعاً بسهولة الى جانب مغامرته فوعده بأن يكونوا رهن اشارته . وكان اسم زعيم هذه المغامرة بنغا ، وكان كبار شركائه فى المغامرة هم الكيداي ، وتوجان وتيغانا وتانجا وتيار أولاتاي وساماغار . وذهب بنغا مع هؤلاء الى الخيمة التى كان أرغون محبوساً فيها ، وأبلغه أنهم نادمون على الدور الذى قاموا به ضده ، وأنهم اصلاحاً لخطئهم فى حقه جاءوا لاطلاق سراحه واتخاذهم مولى عليهم .

الفصل التاسع والخمسون

كيف استرد أرغون ولايته على
عرشه .

وعندما سمع أرغون كلمات بغا ، تبادر الى ذهنه لأول
هلة أنهم جاءوا للهزم منه ، وامتلأ قلبه غضبا وحزنا .
خاطبهم قائلا : « أيها السادة العدول ! انكم تأثمون أعظم
لاثم اذ تتخذون منى هدفا لسخريتكم ، وكان ينبغي أن
نقتنعوا بالظلم الذي أنزلتموه بي فعلا بحبسكم مولاكم
لشرعى . وأنتم تعلمون انكم تسيئون التصرف ولذا فاننى
أرجوكم أن تذهبوا لسبيلكم وألا تسخروا منى بعد هذا » .
قال بغا : « مولاي العادل أرغون ! تأكد أننا لا نسخر منك
على الاطلاق ، ولكن ما نقوله هو الصدق الصراح ، ونقسم
بديننا على هذا » . وعندئذ أقسم البارونات جميعا اليمين
بأنهم سيتخذونه مولى لهم . وأقسم أرغون من جانبه أنه لن
يؤاخذهم عما مضى ، وأنه سيضعهم فى موضع الاعزاز الذى
كانوا فيه عند أبيه أياقا . وما أن تم تبادل هذه الايمان ،
حتى أخرجوا أرغون من سجنه وتقبلوه سيدا ومليكا عليهم .
وعندئذ أمرهم أرغون أن يطلقوا سهامهم على الخيمة التى
كان فيها الملك الذى بيده الامرة على الجيش ، ففعلوا ذلك
وبذا لقي الملك مصرعه . وكان اسم هذا الملك سلطان ، وكان
أعظم سيد بعد أكومات . وهكذا استرد أرغون ولايته على
العرش .

الفصل الستون

كيف امر أرغون بأعدام عمه
أكومات .

وعندما وجد أرغون أنه متأكد من ولايته لعرشه ،
أصدر أوامره الى الجيش بالشروع فى الزحف الى القصر ،
وحدث ذات يوم أن أكومات كان فى بلاطه بقصره الرئيسى
يقيم حفلا عظيما ، اذ جاءه رسول وقال : « مولاي ! أحمل
اليك أنباء ليست مما أشتهيه ، اذ أنها أنباء سوء . فاعلم أن
النبلاء خلصوا أرغون من الأسر ورفعوه الى منزلة السيادة ،
وقتلوا سلطان صديقك العزيز ، وأؤكد لك انهم يسرعون
الخطى الى هنا لأسرك وقتلك ، فتدبر على الفور خير ما يمكن
عمله » .

وعندما سمع أكومات هذا القول ، أخذته فى البداية
الدهشة والخوف ، حتى لم يعرف ما يصنع أو ما يقول ،
ولكنه أخيرا ، شأن الرجل الشجاع الأريب ، أمر الرسول
ألا يبلغ أحدا بالنبأ ، وأمر معاجلا أشد رجاله ثقة بحمل
أسلحتهم وامتطاء خيولهم ، دون أن يخبر أحدا بوجهته ،
ومضى فى طريقه الى سلطان بابل ، معتقدا أن حياته ستكون
عنده بآمن . وعند نهاية مسيرة ستة أيام بلغ ممرا ، لم
يكن من الممكن تجنبه ، وعرف حارس الممر أنه أكومات
وأدرك أنه يطلب النجاة فرارا . وعزم ذلك الرجل على أسره ،
وهو أمر كان فى إمكانه فعله بسهولة ، لقلة من حوله من
حاشية . فلما تم اعتقال أكومات على هذا النحو ، توصل

ضارعا ، وعرض عليه أموالا طائلة حتى يسمح بإطلاق سراحه ، ولكن حارس الممر ، وكان مشايخا متحمسا لأرغون ، أجابه بأن كنوز العالم قاطبة لن تمنعه من أداء واجبه نحو مولاه الشرعى . وبناء على هذا وضع أكمومات فى حراسة قوية ، ومضى به نحو القصر ، فبلغه بعد استيلاء أرغون عليه بثلاثة أيام وقد أكمده الى أقصى حد فرار أكمومات . ومن ثم فعندما سلم اليه أكمومات أسيرا ، ناله أعظم ما يمكن تصوره من سرور ، أصدر ارادته بحشد الجيش على الفور دون مشاورة أى انسان ، ثم أمر أحد رجاله بقتل عمه ، والقضاء جثته بمكان سحيق بحيث لا يراه أحد بعد ذلك أبدا ، وهو أمر تم تنفيذه على الفور . وهكذا انتهى الأمر الذى جرى بين أرغون وعمه أكمومات .

الفصل احدى والستون

• وفاة أرغون •

بعد ان اتم أرغون هذا كله ، واستولى على القصر الرئيسى والسيادة ، جاء جميع النبلاء الذين كانوا يدينون بالخضوع لأبيه ، لتقديم فروض ولائهم له باعتباره مولاهم وطاعتهم له على هذا الاعتبار فى كل شىء • وبعد هذا أرسل أرغون ابنه قاسان ، ومعه ثلاثون ألف راكب كاملة الى « الشجرة الجافة » Arbor Secco المرجوة بذلك القتل ، بقصد حماية أرضه وقومه • وهكذا استرد أرغون ولايته فى عام ١٢٨١ لتجسد يسوع المسيح ، بعد أن احتفظ أكمات بصولجان الملك سنتين • وحكم أرغون البلاد ست سنوات ، مات فى نهايتها مسموماً ، على ما شاع بين الناس •

الفصل الثاني والستون

كيف وضع قياكاتو يده على
الصولجان بعد وفاة أرغون .

عندما مات أرغون ، استولى على صولجان الملك عمه
دعو قياكاتو ، ومما سهل له ذلك أكثر وجود قاسان بمنطقته
الشجرة الجافة « السحيفة البعد » . وغضب قاسان أشد
بغضب عندما سمع بوفاة أبيه واغتصاب قياكاتو للملك ،
يد أنه لم يكن يستطيع مغادرة موقعه في تلك اللحظة لحشيشته
عداءه " على أنه هدد مع ذلك بأنه لا بد منتهز فرصة ينزل
فيها انتقامه بنفس الصورة المتميزة التي انتقم بها أبوه من
اكومات " وقبض قياكاتو على أعنة السيادة ، وقدم الكل
إليه الطاعة عدا من كانوا حول قاسان ، واتخذ من زوجة
أرغون ابن أخيه زوجا له وأكثر من الاخلاص الى الاستمتاع
بالنساء ، لشدة ولعه بالملاذات ، واحتفظ قياكاتو بالملك
سنتين حتى أزيح عنه في نهايتها بالسم .

الفصل الثالث والستون

كيف استولى بايدو على الملك بعد
وفاة قياكاتو .

عندما مات قياكاتو استولى على الصولجان بايدو وكان
عما له ، كما كان مسيحيا ، فأذعن الجميع بالطاعة له عدا
قاسان ومن معه من الجند . وحدث هذا في عام ١٢٩٤ .
وعندما علم قاسان بما حدث ، ازدادت ثورته احتداما على
بايدو أكثر منها على قياكاتو ، واذا هدد بأن ينزل به انتقاما
يتحدث به الناس جميعا ، صمم على ألا يؤخر الأمر بعد هذا
لحظة واحدة ، وأن يزحف عليه فورا . وطبقا لهذا زود
جيشه بما يلزمه من ميرة وبدأ زحفه . وعندما أيقن بايدو
أن قاسان قادم اليه ، جمع عددا ضخما من الرجال ، وتقدم
بهم الى الأمام مسيرة عشرة أيام نَمْلَة ، ثم عسكر وانتظر
منه أن يبدأ بالقتال . وظهر قاسان في الميدان في اليوم
الثاني ، وبدأت على الفور معركة ضارية ، انتهت بهزيمة
بايدو هزيمة ماحقة حيث لقي مصرعه أثناء القتال . وعندئذ
قبض قاسان على زمام الملك ، وبدأ حكمه في عام ١٢٩٤ من
التجسد . وهكذا انتقلت مملكة التتار الشرقيين من أباقا الى
قاسان الذي يحكم البلاد الآن .

الفصل الرابع والستون (١)

عن أمراء تتار الغرب •

كان أول سادة التتار في الغرب هو ساين ، وكان ملكا عظيما وقويا • فغزا روسيا وكومانيا وآلانيا ولاك ومنجيار (المجر) وترك ، وجوكيا وجزاريا • وكل هذه الولايات فتحها الملك ساين • وقبل هذا الفتح كانوا جميعا كومانيين ، ولكن لم تجمعهم حكومة واحدة تحت ظلها ، ونظرا لانعدام الاتحاد فيما بينهم فقدوا أراضيهم ، وتششتوا بمختلف أرجاء العالم ، وكل من بقى هناك تحول الى حالة العبودية للملك ساين وبعد الملك ساين حكم الملك باتو ، وبعده الملك برقا ثم تلاه الملك منجلتيمور ، ثم الملك تسوتا مونجور وأخيرا توكتاي الذي يحكم الآن • والآن وقد أعطيناك قائمة بأسماء ملوك تتار الغرب ، فأننا سنحدثك عن معركة كبرى دارت رحاها بين آلاءو (هولاكو) ، سيد الشرق ، وبرقا (بركة) سيد الغرب ، فضيلا عن سبب المعركة ونتيجتها •

الفصل الخامس والستون

عن الحرب بين آلاء و بركة
(أو بركة) والمعركة التي خاضها .

في عام ١٩٦١ ، نشب خلاف شديد بين الملك آلاء و ، سيد تثار الشرق ، والملك بركة سيد تثار الغرب ، بسبب ولاية تتاخم حدود ممتلكاتهما كليهما ، ادعى كل منهما ملكيتها ، ونأت بهما الكبرياء عن النزول عنها كل للأخر . فتبادلا التحديات ، وأعلن كل منهما أنه سيخرج للاستيلاء عليها ، وسيرى من يجرو على اعتراض سبيله . وعندما بلغت الأمور هذا الحد ، دعا كل أتباعه للالتفاف حول رايته ، وبذل كل منهما قصاراه الى حد أنه في مدى ستة أشهر كان كل منهما حشد ثلاثمائة ألف فارس ، وتزودا أجود تزود بجميع ما يتصل بالحرب من عتاد حسبما تقتضيه عاداتهم . وعندئذ بدأ آلاء و سيد الشرق زحفه بكل جنده فساروا عدة أيام دون أن يلاقوا أية مغامرة تستحق الذكر . وأخيرا وصلوا الى سهل فسيح الأرجاء ، يقع بين «البوابات الحديدية» وبين بحر سراين ، فمسكروا على خير نظام ، وأقيمت جواسق وخيام فاخرة كثيرة . وهناك قال آلاء و انه سسينتظر حتى يرى ما سيفعله بركة ، وذلك لأن هذه البقعة كانت على حدود الاقليمين .

الفصل السادس والستون

كيف تقدم بركة وجفله للاقاة
آلاء *

ولما أن أعد الملك بركة كل عدته وعرف أن آلاءوا بدأ زحفه ، خرج هو أيضا في طريقه اليه ، وبلغ في الوقت المناسب نفس السهل ، الذي كان أعداؤه ينتظرونه فيه ، وعسكر على حوالى عشرة أميال منه . وكان معسكر بركة مزدانا بزخارف نفيسة كمعسكر آلاءو سواء بسواء ولكن عدد جيشه كان أكبر ، لأنه بلغ ثلاثمائة وخمسين ألف راكب - واستراح الجمعان يومين ، جمع فيهما بركة جفله في صعيد واحد وخاطبه على النحو التالى : « أيها السادة العدول ! تعلمون علم اليقين أننى منذ ولت أمر البلاد أحببتكم كاخوة وأبناء ، كما أن كثيرين منكم خاضوا معى معارك كبيرة ، كما أنكم ساعدتمونى فى فتح شطر كبير مما فى حوزتنا من الأراضى ، وتعلمون أنى أشرككم فى كل ما أملك ، وينبغى عليكم - لقاء ذلك - أن تبدلوا كل نفيس لمساندة شرفى ، وهو الشئ الذى فعلتموه حتى الآن . وتعلمون كم آلاءو رجل قوى وعظيم ، وكيف انه فى خلافه هذا معى فى جانب الباطل وكيف أننا نحن فى جانب الحق ، وينبغى لكل منكم أن يوقن بأننا سنهزمه فى المعركة ، سيما وأن عددنا يفوق عدته ، فأننا نعلم يقينا أن ليس لديه سوى ثلاثمائة ألف خيال ، بينما لدينا ثلاثمائة وخمسون ألفا ، وكلهم مقاتل من خيرة الرجال كجنده أو أفضل . من أجل هذه الأسباب جميعا ينبغى لكم أن تروا بوضوح أننا سنفوز فى يومنا

هذا ، ولكن لما كنا ما زحفنا مثل هذه المسافة البعيدة
الا لنخوض معركتنا ، فان ارادتي أن نشرع فى القتال بعد
ثلاثة أيام ، ثم نتقدم بحصافة بالغة وبنظام حسن كامل ،
حتى نضمن النجاح ، وانى لأرجوكم جميعا أن تظهروا فى
هذه المناسبة بمظهر الشجاعة ، حتى يتحدث العالم طرا
بأعمالكم . ولا أزيد بعد هذا عن أنى أتوقع من كل منكم
أن يكون على أحسن استعداد لليوم الموعود » .

الفصل السابع والستون

خطاب آلاءو الى رجاله *

عندما علم آلاءو بالتأكيد أن بركة قادم بهذا الجيش اللجب ، جمع هو أيضا رؤساء رجاله وخاطبهم على الوجه التالي : « أيها الاخوة والأبناء والأصدقاء العدول ! .. تعلمون أنى اعتزت بكم طوال حياتى وساعدتكم ، كما أنكم ساعدتمونى حتى الساعة فى الغلبة والفتح فى كثير من المبارك ، كما أنكم حتى لم تكونوا حاضرين أية معركة الا فزنا فيها بالنصر ، ومن أجل ذلك السبب جئنا هنا لقتال ذلك الرجل العظيم بركة وانى لعل علم تام بأن لديه من الرجال أكثر منا ، ولكنهم لا يضارعونكم مقدرة فى القتال ، ولا شك عندى أننا سنوردهم جميعا موارد الفرار والهزيمة . ونعلم من جاسوسنا أنهم سيخوضون معنا المعركة بعد ثلاثة أيام ، وهو أمر ملأنى سرورا ، فأرجوكم أن تكونوا على استعداد تام فى ذلك اليوم ، وأن تسلكوا المسلك الذى تعودتموه . على أن هناك شيئا واحدا فقط أريد أن أركزه فى أذهانكم ، هو أنه خير لنا الموت فى الميدان ذيادا عن شرفنا ، من أن نلاقى الهزيمة ، فليقاتل كل منكم حتى يسلم شرفنا من كل أذى ، وحتى يتجرع أعداؤنا مرارة الهزيمة والذبح » .

وهكذا شجع كل من الملكين رجاله ، وانتظرا حتى أن يوم الموقعة ، واستعد كل منهما لها على أحسن وجه أمكنه .

الفصل الثامن والستون

عن المعركة الكبرى بين الآءو
وبركة .

عندما جاء اليوم الموعود للواقعة ، استيقظ الآءو مبكرا
فى الصباح ، ودعا برجاله لتقلد السلاح ، وتنظم صفوف
جنده بأقصى درجة من المهارة . فقسمه الى ثلاثين كردوسا
Squadrons . يتألف كل كردوس منها من عشرة آلاف فارس ،
ووضع على رأس كل واحد منها قائدا متمكنا وصاحب امرة
كفئا ، فلما أن تم تنظيم هذا على الوجه المناسب ، أمر جنده
بالتقدم ففعلوا زاحفين بخطى بطيئة ، حتى بلغوا منتصف
المسافة بين المعسكرين ، فتوقفوا وانتظروا قدوم العدو .
فأما فى الجانب الآخر فان الملك بركة حشد جنده مستنفرا
ونظمهم فى خمسة وثلاثين كردوسا ، بالطريقة عينها
بالضبط التى استخدمها الآءو ، كما أمر جنده أيضا بالتقدم
ففعلوا ذلك حتى أصبحوا على نصف ميل من عدوهم . وهناك
توقفوا برهة وجيزة ، ثم تحركوا الى قدام ثانية حتى أصبحوا
على مسافة تقارب رميتى قوس قذوف معقوف Arbalest
أحدهما من الآخر . وكان السهل منبسطا مواتيا مدهش
الاتساع والرحابة كما ينبغى أن يكون الحال ، عندما يوضع
ترتيب مثل هذا العدد الضخم من الرجال فى جمعين متعادين ،
تحت أقوى مقاتلى العالم شكيمة وأشد هم بأسا ، كمسا أنهما
فوق هذا قريبان أدنيان ، لأنهما كليهما من العترة الامبراطورية
لجنجيزخان . وبعد أن تراءى العسكران هنيهة وجها لوجه ،
ضربت النقاريات أخيرا ، فأطلق كل من الجيشين على صاحبه

وابلا منهمرا من السهام ، غطى وجه السمناء فما تكاد تبصرها الا كدا وعم الذبح والتقتيل من الرجال والخييل .
حتى اذا استنفدت كل سهامهم ، اشتبكوا بعضهم مع بعض بالسيوف والقضبان (الدبابيس) وعندئذ بلغت المعركة من الشراسة أن عجيجها أصبح أقوى من زئير رعد السماء وغطيت الأرض بالجنث والأشلاء وتضرجت بالدماء . وأبدى الملكان كلاهما من الشجاعة كل مدهش معجب ، ولم يقصر رجالهما دون التأسى بهما . واستمرت المعركة على هذا النحو حتى الفسق ، حين أخذ بركة ينهار ثم فر من الميدان ، ولاحقه رجال آلاءو ببالغ العنف وهم يصرعون ويقتلون بغير رحمة .
وبعد مواصلتهم التعقب مسافة قصيرة استدعاهم آلاءو اليه ، فعادوا الى خيامهم ووضعوا أسلحتهم جانبا وضمّدوا جراحهم ، واشتد بهم الاعياء من القتال ، حتى التمسوا الراحة بسرور .
وفى الصباح التالى أمر آلاءو بدفن أجساد الموتى ، الأعداء منهم والأصدقاء ، وكانت الخسارة فادحة فى الجانبين ، بحيث تتعذر على كل وصف . وبعد الفراغ من ذلك عاد آلاءو الى بلاده بكل من بقى من رجاله حيا بعد هذه المعركة .

الفصل التاسع والستون

كيف أصبح توتامنكو سيدا التتار الغرب *

ينبغي لك أن تعلم أنه كان في الغرب ملك للتتار يسمى منكو تيمور (منجو) وأن الملك انحدر منه الى تولوبغا وكان حدثا في فروسيته (١) . وأقدم رجل قوى الشكيمة جدا ، اسمه توتا منكو على قتل تولوبغا ، بمساعدة ملك آخر من ملوك التتار يسمى نوجاي . وهكذا حصل توتامنكو على الملك بمساعدة نوجاي ، ثم ما لبث أن مات بعد حكم قصير ، واختير توكتاي ملكا وهو رجل بالغ الكفاية والحصافة . وفي الحين نفسه شب ولدا تولوبغا وأصبحا آنئذ قادرين على حمل السلاح ، كما أنهما اتصنا بالحكمة وحسن التدبير . وجمع الأخوان سرية كبيرة جدا ، وذهبا الى بلاط توكتاي ، وقدا نفسيهما ببالغ الأدب والخضوع راكعين على ركبتيهما حتى رحب بهما توكتاي وأمرهما بالوقوف . وعندئذ قال أكبرهما للملك : « مولاي العادل توكتاي ! سأخبرك على خير وجه أستطيعه لماذا حضرنا هنا الى البلاط . تعلم أننا ولدا تولوبغا (٢) ، الذي قتله توتامنكو ونوجاي . وليس لدى شيء أقوله عن توتامنكو ، لأنه ميت ، ولكننا نطالب بالقصاص في حق نوجاي على مصرع والدنا ، ونلتمس منك كملك قويم عادل أن تحقق لنا ذلك . فذاك هو هدفنا من زيارة بلاطك » .

الفصل السبعون

كيف أرسل توكتاي يطلب نوجاي
للمشول في قصره *

وعندما سمع توكتاي كلام الفتى ، علم أنه صادق فيما قال فأجابه بقوله : « أيها الصديق الكريم ، سأخضع راضيا لطلبك تطبيق العدالة على نوجاي ، ومن أجل هذا الغرض سنستدعيه الى القصر ، ونفعل كل ما تقتضيه العدالة » *

ثم بعث توكتاي برسولين الى نوجاي ، وأمره بالحضور الى البلاط ليرد على ولدى تولوبغا في شأن مقتل والدهما ، ولكن نوجاي ضحك ساخرا من الرسالة وأبلغ الرسولين أنه لن يذهب *

وعندما سمع توكتاي رسالة نوجاي ، استشاط غضبا ، وقال على مسمع من كل من كانوا حوله : « بمعونة الله ، أما أن يأتي نوجاي أمامي لاحقاق حق ولدى تولوبغا ، والا فساذهب اليه بكل رجالي وأقضي عليه » *

وعندئذ أرسل رسولين آخرين ، انطلقا بالخيال بكل سرعة الى قصر نوجاي ، وعند وصولهما قدما نفسيهما اليه ، وسلمما عليه بكل أدب ، ورحب بهما نوجاي * وعندئذ قال أحد الرسولين :

« أيها السيد الكريم ! يبلغك توكتاي أنك اذا لم تحضر الى قصره لتحقق ولدى تولوبغا بالعدل ، فانه سيأتيك

مهاجما بجحفله كله وينزل بك كل ما يستطيع من الأذى ،
بكل من ممتلكاتك وشخصك ، فاختر ما يحلو لك ، وأعطه
جوابك على لساننا » .

فعندما سمع نوجاي رسالة توكتاي ، ثارت نائرتة ،
وأجاب الرسول بالتالى : « أيها السيد الرسول ! ، الآن عد الى
مولاك ، وأخبره عن لسانى ، أنى قليل المبالاة بمداوتة ،
وأخبره فوق هذا أنه ان هاجمنى ، فأننى سأنتظره عند مدخل
بلادى . وذلك لأننى سألتقى به فى منتصف الطريق . فهذه
هى الرسالة التى ستحملها الى مولاك » .

وعاد الرسول مسرعا ، وعندما تلقى توكتاي هذه
الاجابة ، أرسل رسله على الفور الى جميع الأرجاء التى كانت
تحت حكمه ودعا قومه للاستعداد للذهاب معه على الملك
نوجاي ، ولم يلبث حتى جمع جيشا عظيما .

وعندما علم نوجاي علما أكيدا أن توكتاي يجهز عليه
ذلك الجحفل الكثير ، قام هو أيضا باعداد عدة عظيمة ،
ولكنها لم تبلغ ضخامة عدة توكتاي ، وذلك لأنه ، وان كان
ملكا عظيما وقويا ، الا أنه لم يكن فى المظمة والقوة كقوا
للآخر .

الفصل الحادى والنسبعون

كيف زحف توكتاي على نوجاي *

وعندما تجهز جيش توكتاي للحملة بدأ زحفه على رأس مئتى ألف خيال ، ووصل فى الوقت المناسب الى سهل مرغى المترامى الجميل ، حيث عسكر فى انتظار خصمه * وكان معه ولدا تولوبغا ، اللذان جاءا بصحبة سرية كبيرة من الفرسان لينتقما لمصرع والدهما *

وكان نوجاي أيضا يتقدم فى طريقه ومنعه مئة وخمسون ألف راكب ، وكلهم فتیان شجعان وجند أفضل كثيرا من جند توكتاي * فبلغ السهل الذى عسكر فيه توكتاي بعده بيومين ، وضرب معسكره على مسافة عشرة أميال منه *

وعندئذ جمع الملك توكتاي رؤساء جنده وقال لهم : « أيها السادة ! * * جئنا هنا لقتال الملك نوجاي ورجاله ، ولدينا أقوى ما يبرر هذا من سبب ، وذلك لأنكم تعلمون أن كل هذا الحقد والضعف نشأ عن رفض نوجاي احقاق حق ولدى تولوبغا ، ولما كانت قضيتنا عادلة ، فان لدينا كل سبب للأمل فى احراز النصر * فاملأوا اذن قلوبكم بأطيب الرجاء ، ومهما يكن الأمر ، فاننى لأعلم أنكم جميعا رجال صناديد وأنكم ستبذلون أقصى الجهد للقضاء على أعدائكم » *

وخاطب نوجاي أيضا رجاله بالأسلوب التالى : « أيها الاخوة والأصدقاء الأكرمون ، تعلمون أننا كسبنا كثيرا من

المعارك الضخمة والضرارية ، وأننا تغلبنا على رجال خير من هؤلاء . ولذا فانشرحوا وقرروا عينا ! فالحق في جانبنا ، وذلك أنكم تعلمون جيدا أن توكتاي لم يكن رئيسا لي حتى يدعوني لحضرته لاحقاق حق الآخرين بالقسطاس . وكل ما سأفعله ، أنى سأحثكم على سلوك نفس المسلك في هذه الواقعة ، حتى تتحدث بنا الركبان بكل مكان ، وحتى يلقي ورثتنا وأنفسنا مزيدا من الاحترام من أجله » .

وفي اليوم التالي استعد الجميع لخوض المعركة . ونظم توكتاي جيشه في عشرين كردوسا ، لكل منها زعيمه وقائده المحنك ، وشكل جيش نوجاي في خمسة عشر كردوسا .

وبعد معركة طويلة مستيئة ، أبرز فيها الملكان وكذا ابنا تولوبغا أنفسهم ببسالة المستهين بالموت ، هزم جيش توكتاي هزيمة تامة ، وتعقبه رجال نوجاي خارج الميدان معالين فيهم الذبح الشديد ، وهم جند أكفا كثيرا في القتال من أعدائهم وان كانوا أقل منهم عددا . وقتل في هذه المعركة ستون ألف جندي بالتمام ، ولكن نجا الملك توكتاي وكذا ولدا تولوبغا .

تذييل

٥ - ملاحظة على الفصل ٥٤ من الكتاب الأول ، ص ١٤٠

هنا نجد أيضا تكرارا تفصيليا للقول بأن أنج خان ، لم يكن هو وحده يعتنق المسيحية ، بل وأيضا جميع أحفاده حتى أيام مؤلفنا ، ومع أنه شاع بين الناس الشك في هذه الحقيقة ، لم تستخدم أية حجج مستخلصة من الشواهد التاريخية لتفنيدها . على أنها يؤيدها من ناحية أخرى شهادة كل من الرحالين كارييني وروبروكيز (مع بعض تنويعات في الظروف) ، فضلا عن تصديقها بسند المؤرخ أبو الفرج ، الذي لم يشك أحد في أمانته وسداد رأيه كمؤرخ ، في أية مسألة أخرى . فان أحدا من هؤلاء لم يتحدث عن وجود شخصية ببلاد التتار كشخصية بريسترجون على اعتبار أنه اكتشاف جديد يلحظ لأول مرة ، بل على أنه شيء معروف معرفة سابقة ، وبخاصة لدى من اشتركوا في الحروب الصليبية .

وربما جاز التساؤل لماذا يبدى الناس مثل هذا التردد الشديد في تصديق ، أن العقيدة المسيحية انتشرت انتشارا واسعا ، في هذا الوقت المبكر (على طقوس الكنيسة اليونانية) ، بكل من بلاد التتار وتغلغلنت حتى بلاد الصين ، كأنما ذلك شيء غير محتمل . فبهذه الواقعة لا تقوم على شهادة الرهبان الكاثوليك وحدهم (وهم مع ذلك قوم كانوا أميل إلى الخط من قدر نجاحات منافسيهم وأهميتهم السياسية منهم إلى المبالغة فيها) ، وانما تؤيد ذلك حواليات الكنيسة النسطورية .

ويلاحظ رئيس الدير رينودوه : « يوجد بين هذه الشعوب ، التي يجمعها الاسم العام وهو الترك والتتار ، عدد لا بأس بضخامته من المسيحيين ، ليس فقط عندما أسس جينجيزخان امبراطوريته الضخمة ، بل قبل ذلك العهد يزمين طويل . وذلك لأننا نجد في تاريخ النساطرة ، أن تيموني جاثاليقهم ، الذي خلف حنا نيشع Hananjechia ، الذي ورد ذكره في النقوش الصينية والسريانية والذي رسم حوالى عام ٧٨٨ للميلاد ، كتب الى سلطان (خاقان) التتار (أى امبراطورهم) والى بعض أمراء آخرين للتركستان بقصد حثهم على اعتناق العقيدة المسيحية ، وهو أمر نفذه مع متى ألف من رعاياه .

ولا يستطيع المرء أن يشك في أن هذا الشعب لم يكونوا من التتار أو الترك الأقحاح ، لأن الجاثاليق نفسه كان يستشار بواسطة القسيس الذي أرسله الى البلاد ، حول الطريقة التي ينبغي أن يتبعوها فى الصيام ، وكيفية أداء الصلوات : وذلك لأنه متعود على العيش على اللبن واللحم وليس لديه قمح ولا خمر . . . ومنذ ذلك العهد ، يجد المرء بين الأخبار الكهنوتية للكنيسة النسطورية ، مطرانا للتركستان ، وآخر لتنجيات وثالثا لكمباليك أو كمبالو ، وآخر لقشغر ونوياكات » . انظر : « Anciennes Relat. »
ص ٣١٩ . انظر أيضا : Dissentatio de Syris Nest. تأليف
ج . س . اسمانوس .

قلو سلمنا إذن أنه حدث فى زمن مبكر أن اعتنق النصرانية بعض قبائل التتار ومعهم رؤساؤهم . (ولما إذا يكون اعتناقهم ذلك الدين أمرا غير موثوق به بعكس اعتناق الأمم الأخرى بشمال وغرب أوربا ذلك ما لا ندرىه) ، لم يكن هناك سبب خاص فى استثناء الأمير المدعو أنج خان ، الذى ربما جاز ملاحظة أن قبيلته التى إليها ينتمى ، كانت تحمل اسم كرريت أو كيرائيت أو كررريت ، وهى طريقة مألوفة فى الشرق لنطق كلمتى كرايست وكريستيان : أى المسيح

والمسيحي . وربما جاز الظن بأنه يوم تعميده تلقى ، من معلميه الروحانيين ، اسما تعميديا سريانيا وليس هناك اسم أقرب الى الاحتمال من اسم يوحنا (أو جون) الانجيلي . وإذا ظننا أكثر من هذا ، وهو ظرف ليس استثنائيا في تاريخ هؤلاء الناس ، أن رئيسهم كان في نفس الوقت « لاما » ، فانه ربما لم يرغب في تجريد نفسه من الطابع الكهنوتي ، كما إن المبشرين النسطوريين ، في تقاريرهم الى الجاثليق أو المطران المقيم ببغداد أو أنطاكية ، ربما ذكروه تبعا لذلك مسمى بلقب معادل للقب يوحانس برسبيتروس Presbuteros بمعنى الأب أو القسيس .

ويستمد الاعتقاد بانتشار الانجيل في زمن مبكر بتلك المناطق قوة اضافية تدعمه ، من رأى أخذ به بعض من أوسع المبشرين علما بالأمور ، وهو أن ديانة اللاما ذاتها ليست إلا نوعا محرفا من المسيحية ومع أن هذا ربما كان استنتاجا غلب عليه التعجل وصلوا اليه مما أتيجت لهم مشاهدته بتلك البلاد ، فانه لن يصبح بعد الفحص والامتحان بعيد الاحتمال بالدرجة الشديدة التي ربما بدا عليها ابتداء . وتمكننا معرفتنا العصرية بمجموعة الأساطير (الميثولوجيا) الهندوكية ، وبخاصة بطقوس وشعائر وتماثيل بوذا ، الذي انتشرت طائفته المنشقة بالأقطار الواقعة شمال بلاد الهندستان والبنغال وشرقيهما ، أن نقول بملء الثقة انه من حيث مبادئها الجوهرية كانت ديانة البلاد التي تحمل اسم بوتان والتبت وتانجوت ، هي ديانة بوذي الهند ، ولكن في الحين نفسه كانت المشابهة تستخدم أي حجج مستخلصة من الشواهد قوية بين كثير من مراسمها ومراسم الكنائس المسيحية ، على اختلاف أنواعها بين شرقية وغربية ، مما أوضحه وأشار اليه كل رخالة زان بلادالتتار، ابتداء من كاريبي وروبروكين الذين لاحظناها لأول مرة ، الى أبناء وطننا (الانجليزى) ومعاصرنا : بوجل وترنر اللذين عاشا في بلاط أحد اللامات الكبار .

ونجد المشابهة نفسها معترفا بها حتى من رجال
الارساليات التبشيرية اليسوعية ، الذين لا يمكن أن يظن
فيهم أنهم تأثروا في مشاهداتهم بأى هوى أو تحيز لا ضرورة
له ، (وهى تهمة اتهموا بها فى بعض الأحوال) ، وذلك لأنه
لا غرورهم الشخصى كان يمكن اشباعه بذلك ، ولا مصالح
عقيدتهم كان يمكن أن تتحقق باقامة هذه الموازنة المثيرة
للاستياء .

فليس مدهشا أن بعض الناس ، وقد وقع تحت تأثيرات
وانطباعات من هذا النوع من المشابهة ، يتبنى رأيا بأن
الأمير الذى تسمى بين نصارى الشرق باسم البريسترجون ،
لم يكن سوى اللاما الأعلى للتتار .

٢ - ملحوظة اضافية على ص ٢٣٢ هامشة ٢ :

٧٧٦ - يقول البروفسور مارتينى : « ان مدينة سى جان
التي هى البلد الرئيسى ، لا تكاد - تبزها مدن أخرى ، اذا
اعتبرنا موقعها وسط اقليم بالغ الجمال والترويح عن
الأنفس ، وضخامتها ، وشدة قدمها ، وقوة متانة أسوارها ،
وجمال منظرها وعظيم تجارتها . . ويمكنك أن تحكم على
قدم عهدا فى التاريخ ، من أن الأسر الامبراطورية الثلاث ،
تشيو وسن وهان ، كانت تتولى الحكم فيها » - انظر Thevenot
تفنوه ج ٣ ص ٥٨ .

وكان أن اكتشف قرب هذه العاصمة نقش قديم على
حجر ، سجل بحروف سريانية وضيئية حالة المسيحية بتلك
الولاية أو المملكة ، وأوضح الحماية والتسامحات التى كانت
تنعم بها من أباطرة مختلفين ، وحوى قائمة بأساقفتها - يقول
البروفسور مارتينى : « ان هذه الولاية ، مشهورة أيضا بحجر
عريق القدم ، نقش عليه شريعة الرب بحروف سريانية
وضيئية ، وقد نقلها الى الأحرف الصينية خلفاء النشئل :

وقد دونت عليه قائمة أسماء الأساقفة والقسوس في ذلك الزمان ، وأسماء الأباطرة الصينيين الذين أحسنوا معاملتهم ومنحوهم امتيازات : ويحوى الحجر أيضا شرحا موجزا للشرعية المسيحية ، ولكنه على ايجازه مثير للاعجاب حقا ، ومكتوب بلغة صينية شديدة البلاغة . . . وقد عثر عليه في عام ١٦٢٥ بمدينة سان يوين ، أثناء حفر أساس احد الجدران : ولما ابلغ حاكم المدينة على الفور بهذا الاثر الذى تم العثور عليه ، تأمل بتمعن ما فيه من نقوش ، ولما كان القوم من كبار هواة الآثار القديمة ، فانه أمر بطبعه ، ثم بعد ذلك أصدر مكتوبا يتغنى بالثناء على هذا الاثر ، ثم بعد ذلك حفروه على حجر آخر بنفس الحجم منشئين نسخة من الذى عثر عليه مع مراعاة نفس السمات والحروف مع كامل الدقة والأمانة اللازمة . . . وقد حمل كبار الآباء فى جمعيتنا منه الى روما نموذجا مطابقا للأصل ، مع الترجمة ، وهو محفوظ فى الوقت الحاضر مع ترجمته بمكتبة دار رهبان يسوع الجزويت : وقد طبع فى روما ١٦٤١ « - انظر Thevenot ص ٥٧ . ثارت بطبيعة الحال بعض الشبهات بالبلاد الأوروبية ، حول صحة أثر كهذا له مثل هذه الطبيعة العجيبة ، كما أنه دارت حوله مناقشات كثيرة ، ولكن من بلغت بهم الجرأة أن يعدوه وثيقة مزيفة ، يبدو أن دافعهم روح العداة لهيئة الجزويت ، التى أتيح لأعضائها وضع تلك الوثيقة أمام الأنظار ، لا مجرد الحب الصافى للصدق والحقيقة ولا ليل الى البحث غير المتحيز ، ونظرا لأن هذا الشعور العدائى هدا كثيرا ، فانه يبدو أن صحته لم تعد موضوع منازعة من أولئك الذين تؤهلهم قدراتهم لاصدار حكم صحيح فى الأمر .

يقول ده جنى الابن : « أفادت هيئة النساطرة ، عام ٦٣٥ . بعد ميلاد يسوع المسيح أن شخصا معينا اسمه أولوبين جاء الى الصين فى عهد الامبراطور تايسونج من أسرة تانج : وهذا تم اثباته فى الأثر الذى استكشف فى سينجان فو (١٦٢٥) ، فى عهد هى تسونج من أسرة منج » . (مج ٢)

ص ٣٣٤) - وعن معلومات أدق حول هذا الآثار الشهير ،
انظر الاعمال التالية : *Athanasii Kircheri China illustrata*
(١٦٦٧) ، حيث يجد القارئ صورة طبق الأصل من
النقوش ، مع ترجمة حرفية لكل الرموز الكتابية الصينية
وانظر :

« *Andrae Mulleri Opuscula ; De monumento sinico commentarius*
(1695) : *Laurentii Moshemii, ad Historiam Ecclesiasticam Tartarorum*
Appendix, monumenta et epistolas exhibens (1741) ;

وكذا :

« *Mémoires de l'Académie des Inscriptions,*

الجزء الثلاثون ص ٨٠٢ » -

هو أمش الجزء الثالث

● هوامش الفصل الأول

(١) لما كانت المنتجات النباتية ، وبخاصة الأخشاب ، بجنوب الهند أو الهند البحرية ، مختلفة عن الأنواع المعروفة بأوربا ، فإن من الخطأ (ان كان مؤلفنا يتحدث عن السفن الهندية) ان يقال ان خشب السفن هو التنوب والسنوبر Abete and Zapino وذلك نظرا لأنه لا التنوب ولا السنوبر يوجد (بأى موقع يمكن الوصول اليه) بالمناطق الاستوائية . ولكن مهما يبد الأمر شاذا ، فإن فى سياق الكتاب أسبابا تدعو الى استخلاص أنه انما يصف سفنا بنيت ببلاد الصين ، وان كان ذلك لأغراض التجارة الهندية .

(٢) تذكر طبعة بال اللاتينية أن عدد هذه المقاصير أربعون ، كما تقول انها فوق السطح العلوى لا تحته ، ومعلوماتنا عن السفن الهندية قبل الاختلاط بأوربا ضئيلة ، ولكن الكابينات فى الأزمنة الحديثة موضوعة عادة فوق الجزء الخلفى من سطح مؤخرة السفينة .

(٣) لم يشر أى وصف حديث لسفن الجنك Junk الصينية الى الدقل المتوسط (الجزء الثانى من الصارى) كما أنه غير واضح أنه هو المقصود ومن هنا فالمتعبيرات يمكن بقول أصبح أن يفهم منها الساريات التى يمكن رفعها أو خفضها ، على منوال الصوارى الموضوعة فى الصنادل عندنا وقد يكون معنى الفقرة هو : « ان لها أربعة صوار (عليها نفس العدد من القلوع) يمكن رفع اثنين منها أو خفضها ، حسبما تقتضى الحال » .

(٤) ان هذه طريقة صيانة قيعان السفن شائعة لدى الصينيين والهنود . يقول جروس : « يتفوق الأهالى فى سوررات » فى صناعة بناء السفن . ان تتكون قيعانها وجوانبها من فلنكات (ألواح غليظة) تعشق بعضها فى بعض ، بالطريقة التى تسمى بالتفريز - فى ما أفهم - بحيث لا يمكن النفاد فيما بينها من الالتحام ، ولهم كذلك طريقة خاصة فى صيانة قيعان سفنهم بمواصلة دعكها بين حين وآخر بنوع من الزيت يسمونه زيت الخشب ، وهو زيت تتشربه الألواح (الفلنكات) انظر Voy. to the East Indies مج ١ ص ١٠٧ ، وهذا ومزيج «الشونام» أعنى

الجير مع زيت راتنجى ، أو مع الدمر Dammar المذاب (وهو مادة شجرية صمغية) ، معروف فى مصانع السفن بالهند باسم جل جل Gulgul ويضيف جروس : « لن نبالغ ان نحن اكدنا انهم (الأهالى) يبنون بشكل لا يضارع أفضل سفن فى العالم من حيث طول التحمل ، وذلك فى أى حجم كان ، ولو بلغ ألف طن يل أكثر من ذلك ٠٠ وليس من النادر أن تعيش الواحدة من تلك السفن قرنا كاملا » ص ١٠٨ .

● هوامش الفصل الثانى

(١) من الواضح أن المقصود بهذا الاسم الذى ورد هنا وفى مخطوطتى المتحف البريطانى ومتحف برلين زييانجو ، وفى طبعة بال زييانجرى وفى اللاتينية الأبركر كيامابجو ، وفى طبعة بال زييانجرى وفى اللاتينية الأبركر كيامابجو ، هى تلك الجزر التى نطلق عليها ، بمعنى جماعى ، اسم اليابان . ويسمىها الصينيون جى بن Ge-pen أو (Sy-pen) ، حسب هجاء ده جنى . أو جيه بون Jih-pun تبعاً لهجاء موريسون ، ومن هذه تشتق جميع الأسماء الأخرى على درجات متفاوت من الوضوح . ويظهر أن المقطع الختامى « جو Gu » هو كلمة « كويه Kue » الصينية ومعناها « مملكة » ، وهى كلمة تشيع اضافتها الى أسماء الأقطار الأجنبية .

(٢) ما كان بعد أقرب مكان فى الجزيرة الجنوبية عن ساحل الصين ، قرب نانج ، لا يزيد عن خمسمائة ميل ايطالى ، فربما أمكننا الظن بأن مؤلفنا حين ذكر أنه ١٥٠٠ ميل إنما يتحدث بالأميال الصينية المسماة « لى Li » ، وهو نسبياً يقارب ثلث الميل الايطالى .

(٣) يعد الاستقلال السياسى الصفة المميزة للشعب اليابانى ، الذى لا يبدو أنه وضع على طول تاريخه المسديد وضعا مستمرا تحت نير الأجنبى .

(٤) يقول كايميفر : « اللآلىء » ؛ ويسمىها اليابانيون المعادن طرا فى ولايات عديدة بالامبراطورية اليابانية . « ويدعى الامبراطور السيادة العليا على جميع مناجم الذهب ، كما يبسط ملكيته فعلا على جميع المناجم الأخرى بالامبراطورية . . . وهو يدعى لنفسه الحق فى ثلثى ناتج جميع المناجم التى تشتغل » . (انظر : His . of Japan مج ١ ص ١٠٧) . ثم يردف ذلك بقوله : « ولكنى علمت أنه فى الآونة الأخيرة ، لم تعد عروق الذهب أندر فحسب ولكنها أيضا لا تغل نفس المقدار الذى كانت تغله فيما سلف » . (المرجع نفسه) .

(٥) يقول كايميفر متحدثا عن أحد ملوك اليابان القدماء أنه : « أمر ببناء قصر منيف فخم ، يسمى كوجاتو ، ليقيم فيه ، ووصف أرضياته بالذهب والفضة » (مج ١ ص ٨٢) ويوضح هذا البيان ، وإن كان

خرافيا ، الفكرة التى شاعت بين الأهالى ، حول ما كان عليه ملوكهم
الأوائل من فخامة .

(٦) يقول كايميفر : « ان اللآلىء » ، ويسمىها اليابانيون كاينوتاما ،
وهو قول معناه « جواهر الأصداف » ، تكاد توجد بكل مكان تقريبا حول
« صايكوكف » ، داخل المحار وكثير غيره من الأصداف . ويباح لكل
انسان صيدها « (مج ١ ص ١١٠) .

(٧) عقيدتان : الدين القديم ، أو دين السنتوس ، وهم الذين يعبدون
الأرواح ، التى يسمونها « سن Sin » و « كامى Kami » ، والدين
الجديث (وقد ظهر بعد الحقبة المسيحية) ، أو دين البوذيين ، عباد بوذا
الهندي ، الذى يعبدونه باسم « فوتوكيه » و « بودزد Budsd »
والآخرين وحدهم - وهم الطبقة الغالبية الى أقصى حد - هم الذين
يمارسون أحراق موتاهم . يقول كايميفر : « يبقى هناك شيء يستحق
الملاحظة هو أن كثيرين ، وربما الأغلبية ، ممن ظلوا على الدوام فى حياتهم
يعتقون دين السنتوس بل حتى بعض السيوتوسجو Siutosjus
أو الأخلاقيين يعبدون بأرواحهم وهم على فراش الموت ، لرعاية كهنة
البوذية Bodsdism مبدلين رغبتهم فى أن تنشد لهم أناشيد الناماندا
Namanda ، وأن تحرق أجسامهم وتدفن على طريقة أهل ملة بوذا .
ولا يؤمن أتباع ديانة السنتوس بالمذهب الفيثاغورى القائل
بتناسخ الأرواح ، وان اعتنقت الأمم الشرقية هذا المذهب بأبلغ شكل
شامل » . (انظر Hist. of Japan مج ١ ص ٢١٣) .

(٨) يبدو أن المقصود بهذين الاسمين هما أباخاخان ، وهو مغولى
وفاتح سان تشن وهو صينى ، منذ كان كثير من أبناء الأمة الصينية
يعملون فى خدمة قبلاى ، بكل من السلكين : المدنى والعسكرى ، وكانوا
يحسنون عملهم والاخلاص فى خدمته . (والاسمان فى النسخة الباريسية
اللاتينية هما أباتار وفونسانتشى) .

(٩) لعل المقصود من قوله ميناء زاي تون هو آموى ، ومن كن
ساي ميناء ننج بو أو تشوسان ، اللتان تقعان عند مدخل النهر الذى
يفيخ ماؤه بجوار هانج تشيوفو ، وهى كن ساي عند مؤلفنا .

(١٠) تشيع بين أهالى الجزر الشرقية ، فكرة أن من يستخدم التعاويذ
يكتسب حصانة من الجروح .

(١١) اذا كانت العمليات الأصلية وجهت كما قد يظن على العاصمة
القديمة ، وجب علينا أن نستنتج أن المدينة المتحدث عنها كانت أوزاكا ،

الواقعة عند مصب النهر الذى تقوم بجواره على مسافة غير بعيدة من شاطئ مدينة مياكو Mia-Ku وهى المدينة التى من المعروف قديما أن السفن الصينية تكثر من ارتيادها . ولكن يرى الأستاذ جوبل أن الجزيرة هى جزيرة بنج هو أو فيراندو ، قرب مدينة نانجازاكي ، التى لم تكن آنذاك مكانا على مثل هذه الدرجة من الأهمية التى بلغتها منذئذ .

(١٢) لا شك أنه هنا غلطة ظاهرة فى التاريخ ، الذى كان يجب أن يكون ١٢٨٤ ، بدلا من ١٢٦٤ . على أنه ورد فى خلاصة البندقية المبكرة أنه ١٢٦٩ (وكذا فى النسخ المبكرة التى طبعتها الجمعية الجغرافية الباريسية) ، وفى طبعة بال ١٢٨٩ . ولا يمكن أن يعد مؤلفنا مسئولا عن هذه التناقضات التى حدثت بين ناسخية .

(١٣) ليس هناك من أثر أو مفتاح يمكن به اكتشاف جزيرة اسمها زورزا أو جورجيا (أن صح التسامع ازاء نطق البنادقة) . وربما جاز أن نجنح الى البحث عنها فى إحدى بحيرات بلاد التتار .

(١٤) لايد أن طريقة العقاب هذه كانت طريقة تثرية لا صينية . ويخبرنا كتاب : « تاريخ السند » ، أن عبد الملك خليفة بغداد (ولعله خليفة دمشق الأموى - المترجم) أنزل هذه العقوبة بأحد قواده ، وقد اتهمته بعض الأميرات - وهن من الأسرى - بارتكاب اثم فاحش . يقول بوتنجر : « أن ذلك الغاهل احنقته هذه الأمانة المزعومة ايما حنق ، وأرسل أمرا الى القائد الذى يليه فى الزتبة بأن يحيط حول محمد بن القاسم جلدا طريا ، ويقدمه على تلك الحال ليقتل فى حضرته . » ومع أن ابن القاسم كان متأكدا من براءته ، فإنه سمح بأن تنفذ فيه عقوبة مولاه الجائرة . ولم يلبث أن مات فى اليوم الثالث » . (انظر : Travels in Beloochistan and Sindh) ، ص ٣٨٩ .

● هوامش الفصل الثالث

(١) الأصنام الموصوفة هنا تابعة للبوذية Budsdo أو ما يسميه كاييفر : العبادة الوثنية الأجنبية ، وليست تابعة لعقيدة السنثو ، التي تبدو أن مناطي عبادتها وتمجيدها وهما السن وكامي ، يعدان التجسيد للأبطال الموتى . أجل أن بوذا ، الذي كان اليابانيون يسمونه بودس بودز وسياكا ، يمثل عادة بالشكل الطبيعي وإن جعل له في كثير من الأحيان حجم هائل ، ولكن سواء أتم الأمر في صحبة ديانتة التي قيل أنها أدخلت إلى اليابان حوالي القرن الأول من الحقبة المسيحية) أو فيما يرجح أثناء فترة أسبق ، فإن هؤلاء اليابانيين ، وكذا الصينيين ، يبدو أنهم تبناوا عبادة الآلهة الجمّة الأشكال للأساطير الهندوكية . ومن المعلوم أن كثيرا من هذه الأصنام له رؤوس حيوانات متنوعة ، كراس الخنزير ، في التجسيد الثالث للاله فشنو Vishnu ، وراس الفيل ، في أشكال جانيزا Ganesa ، اللذين يمكن إضافة عجل سيفا Siva اليهما ، وهانومان أمين القردة ، والأمثلة على الأرباب ذات الرؤوس العديدة في ذلك النظام الديني ، كثيرة ، كرؤوس براهما الأربعة ، والرؤوس الخمسة « لما هاديفا بانشساموخي » و « التسريمورتى » أي الثالوث الهندوكي . فأما التي تبدو فيها أذرع عديدة ، فهي تضارعا في شيوخها ، على أقل تقدير . فمثلك فيما يبدو هي أصنام اليابانيين في هذا الزمان : وإن ألت بها بعض تعديلات خاصة بهم .

● هوامش الفصل الرابع

(١) مهما يظهر من عدم تحقق حول الاسم الذى يطلقه الصينيون أنفسهم عن وطنهم ، فان من المعروف أن جميع شعوب الشرق الأخرى يسمونها تشين وتشينا (أى الصين) ، والأولى هى الطريقة التى ينطقها بها الفرس وسكان هندوستان والأخرى هى طريقة نطق أهل الملايو وغيرهم من سكان الجزر . وما يسميه ملاحونا باسم بحر الصين ، تسميه لغة أهل الملايو بصورة ثابتة « لاوت تشينا Laut China » .

(٢) نظرا لأن حدود بحر الصين ، لم تحدد بدقة ، صار من المستحيل تحقيق هذا التعداد المدعى لجزره ، وواضح أن المقصود به أن يشمل جزر مولوكا Moluccas أى تلك التى يحصل منها على التوابل بصفة رئيسية .

(٣) يقول المسيو بوافر : « ان المزارع مغطاة بغابات عاطرة . . فالمرء فيها يتنفس هواء معطرا بشذى مجموعة ضخمة من الزهور الممتعة ، التى يعقب بعضها بعضا على مدار السنة ، والتى يتغلغل رياها العذب حتى يبلغ الروح ويثير شهوة مغرية أبلغ الاغراء (انظر Voy. d'un Philosophe ص ٥٦) . ان هذه الصورة لأقطار الملايو ، وإن كانت محملة فوق طاقتها ، انما تعد تبريراً تاماً لتقرير مؤلفنا عن منتجات تلك البلاد .

(٤) من العجيب أن هذا التمييز بين الفلفل الأبيض والفلفل الأسود ، الذى يتم بعملية تبييض الحبوب وهى فى أتم نضجها ، كان ملحوظا فى مثل هذه الفترة الباكرة . فحتى قريب من نصف القرن الأخير كان المظنون بصفة عامة فى أوربا أنها ثمرتا نباتين مختلفين .

(٥) وتلك هى أيضا حال الملاحاة فى الوقت الحاضر عند الصينيين ، الذين تستخدم سفنهم (جنكاتهم) فى التجارة الى جاوه وغيرها من جزر الأرخبيل ، ولكن نظرا لأنها غير مهيأة ، لا من حيث التركيب ولا تجهيزات الأشرعة ، والصواري للعمل ضد ريح مضادة فانها تحتاج الى ريحين موسميتين للقيام برحلتى الخروج والعودة . والبيان الوارد هنا عن هذه الرياح الدورية أو الموسمية صحيح جوهراً . ففي بحر الصين يبدأ هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية أى الشتوية ، وهى التى توائم الأبحار من موانئ الصين الجنوبية الى مضيق ملقا أو جاوة ، تبدأ حوالى

شهر أكتوبر أو نوفمبر ، وتقوم حتى قرابة فبراير أو مارس : فأما الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فتبدأ حوالى أبريل أو مايو ، وتهب حتى أغسطس وسبتمبر ، وفى أثناء ذلك الموسم الأخير تعود السفن الى وطنها .

(٦) هناك أسباب كثيرة تحمل على الاعتقاد بأن ماركو بولو ، وهو يعمل فى خدمة الامبراطور ، زار بعض الجزر الشرقية ، الشديدة القرب من سواحل الصين ، مثل جزر الفلبين فيما يحتمل . اذ الواقع أن رحلة من هذا القبيل مذكورة نكرا مباشرا ، بالقسم الخامس من الفصل الأول من الكتاب الأول . يمكن أن يفهم أن الجزر التى لم يزرها « بسبب شدة بعدها عن مجالنا » هى جزر مولوكا ، التى لا بد أن منتجاتها الثمينة جعلت اسمها مشهورا ووجودها معروفا على الدوام .

● هواش الفصل الخامس

(١) لا جدال أن كاينان أو تشاينان Cheinan ، حسب الهجاء الطلياني ، هي هاى نان ، وهو اسم جزيرة كبيرة ومهمة ، تقع خارج الشاطئ الجنوبي للصين ، ويعدها بعضهم الولاية السادسة عشرة في تلك الامبراطورية ويمكن الظن بطبيعة الحال أنها أعارت اسمها للخليج الذى تقع عليه ، وان شاع بين بحارتنا تسميته باسم خليج تونج كنج .

(٢) ينبغى أن نفهم أن المقصود من أنيا هو اقليم أنان أو تونج كنج الذى يكتبه البرتغاليون أنام أو أنام ، وهو الاسم الذى سميت به لغة ذلك الاقليم ، واقليم كوشين صين ، فى قاموس الاسكندر من رودس ، باسم *Lingua Annamitica* ، أى اللغة الأنامية . على أن الصينيين الذين لا يبدعون البتة كلمة بصوت حرف الألف « ينطقونها نجان نان ، على النحو الذى توجد فيه بخرائط الجزويت ودانفيل . أما فيما يتعلق باسم تولومان فقد أبديت بعض التخمينات فى هامشه فى صفحة سابقة . على أن السياق ربما اقتادنا الى الظن بأن المقصود منها هو كوتشين صين ، وهى كياوتشى لدى الصينيين ، ولكن هذين الظنين لا يؤيدهما أى تشابه فى النطق كما أنه لا يبدو من الجزء السابق من خط سير الرحلة (الكتاب الأول . ف ٤٨٠) (b.l.c. 48) ، أن تولومان أو ثولومان كانت تقع على الساحل . ومع هذا فلعل مؤلفنا لم يكن يعنى بهذه الفترة توكيد موقعها البحرى ، وانما أن يقول انه لما كان الخليج تحده الصين من جانب ، فانه يحد كذلك من الجانب الآخر بالأرض التى تحتوى أنان تونج كنج وتولومان (التى قد تكون بولومان ، أرض البرمانيين ، حسب النطق الصينى) ، وولايات أخرى تحدث عنها فيما سلف .

(٣) يمكن الظن بأن البيان المقدم حول هذه الجزر ينطبق - لا على الجزر الصغيرة الواقعة قريبا من أرض الصين الأصلية نفسها ، عند قاعدة الخليج - وانما على جزر الفلبين وكذا بالاوان أو باراجوا ، الواقعة قبالتها ، وان كانت على مسافة بعيدة . ويبدو أن فى ذكر اتساعه الهائل ، فيما بعد ، ما يبرر هذا الاستنتاج .

(٤) يوجد النحاس ، فضلا عن الذهب بالفلبين وكثير غيرها من الجزر الشرقية ، ولكن أعظم كمية منه وأجود صنف ، هى التى تستخرج من بلاد اليابان .

⑤ هوامش الفصل السادس

(١) لا مجال لشك في أن زيامبا الواردة في نص راموسيو ، وهي زيامبا أيضا كما وردت في النص اللاتيني الباكر ، وفي نص بـمال كيامبا وفي الخلاصة الإيطالية المبكرة كيانبان ، هي نفسها تسيامبا أو سيامبا أو كيامبا أو تشامبا الواردة في خرائطنا ، وهي واقعة جنوب شرقي كوشين صين ، وفي الجزء الجنوبي الشرقي مما يمكن تسميته شبه جزيرة كمبودجا - (كمبوديا) .

(٢) تقول « Les Mémoires » متحدثة عن تشين لا : « ان دين فو هو الدين الوحيد الساري بالبلاد » . (ص ١١٩) . ويقول الأستاذ الاسكندر من رودس ، متحدثا عن اهالي كوتشين صين : « وديانتهم هي نفس ديانة الصين ، التي كانت ملحقة بها فيما ساف ، بدرجة توية » « تعادل صلة تونكين » . انظر : Voyage ey Missions ص ٦٤ .

(٣) في عام ١٣٧٣ نجد ملك « تشن لا » يرسل الجزية (وهي هدايا للتحية على يد سفير) الى الامبراطور هونج او سليل قبلاى .

(٤) يصور المؤرخون الصينيون عمليات الحملة ، بلون مخالف ولعله اصوب .

(٥) غالبا ما تكون تواريخ ماركو بولو خاطئة ، والراجح أن يسود ذلك الى اخطاء الناسخين كما أنها تختلف اختلافا بعيدا في النصوص المختلفة . ان حدثت هذه الحملة في ١٢٨١ - او ١٢٨٢ .

(٦) لم يمكن تعقب اسم اكامبال في تواريخ الاقاليم ونظرا لأنه لا يوجد بالنسخ الأخرى لمؤلفنا ، فقد حررنا من فرصة الحصول على تهجئة أصح لهذه الكلمة . ولكن اسم الملك الذي حكم في « جان نان او تون كين » بين ١٢٦٢ و ١٢٩٠ كان تشن جوى هوانج ، فيما يروي مؤرخ « الهون » ، وهو المسمى أيضا كوانج بنج ، وأضاف المؤرخ قوله : « وفي تشن تشنج او كوشين صين اشتيك » بوبييئو بولاتشييه او « في ١٢٨٢ ، في حرب مع قبلاى خان » . انظر Liv. 3 ص ١٧١ - ١٧٣ .

(٧) يصف كتاب الحوليات الصينيون هذه الأحداث بطريقة أقل تشريفا لجيوش مليكهم . ومع هذا فمن المحتمل أنه نظرا لأن الصينيين

كانوا ينقمون على هذه المحاولات في الغزو الأجنبي ، فلربما دفعهم ذلك الى
المساهمة في عواصمها الوخيمة .

(٧) ربما كان من الضروري اعلام بعض القراء أن خشب الصبر
أو أجالوتشام أو خشب الأجيلا (Agila) الذي يسميه أهل الملايو
وشعوب شرقية أخرى كالامباك خشب دهني وبال متحلل فيما يبدو ، يذوب
تماما اذا احترق كما يذوب الراتنج ، باعثة دخانا عطرا يقدره الناس
أعظم تقدير كعطر .

(٩) يبدو أنه لم يكن من دأب ملوك المنغال (أى المغول) حتى عهد
هذه الغزوات لا الفتوح — لأقاليم مين أو آفا ، ونجان نان أو تونج كنج ،
استخدام الفيلة ، لا كسلاح عسكري ولا كدواب حمل . ثم حدث فيما
أعقب ذلك من العهود أن الفيلة كانت يحتفظ بها بقصد الاستعراض فحسب ،
أو لنقل متاع البلاط الامبراطوري من قصر الى آخر .

(١٠) ان كان هذا حدث فعلا في ١٢٨٠ ، فلايد أنه كان مكلفا انذاك
بمهمة خاصة في خدمة الامبراطور . على أن الخلاصة الايطالية الباكرا
تحدد — دون أن يبدو عليها مظهر الصدق الصحيح تماما — تاريخ ١٢٧٥
ولعل من المحتمل أن الأسطول الذي رحل فيه رحيله البختامي من الصين
رسا هناك أيضا حوالي عام ١٢٩١ .

(١١) ورد في كتاب النبات (فلورا) تأليف لوراير و حين تحدث
عن « Ebenoxylum verun » أي الأبانوس الحن :

Habitat vastas sylvas Cochinchinac, maximè prope confina cambodia:
ad 11 gradum lat. ubi has arbores iterato vidi.

٢٠ شواهد في الفصل السابع

(١) يبدو أن ماركو بولو خلط في هذا الفصل بين معلومات جمعها حول جزيرتين ، أحدهما جاوة والثانية بورنيو ، وبعضها ينطبق على أحدهما وبعضها على الأخرى .

(٢) ينتج الفلفل بكل من بورنيو وجاوة ، على أن القرنفل وجوزة الطيب ليسا من منتجاتهما كليهما ، ولكن باتافيا (جاكرتا بعد الاستقلال) كانت في العصور الحديثة سوقا عظيمة لبيعها ، وكان ذلك نتيجة لوقوع جزر مولوكا تحت سيطرة من يحكمون جاوة . وربما كان هذا هو بالمثل الحال في الفترة التي تحكم البلاد فيها ملوك ماجاباهيت ، وهو موضوع لدينا عنه معلومات عجيبة كثيرة كتبها السير ت . استامفورد رافلز ، في تاريخه الممتاز لتلك الجزيرة الشائقة . فانه يلاحظ متحدثا عن الأحداث السياسية التي جرت في تلك الفترة قائلا : « (بعد شرب عصيان) وقعت جميع الولايات مرة ثانية تحت سيطرة الماجاباهيت . وتروى بعض الروايات أن دامار وولان نجح أيضا في رد غزو من كامبودجا (كامبوديا) (مج ٢ ص ١١٢) وتكررت ملاحظة العلاقة بين جاوة وتسيامبا أو تشامبا أيضا .

(٣) ليست جاوة مشهورة بانتاج الذهب ، بينما يجمع الكثير منه ، بعكس ذلك ، في بورنيو .

(٤) هذه الملاحظة تنطبق على جاوة أكثر كثيرا مما تنطبق على بورنيو ، وذلك لأن الملاحه الى بورنيو ، من موانئ الصين الجنوبية ، لا هي بالبعيدة الشقة ، ولا هي محفوفة بأية صعوبة خاصة . وربما صح لنا أن نلاحظ هنا ، أن المؤرخين الصينيين يتحدثون عن مملكة تسمى كوا أو ، سير عليها قبلاى قيام حملة عسكرية ، حوالى عام ١٢٨٧ حسب رواية الأستاذ أميوت أو ١٢٩٢ حسب رواية ده جنى الأكبر .

● هوامش الفصل الثامن

(١) اذا كانت جزيرة كوندور - وهناك أسباب وجيهة للذهاب الى ذلك - هي جزيرة كوندوره الواردة بخرائطنا (ويسميتها اهل الملايو كوندور Kondûr التى تعنى نوعا من القرع) ، فمن الواضح أن الاتجاه والمسافة المعينين لها خاطئان ، وذلك لأن اتخاذ طريق جنوبى بجنوب غربى من جاوة لا بد له - بدلا من اقتياد الملاح الى جزيرة على شاطئ كمبودجا - أن يجمله الى المحيط الجنوبى . ويبدو أن هذه الأخطاء نشأت عن سوء فهم لخط سير الرحلة ، التى يدخل فيها مؤلفنا ، باعترافه ، أماكن ليس لديه عنها معلومات الا بسبيل السماع ، بالاضافة الى الأماكن التى زارها فعلا . فأما ان رحلته لم تقتده الى جزيرة جاوة (مميزة عن التى يسميها فيما بعد جاوة الصغرى) ، فشيء واضح يتجلى من نفس عباراته ، ولكنه عند مغادرته الصين ويلوغه تسيامبا ، التى اما أن يكون رسا بها ، أو راها وهو يمر أمامها ، يدخل فى استطراد لقصته لكى يذكر بعد هذه الجزيرة الشهيرة ويشير الى بعض تفاصيل خاصة عنها ، فاذا انتهى من ذلك عاد الى النقطة التى تركها ، ومنها يتقدم (بطريقته الاستطردية المفككة) الى متابعة طريقه الصحيح ، الذى يؤدى به بصورة طبيعية الى جزيرة كوندور الصغيرة . نظرا لأن نساخ مخطوطه الأوائل لم ينتبهوا الى هذا الفارق الضخم ، فانهم حاولوا أن يجعلوا اليومية أكثر انتظاما طبقا لفكرتهم ، باقحام هذه الملاحظات عنوة - مهما بلغ من عدم استقامتها مع حقائق الجغرافيا - وازهارها بشكل تسلسل واحد متسق ، مع المعالجة الى تعيين اتجاهات - خيالية ، بقصد بلوغ تلك الغاية . لا يمكن التعرف على اسم صوندور . فان كانت فى الحقيقة مكانا آخر مميزا ، وليس قراءة أخرى لكلمة كوندور ، (التى تتألف فى حد ذاتها من جزيرتين صغرى وكبرى) ، فربما كان المقصود منها هو بولو ساباتا ، التى تقع على الطريق ، ولكن على مسافة ضخمة من الأولى (يعنى كوندور) .

(٢) ان لوتشاك بنص راموسيو ولوتشاتش فى الخلاصة هي نفسها لاتش فى احدى النسخ اللاتينية الباكرا وبوياتش فى طبعة بال . وتذكر احدى النسخ أنها تقع فى اتجاه جنوبى شرقى ، وأخرى انها فى اتجاه جنوبى وجنوبى بغرب من كوندور : وكلا القولين لا يستقيم والحقيقة الجغرافية . ويبدو من الظروف أن المقصود بها جزء ما من اقليم كمبودجا

التي كانت عاصمتها تسمى لوتتش ، طبقا لرواية جسيبار ده كروز الذي زارها أثناء حكم سيبياستيان ، ملك البرتغال . (انظر بوقشاس Puchas مج ٣ ص ١٦٩) وكتب الاسم في خريطة دانفيل ليفياك .

(٣) لست أعلم فيما عدا منطقة سولو ، قرب الشاطئ الشمالي الشرقي لبورنيو ، عن انتاج ودع العملة بأي جزء من أجزاء البحار الشرقية أو الصينية ، كما انى أشتت هنا زحزحة للفقرات عن مكانها أو غلطة من نوع آخر ، وذلك لأن كلمات النص لا تنطبق الا على جزر الملديف وحدها . وورد في النص اللاتيني ما يلي :

« Utuntur incolar pro moneta glebis quibusdam aureis »

وهو قول يمكن أن يفهم على أن المراد منه هو قطع صغيرة من الذهب وهي تشبه في شكلها القطع الفضية التي تشابه الرصاصات المسطوحة (القذائف المبططة) ، والتي تتداول في سيام : على أن هذه لا يمكن تصويرها للتداول في أقاليم أخرى .

(٤) من المحال علينا بغير معاونة وصف أدق لهذه الفاكهة ، حتى ولو استعنا بقاموس Loureiro's Flora Cochinchinensis تأليف لوريير والتحقق من نوع الفاكهة المسماة هذا بالبرسي أو البرتشي Berchi . على أنه في بلاد يوجد بها المانجوستان : *Gorcinia mangostna* (المنجو) ربما جاز الظن أنها تستحق هذه الملاحظة الخاصة ، لكن المؤلف لم يخبرنا أن هذه الفاكهة الرائعة من منتجات كامبودجا .

(٥) تنسب هذه الحالة المنعزلة للأقليم الى أسباب بعيدة الاختلاف . فنحن نجد هنا تنسب هنا الى دوافع سياسة الغيرة ، والسبب الوارد في نسخة بال هو :

« Adeo inhumani and habitatores ejus »

كما أنه وارد في الخلاصة الإيطالية هكذا :

Perche ellì sie fora de via.

ولأن الأخير هو أبسط التعديلات ، فانه قد يكون أصداقها .

❶ شواهد الفصل التاسع

(١) يبدو أن بنتان ، التي هي في طبعة بال بيتان ، ولكنها في اللاتينية الأقدم بنتاين ، إنما هي جزيرة بنتان ، أو بنتانج بطريقة كتابتها الأشيع قرب الفتحة الشرقية لمضيق ملقا ، التي تعد ميناؤها المسماة رثيو أورديو ، مكانا عظيم التجارة . ويتجه الطريق إليها من كامبودجا نحو الجنوب تقريبا ، كما هو وارد بكل من النصين الإيطالي واللاتيني ، هذا إلى أن المسافة لا تختلف اختلافا كبيرا عن خمسمائة ميل .

(٢) يجد الملاحون أثناء رحلتهم بين ساحل كمبوديا وجزيرة بينتان ومضيق ملقا عدة مناطق ضخمة وشعبا مرجانية ، ولكن الشقة المعينة من المياه الضحلة التي تشير إليها الفقرة الواردة في النص ، لا يمكن تحديد موقعها بدقة .

(٣) لا يكاد يتطرق شك إلى أن جزيرة ومملكة مالايور (وهي في طبعة بال ماليتور ، ولكنها في اللاتينية الأقدم مالييور) إنما عني مؤلفنا بها التحدث عن مملكة الملايو - (Orang Malâgu) التي أسست قبل عهده بما يقارب القرن ، عند الطرف الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة التي تحمل ذلك الاسم ، فرغم أنه حدث حوالي عام ١٢٥٢ أن مقر الحكم نقل إلى ملقا ، فإن اسم أرض الملايو Tanah malâyu يبدو أنه ظل بالتأكيد يطلق دائما على ذلك الجزء من البلاد ، الذي أقيمت فيه المنشأة الأصلية ، التي تدخل الآن ضمن مملكة جوهر . وعن اسم مدينتهم الأولى ، حصل المضيق - الذي كونه جزيرة تقع قريبا جدا من الطرف الأقصى من البر - على اسم مضيق سنغافورة أو سنكابور كما يسمى عند العامة .

● هوامش الفصل العاشر

(١) تكاد تجمع جميع الظروف على تأكيد الرأى القائل بأن المقصود من جياوا الصغرى فى نص راموسيو ، وجاوا Jaua الصغرى فى اللاتينية ، هو جزيرة سومطرة ، وهو اسم لا يكاد يعرفه الأهالى الا قليلا ، لعله من أصل هندوكى .

(٢) العقاقير الأخرى المشار اليها هنا ربما تكون اللبان الجاوى Gum benzuin والكافور المحلى الأصيل (مميزا عن الكافور المقلد الذى يباع فى الدكاكين مستوردا من الصين واليابان) ، وهما سلعتان تجاريتان دائمتان أساسيتان فى سومطرة .

(٣) نظرا لأن خط الاعتدال (الاستوائى) يقطع الجزيرة ، فمن الطبيعى الا يبدو نجم الشمال لسكان القسم الجنوبى كله منها ، بل ان سكان شطرى الشمالى لا يرونه الا نادرا ، وتحت ظروف خاصة فقط .

● هوامش الفصل الحادى عشر

(١) الاسم الوارد هنا فليتشس هو فى الطبعة اللاتينية فيرلاتشس ، وفى الخلاصات الايطالية فيرلاتشس ، المعادلة لفيرلاك . ومن ثم يبدو أن المعنى بها مكان يسمى بيرلاك، ويقع على الطرف الشرقى للساحل الشمالى ، ونظرا لأننا نجد فى سياق الكلام أن تعطيل الأسطول باحدى موانى هذه الجزيرة ، كان مرده الظروف الجوية غير الموائمة ، يمكن الظن بأن الجماعة بعد مغادرتهم جزيرة بنتان ، وقطع المضيق تقريبا ، التقوا بالعواصف الغربية ، وهم يجتازون أرض القارة عند تانجونج برلاك — أى « النقطة المناسبة » فى خرائطنا — وعندئذ اضطروا الى التماس ملجأ فى خليج قريب .

(٢) مما يبرر تماما تأكيدات مؤلفنا بأنه وجد مسلمين بين هذا الشعب حوالى عام ١٢٩١ ، ما روته حوليات أمراء ملقا ، التى تذكر أن تأسيس ذلك الدين فى شبه الجزيرة حدث أثناء حكم ملك تبوا العرش فى ١٢٧ ومات فى ١٣٣٣ ، وذلك بينما هو فى نفس الوقت واضح فى اعتناق الأفراد للدين الجديد — حتى فى أعداد كبيرة — ربما سبق بأعوام كثيرة اتخاذ الديانة الاسلامية ديناً رسمياً للحكومة — انظر History of Sumatra الطبعة الثالثة ص ٣٤٣ .

(٣) تشير هذه الصفة بوضوح الى الشعب المسمى « الباتا Battas » ، الذى يسكن شطرا ضخما من داخلية سومطرة ، بالقرب من نهايتها الشمالية ، والذين لاحظ الرحالة والكتاب فى جميع العصور ، اكلهم لحوم البشر ، منذ أن عرفت الجزيرة الأوربيين لأول مرة .

(٤) « لا يعمد شعب « الباتا » الى ذبح الماشية لاتخاذها طعاما ، الا فى المناسبات العامة ، ولكن نظرا لأن شهيتهم لم تجبل على رقة ولا تهذيب ، فانهم لا يتورعون عن تناول لحم جاموسة ميتة أو تخنزير أو فأر أو تمساح أو أى حيوان متوحش يتصادف أن يلتقوا به . انظر : History of Sumatra ط ٣ ص ٣٨٠ .

(٥) وهناك تأكيد مماثل أدلى به Ludovico Barthema عن شعب جاوة ، يقول هذا الرحالة غير العادى والأصيل أيضا :
La fede loro è questa, alcuni adodano gli i doli come

(أعني أنهم يعبدون الهة الهندوك)

fanno in Calicut, e alcuni sono che adorano il sole ; altri la luna, molti adorano il bue ; granparte la prima cosa che scontrano la mattina ».

انظر راموسيو مج ١ ص ١٦٨ *

• هوامش الفصل الثاني عشر

(١) ذهب بعضهم ، على أساس مشابهة صوتية عادية فى الأسماء الى أن « باسما » فى نسخة راموسيو الايطالية الأقدم ، أو باسمان فى طبعة بال ، إنما تشير الى باسمان ، على الشاطئ الغربى ، تحت خط الاعتدال الاستوائى مباشرة ، ولكن ليس هناك أى احتمال بأن مؤلفنا زار أى مكان على هذا الجانب من الجزيرة ، وبخاصة أن يكون مكانا متوغلا غربا الى هذا الحد البعيد . وتقنادنا جميع الظروف - بعد ذلك - الى الحكم بأن المقصود بها هو بازيه Pasé (ويكتبها الرحالة القدماء باسم) ، على الساحل الشمالى ، غير بعيد من « النقطة الماسية » . يقول ج ده باروس : « كانت بيدير Pedir المدينة الرئيسية بهذه الفواحي قبل انشاء ملقا ، ولكنها بدأت فى الاضمحلال بعد هذه الفترة ، وبخاصة بعد وصول البرتغاليين ، كما شرعت مدينة باسم الواقعة فى جوارها فى الصعود أهمية وشأنا » . انظر Decad ٣ ورقة ١١٥ .

(٢) مما يجعل هذا البيان ممكنا ما نعرفه من طموح قبلاى الى بسط شهرة امبراطوريته الى أماكن بعيدة تقع وراء منال جيوشه ، وبصفة خاصة الى تأسيس « تابعة اقطاعية » ، وان تكن اسمية فقط بين أمراء الجزر الشرقية .

(٣) والفيل والخرتيت (الكركدن) كلاهما معروف لدى سكان سومطرة . أما فيما يتعلق باستعمالات قرنة كسلاح دفاعى ، والتركيب الشوكى للسان ، فقد خدع فيها مؤلفنا بحكم ما سمع أو قرأ . وكان الاعتقاد بتمزيقه اللحم باللعق يعم العالم قاطبة منذ أيام بلينى الى فترة قريبة جدا . وينبئنا برنتيوس ، وهو طبيب هولندى كتب فى باتافيا فى ١٦٢٩ : « ان هو استثير ، اطار الرجل أو الحصان كما تطير الزبابة ، فيقتله بلعقه ، بينما يجرّد العظام من اللحم بخشونة لسانه » . انظر : An account of the Descuses ص ١٨٢ .

(٤) يتطابق ما قيل عن ابتهاج الحيوان بالبرك الطينية مع ما هو معروف من عادات الحيوان . يقول كتاب The Hist of Quadrupeds « الكركدن - شأن الخنزير - مغرم بالتمرغ فى الروبة الطينية والوحل ، ص ١٧٧ .

(٥) (كان من الخرافات الشائعة فى العصور الوسطى ، التى وردت فى جميع الرسائل المسطرة فى « التاريخ الطبيعى » (او كتب علم الحيوان (Bestiaries) على ما كانت تسمى) ، ان هناك طريقة واحدة فقط للقبض على وحيد القرن وهى وضع عذراء طاهرة قرب الأماكن التى يرتادها . وكان المعتقد أن الحيوان يصبح لتوه أنيسا ، بحيث يتقدم ويضع رأسه فى صدر العذراء فينتهز الصائد الفرصة ليقتله) .

(٦) ليس بمستبعد اطلاقا ، فى عهد لم تكن فيه الأجزاء الشرقية من العالم معروفة الا قليلا لدى الأوربيين ، الذين اتصفوا بسرعة التصديق على نحو متناسب مع جهالتهم ، ان يمارس هذه الخدع رحالة من العرب وتجار الأرمن ، الذين زاروا الجزر التى كان يوجد بها الاورانج أوتان أو البونجو (Simia Satyrus) ، وربما اعتادوا بيع هذه الجثث المحشوة الى الباحثين الايطالين ، على أنها موميאות جنس قزم من الناس .

● هوامش الفصل الثالث عشر

(١) المكان الذى يبدو أنه يتجاوب وسمارا على أحسن وجه هو سمالانجا ، التى تقع بين بيدير وبازيه على الساحل الشمالى نفسه ، والذى يوصف فى كتابات أهل الملايو بأن لهم ميزة اماكن الرسو المحيى جيداً أى الآمن من الرياح .

(٢) اذا كانت الحملة التى صاحبها مؤلفنا ، رحلت من الصدين حوالى بداية عام ١٢٩١ (كما هو مستنتج فى هـ I ص ٢٧) وادبتغرقت ثلاثة أشهر فى رحلتها الى جاوة الصغرى أى سومطرة (كما ذكر ذلك هو نفسه فى الفصل الأول من العمل ص ٢٧) فانها كانت لتقابل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية عند الفتحة الغربية لمضيق ملقا قرب شهر مايو من تلك السنة ، فلما أن ألفوا من الضرورى الرسو - نتيجة لهذا - بأحد الخلجان بالشاطئ الشمالى من تلك الجزيرة ، فلربما تطلعوا هناك حتى يمكنهم مع عودة الرياح الشمالية الشرقية توقع جو لطيف ومستقر .

(٣) عندما يخبرنا مؤلفنا أنه لم يكن يمكن رؤية النجم القطبى ، من مكان لا يعتمد عن خط الاستواء الا حوالى خمس درجات ، نسلم قورا بهذه الحقيقة ، على أن توكيده التالى بأن نجوم الدب الأكبر كانت غير مرئية هى الأخرى ، شئ - على عكس ذلك - لا يمكن تعليله الا أن تنسب اليه الفكرة الخاطئة بأنه نظرا لأن المجموعة النجمية لم تكن تظهر فوق الأفق ليلا ، اثناء الشطر الأكبر من مدة اقامته بالجزيرة ، فانها لم تكن لترى اثناء أى فصل آخر .

(٤) مما يذكر أنه حدث فى عام ١٥٢٢ ، أن أصيبت الحامية البرتغالية فى قلعة مبنية فى باسم (بازيه) ، قرب المكان المتحدث عنه هنا ، بمحنة بسبب « اعوازاها الى الطعام ، الذى حجبته أهل البلاد عنهم ، بايقامهم الأسواق التى ألفوا اقامتها ثلاث مرات أسبوعيا » . انظر « Hist. of Sumatra » ، ط ٣ ، ص ٤١٩ .

(٥) من هذه النخلة التى تسمى فى سومطرة أناو Anau ويسمىها أهالى الملايو الشرقية جوموتو Gomuto هى من فصيلة يوراسوس جوموتوس عند أوربيرو ، وهى التى وردت فى (The Batavian Transactions) باسم ساجوير وسى بيناتوسى ، ويعمد الأهالى للحصول

على النيرة « niva » أو التودية (عصارة النخيل الطازجة) الذي يلقي منهم تقديراً أعظم مما يلقي المستخرج من شجرة جوز الهند — الى قطع احدى أكواز الطلع — أى الفروع المستخدمة فى الأخصاب عن بعد بضع بوصات من الجذع حيث يربط الجزء الباقي ثم يدق ، وعندئذ يعمل حز يرشح منه الشراب فى وعاء أو خيزرانة ، تربط تحتها بإحكام ، وتستبدل هذه بأخرى مرة كل أربع وعشرين ساعة — انظر : Hist of Sum., p. 88 ص ٨٨ .

(٦) ربما كانت الخواص العلاجية لهذا الشراب وهمية ، شأن كثير غيره من الوصفات الدوائية ، على أن مؤلفنا لم يكن يملك إلا أن يتحدث بما سمعه من اعتقاد شائع حول مزاياه ، غير أنه يعتقد بصفة عامة أن الإشراف فى استخدامه يجلب الزحار (الدوسنتاريا) .

(٧) من الطبيعى الاعتقاد بأن ارواء الأشجار أثناء فصل الجفاف ، يعود بزيادة مقدار العصارة ، ويعود بالتبعية بزيادة العصير أو الشراب الممتوح (المستنزف) .

(٨) هذا الوصف لجوز الهند « cocos nucifera » معروف — حتى لمن شهدوا الثمرة مجلوبة الى أوروبا — أنه صحيح تماماً ، بيد أن الانتعاش المستحب الذى يولده شرابه ، متى شرب من الجوزة الصغيرة بينما القشر الخارجى لا يزال أخضر ، والقلب (اللب) لا يزال طرياً جيلاتينياً ؛ لا يمكن أن يبدى الحزم فيه إلا من قاموا بالرحلات ، تحت شمس محرقة ، بتلك البلاد التى ينتج بها .

❶ هوامش الفصل الرابع عشر

(١) يعتقد فالنتين وغيره من الكتاب الهولنديين أن المقصود من دراجويان التي وردت بنفس الهمجاء في طبعتي بال واللاتينية الأبر ، ووردت في المخطوطات داجويام ، وفي الخلاصات الإيطالية بيراجولا ، - هو اندراجيرى أو اندراجيرى حسب الطريقة الأشيع في كتابتها ، وهو نهر ضخم في الجانب الشرقى من الجزيرة ، وهو وان كان بعيدا في اتجاه الجنوب ، وكان من ثم بعيدا عن المكان الذى ألقى الأسطول فيه مراسيه ، إلا أنه ربما زاره رجالنا المسافرون أثناء فترة تعطله في الأشهر الخمسة .

• هوامش الفصل الخامس عشر

(١) يظهر اسم لامبرى بغير أدنى تغيير فى الطبقات والنسخ المتعددة ، وذلك فيما عدا موضعا واحدا ، ان هو يظهر فى النسخة اللاتينية المبكرة ، مطبوعا جامبرى . فان كانت المنطقة المذكورة أخيرا هى اندراجيرى ، لكان هذا الاسم هو جامبى فيما يبدو ، وهو اسم آخر كبير ، يقع جنوبا أكثر . وفى الطبعة الألمانية (نورنبرج) الصادرة فى ١٤٧٧ ، تسمى هذه المملكة أو الناحية جامبو ، وهو اسم يكاد يقترب من اسم جامبى .

(٢) هذا هو الخشب المسمى *Caesulpinia Sappan* عند لينايوس Lin. وهو المشهور بأنه مادة صباغة تشتهر باسم خشب البريزيل ؛ وهو اسم يظن الناس عموما بأنه اكتسبه من اسم إقليم البرازيل ، ولكن يبدو أن العكس هو الواقع . ذلك أن كلمتى فرزينو *Verzino* بالاطالية وبارسينو *barcino* بالاسبانية وتحرفان الى برزن وبيرزيل ، كانتا موجودتين قبل اكتشاف العالم الجديد بزمان طويل ، كما ان الاسم أطلق على ذلك الجزء من أمريكا الجنوبية بسبب امتلائه بالأشجار التى تنتج تلك الصباغة النافعة .

(٣) ربما شاهد مؤلفنا الكافور بمدينة جامبى ، ولكن لابد انه حمل اليها ليبيع هناك ، من المناطق الداخلية الواقعة بعيدا فى الشمال الغربى وذلك لأن تلك الشجرة لا تنمو بأى مكان جنوب خط الاستواء .

(٤) ما يقال هنا عن نوع آخر من مواد الصباغة ، متميز عن الفرزينو ، يختلط فى الطبقات اللاتينية معه ، ويطلق على النوعين اسم برسى *Berci* وهو اسم اتصاله ببرزن وبارسينو واضح تماما . وفيما عدا نبات النيلج (*Indigofera Tinctoria*) فأنى لا أعلم نباتا يستخدم فى الصباغة ؛ وتستخدم كل أجزائه جميعا بلا تمييز : الجذور والأوراق والساق . على أن هذا النبات نفسه يوصف بتفصيل أكثر فى الفصل العشرين من هذا الكتاب تحت اسم النيلج *Endigo* .

(٥) يبدو أن الأصل فى فكرة الجبليين ذوى الذيل هو اسم الأورانج أوتان أو « الإنسان الوحشى » الذى يطلق على بعض أنواع القردة العليا التى تشابه بوجه أخص النوع البشرى .

● هوامش الفصل السادس عشر

(١) ظن بعضهم أن فانفور المقصود بها هو جزيرة بانشور ،
التي يفصلها عن شاطئ سومطرة الشرقى مضيق ضيق ، ومع أن هذا
الظن لا يؤيده التشابه الصوتي ، فإني أميل إلى الظن بأن المقصود منه
هو كامبار (التي ينطقها ربابنة العرب كانفار) التي تقع على نهر يصب
بنفس المضيق ، التي كانت في المدة التي ازدهرت فيها بازيه ، تعد مكانا
له بعض الأهمية ، وكثيرا ما يرد ذكرها في كتابات ج . ديه باروه وغيره
من الكتاب المبكرين .

(٢) سبق أن لاحظنا تفوق الكافور المحلي (في رأي الصينيين ،
(وهم أهم الشعوب التي تشتريه) ، على ما ينتج منه ببلاد الصين نفسها
وباليابان . وثمنه ، وإن لم يعد بأية حال معادلا لوزنه من الذهب ، في
الزمان الحديث ، إلا أنه يتجاوز ضعف وزنه من الفضة . وطبقا لقائمة
أسعار البضائع في باتافيا ، عن عام ١٨١٤ ، ورد أن أجود أنواع
الكافور Camphor-barus يباع بسعر خمسين روبية أو ستة جنيهات
إنجليزية وخمسة شلنات للبرطل الواحد ، بينما سعر الكافور في سوق
الصين أو اليابان أقل من روبية واحدة أو حوالي شلنين للبرطل .

(٣) يقصد بهذا شجرة الساجو المسماة الرومبيا Rumbiya
والبوهن ساجو عند أهل الملايو .

(٤) التعبير الوارد في النص هو « Cime quella del carvolo »
وهي كلمة لم يمكن العثور عليها بالقواميس الإيطالية تسمية لأي نبات .
والكارفال هو Carvalho في البرتغالية هو البلوط .

(٥) قام رومفيوس وبوافر وغيرهما ، بعمل وصف واف لطريقة
أعداد الساجو من اللب الدقيقى والفروى للشجرة ولكن هذا تم بطريقة
محكمة أكثر في Asiatic Rerearches . يقول صديقى الجليل المرحوم جون
كرسب ، متحدثا عن سكان جزر بوجي ، الواقعة غير بعيد خارج ساحل
سومطرة : « إن المادة الرئيسية في طعامهم هو الساجو ، الذي يوجد
بوفرة في هذه الجزر فمتى نضجت الشجرة ، قطعت ، واستخرج اللب
أو النخاع الذي يشكل الساجو ، وفصل الجزء الدقيقى من الألياف
بالنقع في الماء ، وباليدوس بالأقدام في حوض أو جرن ، يزود بالماء النقى

باستمرار ، فيرسب الجزء الدقيقى ، ويحتفظ به فى جوالقات مصنوعة من نوع من سمار الحصير ، فيمكن حفظه فى هذه الحالة مدة طويلة . ومتى استخرجوه من مخزنهم للاستخدام الفورى ، صار من الضرورى اجراء عملية تجهيز أخرى قوامها الغسل ، ولكنهم لا يجرشونه . وقد تعطى شجرة واحدة فى بعض الأحيان مائتى رطل من الساجو ، ومتى طبخوه وضعوه فى الأوصال المجوفة للخيزران الرفيع ثم حمصوه على النار ،
مج ٦ ص ٨٣ .

(٦) أحضر النكايتن توماس فوريسست الى انجلترا فى ١٧٧٨ ، كحكا من خبز الساجو بمنزل السير جوزيف بانكس وهى مما جهزه أهالى نيوجنى ، كما أحضر الفرن الطينى المستخدم فى خبزها ، والذي رسم صورته فى البيان الذى كتبه بتلك البلاد . (ص ٣٨٨) .

(٧) من الواضح ان مؤلفنا وقع فى خطأ ؛ حيث ظن أن هذا الخشب الصلب والثقيل الذى يسمح بأن يشق طوليا الى شرائح ، - شأن قصب الخيزران - هو الجزء الخشبي من شجرة الساجو ، الذى يختلف تركيبه اختلافا بينا - فان ما يصقه بأنه صالح لعمل الرماح انما هو جذع نوع آخر من النخل ينمو بنفس هذه الجهة من البلاد ، ويسميه أهالى سومطرة وجاوة نيبونج ، ويسميه علماء التاريخ الطبيعى « كاريوتا يوزنز » ، الذى خلط المؤلف بينه وبين الشجر الآخر المجاور . ومع هذا فان بعض نوى الشهرة الكبيرة من علماء النبات ، لم يبدوا قدرة أكبر على التمييز ، فيما يتعلق ببعض الأنواع التى تتألف منها رتبة order النخيل .

● هوامش الفصل السابع عشر

(١) من الواضح أن الجزيرة المسماة هنا باسم نوكويران ، وفي نسخة بال نيكورام ، وفي اللاتينية الأقدم نيكوران ، وفي الخلاصة الإيطالية - إنما هي إحدى جزر نيكويار ، وهي المسماة بخرائطنا تونكوري ونونكافري وفي خريطة دانفيل نيكافري ، وهي وإن لم تكن أكبرها مساحة فإنها أشدها شهرة بسبب مرفئها الجيد ، وهي تبعد عن الطرف الأقصى لسومطرة حوالي درجتين ونصف أى مائة وخمسين ميلا بحريا .

(٢) يقول كاتب فى مجلته (Asiatic Researches) مج ٣ ص ١٦٠ : « تشاهد فى غاباتهم أشجار عظيمة الارتفاع والحجم ، ملحوظة ، قطع قومنا إحدى هذه الأشجار وكان محيطها تسع قامات أى ٥٤ قدما » .
وهى أشجار باسقة حقا ! على أن المنتجات التى يعتنون بها بوجه أخص هى أشجار جوز الهند والفوفل : (الكوثل أو الأريكة . .) وينمو هناك أيضا القرقة البرية والسناسافراس . وهو ضرب من الفار الأمريكى .

● هوامش الفصل الثامن عشر

(١) لا يمكن أن يخالجننا شك إن المقصود من التجامان في نص راموسيو والنصوص اللاتينية القديمة وإتجاليا في طبعة بال ، ونانجاما في الخلاصات الإيطالية ، — هو تلك الجزر الواقعة في الجانب الشرقي من خليج البنغال ، التي نسميها جزر اندامان الكبرى والصغرى .

(٢) يقول المستر ر. ه. كولبروك : « يسكن جزر الاندامان جنس من الناس لمعلم أقل سكان العالم تمدينا ، فهم أقرب الى الحالة الفطرية البحتة من أى جنس آخر نقرأ عنه . ولونهم اقتم ما يكون ، وقامتهم قصيرة على وجه الجملة ، كما أن هيئتهم غريبة غير مألوفة . وأطرافهم قبيحة التكوين هزيلة ، وكروشهم بارزة ، وهم كالأفريقيين رؤوسهم صوفية الشعر (مفللة) ، وشفاة غليظة وأنوف فطساء . وهم يعيشون عراة تماما » . انظر (Asiat. Res.) مج ٤ ص ٣٨٩ . يقول الرحالة العرب : « وهم سود البشرة ، وشعورهم جعدة . ووجوههم وعيونهم مخيفة ، وأقدامهم كبيرة جدا تكاد تبلغ الذراع طولا ، كما أنهم يعيشون عراة الأجسام تماما » . (انظر Anciennes Relat. ص ٥) . وهذا الوصف القديم يفند بكفاية القصة التي لا أساس لها حول الجزر وأنها كانت تسكنها في الأصل شحنة من العبيد الأفريقيين الذين نجوا من حطام سفينة برتغالية ، وهي القصة التي اخترعها وصدقها أشخاص كانوا يجهلون ظروف كثير من الجزر الشرقية وأنها هي الأخرى يسكنها جنس من الزنوج .

(٣) يقصد بتفاح الجنة Pomi paradisi النبات المسمى موز الجنة ، المسمى بيسانج ببلاد الملايو ، و Musa Paradisiaca عند لينايوس Linnaeus (عالم النبات السويدي) .

● هوامش الفصل التاسع عشر

(١) لا شك أن اسم هذه الجزيرة المهمة ، التي ينطقها الفرس وسكان الهندوستان - سيلان (ويسمونها أيضا سيرنديب) ، تم الاحتفاظ به بكل النسخ العديدة بصورة خلت من التحريف أكثر من أى اسم آخر فى العمل كله . فهو يكتب زيلان فى نسخة راموسيو ، وفى طبعة بال سيلام Soilam وفى اللاتينية الأقدم سيلان Seylan وفى الخلاصات الإيطالية سيلان ، وكلها أفضل من هجائها سيلون Ceylon وهو الهجاء الذى اعتدنا كتابة الكلمة بها (نقلا عن الهولندية فيما أظن) . واتجاه أشد أجزائها امعانا فى الجنوب من جزر اندامان يكاد يكون الجنوب الغربى الجنوبى ، كما أن المسافة ، حسب القياس على الخريطة ، تبلغ أكثر قليلا من تسعمائة ميل جغرافى .

(٢) بالنص : (Sicut dicit Mappa mundi)

وأوردت الترجمة الحرفية للألفاظ اللاتينية لا ترجمة مارسدن لنص راموسيو . والخريطة العالمية (Mappa-Mundi or Mappe Monde) كانت الاسم الذى كان يطلق فى العصور الوسطى على نوع خريطة العالم المستخدمة آنذاك ، كما أنه كان يستخدم أيضا أحيانا عنوانا لرسالة فى الجغرافيا . والواقع أن خريطة للعالم ، كانت إلى حد ما ، رسالة فى الجغرافيا ، وذلك لأن وصفا كتابيا كان يضاف عادة إلى اسم كل مكان على الخريطة ، وهو الوضع الذى يفسر كلمة (Dicit) ولا شك أن « الخريطة العالمية » التى استخدمها ماركو بولو كانت خريطة شرقية : صينية أو عربية وذكر المستر كوردينر ، فى كتابه « وصف سيلان » Description of Ceylon ، الذى نشر فى ١٨٠٧ ، أن هناك روايات متوارثة تناقلها الأماهى (تؤيدها فيما يقال الملاحظات الفلكية) بأن الجزيرة نقصت لقصا كبيرا فى حجمها عما كانت عليه فيما سلف ، وهى رواية ذكرها بوجه خلاص ماركو بولو ، وهو رجل من البنادقة ، زار بلاد الشرق فى القرن الثالث عشر ، : مج ١ ص ٢ .

(٣) أن أسماء الأعلام الهندية لها على الدوام معان ودلالات . ويبدو أن المقصود من سندرناز هو ثساندرا ناس ، ومعناها ، مخاق القمر أو اختفائه . وهو وإن لم يكن ربما ملك كاندى ، أو الجزيرة بأكملها ، فإنه ربما كان يحكم منطقة على الشاطئ الغربى والراجح أن يكون حكمه

على المنطقة التي يسكنها شعب من الناس هبطوا الجزيرة من القنارة
المقابلة .

(٤) يقول المستر كوردينر : « ان ملابس العامة ليست سوى قطعة
من العيك - (القماش القطن الخام) أو الموسلين ، لفت حول الوسط ،
يتفاوت حجمها ونوعها باختلاف ظروف لبسها . وكلما زاد الواحد منهم
فقرا ، زاد قلة في الاستتار » . مج ١ ص ٩٤ .

(٥) ويقول الكاتب نفسه : « ان الفاكهة هي المادة الأساسية في
طعامهم . والأرض ترف يندر أن ينال معظمهم منه نصيبا : فأما السمك
واللحم فينطبق عليهما نفس الأمر تقريبا » . « وهم يشربون الماء الحلو
الرائق الذي يوجد داخل جوز الهند ، كما يحتسون خمر النخيل أحيانا
أي الشراب المستخرج من قمة النخلة ، قبل أن يصل إلى درجة الاسكار » .
(ص ١٠٤) . ويقول نوكس : « ومن الأرض لديهم أنواع عديدة » :
« والتللا Tolla حبوب يستخرجون منها الزيت » (ص ٧ - ١٢) .
وهذا هو التل Til أو حب السمسم الوارد ذكره في Materia Medica
لجسلادوين .

(٦) يقول كوكس Knox ، توجد بهذه الجزيرة عدة أنواع من
الأحجار النفيسة ، يملك الملك منها الكفاية ولذا فإنه لا يحرص على
اكتشاف المزيد منها . وتوجد أيضا بعض أنهار ، يقال على وجه العموم ،
أنهم يستخرجون منها بالفعل اليواقيت والياقوت الأزرق لاستخدام الملك
خاصة ، وكذا أحجار عين الهر » (ص ٣١) . ويعدد المستر كوردينر
بين منتجات سيلان ، الياقوت والزمرد ، والتوبيان والجشمت والياقوت
الأزرق وعين الهر (أو الأوبال) ، وحجر القرقة أو العقيق الأحمر . ويشب
وأنواع الجذع العقيقى : فضلا عن أنواع أخرى . (مج ١ ص ١٤) .

(٧) يبدو أن المقصود بهذا الوصف هو ما يسمى أجمالا باسم
العقيق الأحمر ، الذي يعرفه المستر وود ورد بأنه : « حجر من نوع الياقوت
له لون أحمر دموي قان » ، ويعتقد أنه يتصف بالتألق في الظلام .

(٨) لو أن لهذا الحجر الخارق وجودا حقيقيا ، فلربما كان كتلة من
البلور الملون ، ولكن ليس شيئا غير مألوف أن يصدر عن أمراء الشرق ،
في دنيابة رسائلهم وتراخيصهم ، المفاخرة بامتلاك تحف خيالية
ومستبعدة ، وفي هذه الواقعة بالذات يعد كذب هذه الادعاءات تعليلا
كافيا لرفض الملك العرض الفاخر الذي قدم لشرائها من امبراطور
الصين .

(٩) يقول المستر كوردينر : « ان اهل سيلان قوم فقراء عديمو الضرر كسالى وغير مقاتلين ويمتازون بالاعتدال والخجل والجبن » .
« وبذل منذ بضع سنوات جهد لتدريب بعضهم على الجندية . ولكن تلك المحاولة فشلت تماما بعد جهود مضيئة طويلة » . (ص ٩٢) . (وتتفق بيانات أخرى ، قديمة وحديثة ، على صدق اتصافهم بهذا الطابع) .

● هوامش الفصل العشرين

(١) يبلغ طول المسافة بين أرييو فى سيلان وأقرب جزء من القارة ستين ميلا جغرافيا بالضبط ، ولكن نظرا لعدم استمرار هذه الدقة فى عمل مؤلفنا ، فانه ينبغى ألا يعول عليها ، هذا الى أن من المحتمل أن تكون الميناء التى رسا بها الأسطول هى ميناء كولومبو وليست أرييو .

(٢) ان أسماء هذا القطر ، التى وردت ما أبار فى طبعة بال اللاتينية الأقدم ، ومو أبار فى الخلاصات ، هى ما لا بار فى نسخة راموسيو ، وذهب بعضهم الى أن الاسم الأول تصحيف ، ولكن العكس هو الحقيقة ، وذلك لأن الظروف تشير بغير لبس الى الجزء الجنوبى من ساحل كورماندل انه المكان الذى بلغه الأسطول بعد مغادرته سيلان ، ومما يخرج الأمر عن كل شك ، ان ولاية ما لا بار ذكرت بعد ذلك فى موقعها الصحيح . إذ ان « ما أبار » ، ومعناها جيزة أو معدية أو مخاضة أو معبر (انظر قاموسى مينسكى وريتشاردسون) ، — كانت تسمية أطلقها المسلمون ، على ما نسميه « القنفلى ما دورا » ، أو ربما أقاليم تانجور ، بسبب قربها ، فيما يبدو من سلسلة الركامات الرملية الشهيرة المعمورة بالماء ، والشعاب المرجانية المسماة قنطرة راما أو قنطرة آدم . ولم تعد تستخدم الآن ، ولكنها موجودة فى أعمال جميع الجغرافيين والمؤرخين الشرقيين الذين عالمجوا الكتابة عن هذا الجزء من بلاد الهند .

(٣) كان المظنون أن أمراء الهند ينتسبون الى الكشتى أى القبيلة العسكرية ، وينحدرون من واحد من اثنين من جنسين نايهين ، يسميان السوريا فانجسا أى جنس الشمس ، وشاندرا فانجسا أى جنس القمر . ويبدو أن الملك المتحدث عنه هنا ينتمى الى الجنس الثانى ، وربما أمكن أن يفهم اسمه شاندرا باندى على أن معناه « عبد القمر أو خادمه » . (وتكتبه النسخة اللاتينية الباريسية ساندرا ملك فار) .

(٤) والشطوط التى يجرى فيها صيد اللؤلؤ يبدو أنها تحتل ، الى حد كبير ، الساحل الواقع على جانبى الخليج الذى يفصل جزيرة سيلان عن القارة الهندية ، أو بعبارة أدق جانبى ذلك القسم من الخليج الذى يقع الى جانب من قنطرة آدم . فأما من الجانب الشرقى فان الشطوط التى يتم فيها صيد اللؤلؤ بالأكثر تقع قرب جزيرة منار الصغيرة وعلى

الجانب الغربي أو القاري قرب خليج توتاكوذين * وربما أمكن النظر بأن هذا المكان الأخير أو مكانا آخر قربه كان يشهد ملاحظات مؤلفنا .

(٥) يقول كوردينر : « ان عمق الماء فوق الشطوط المختلفة كان يتفاوت من ثلاث قامات الى خمس عشرة قامة * ولكن خير مصائد اللؤلؤ يوجد حيث يكون العمق بين ست وثمان * انظر Description of Ceylon مج ٢ ص ٤٠١ . وتذكر ورقة وردت Asiatic Researches مج ٥ ص ٤٠١ ، ان العمق يتراوح بين ٥ الى ١٠ قامات وفي سولو يصاد محار اللؤلؤ من أماكن أعماقها من ٣ الى ٥ قامات فقط .

(٦) يرجح أن امتياز صيد محار اللؤلؤ كان التزاما شانه حتى اليوم ، لواحد أو أكثر من التجار المغامرين .

(٧) يتألف طاقم البخارة من ثلاثة وعشرين شخصا * عشرة منهم غواصون * « وقد زود كل قارب بخمسة أحجار للغوص ، وخمس سلال شبكية ، * انظر Description of Ceylon ان هؤلاء الهنود المتعودين على الغوص منذ يواكير نعومة أظفارهم ، يهبطون بلا أدنى خوف الى قاع البحر على عمق يتراوح بين ٥ - ١٠ قامات بحثا عن الكنوز . وترتبط الشبكة وحجر الغوص بالزورق بواسطة حبلين * فيغطس الغواص في الماء وقد وضع أصابع قدمه اليمنى على الحبل الشعري لحجر الغوص وأصابع قدمه اليسرى على الشبكة ، ثم يمسك الحبلين بيد واحدة ويسد منخريه بيده الأخرى * فاذا وصل الى القاع علق الحبل حول عنقه ، وجمع فيها محار اللؤلؤ بأسرع ما يمكنه أثناء المدة التي يجد فيها نفسه قادرا على المكث تحت الماء ، وهي مدة تقارب في العادة دقيقتين * وعندئذ يستعيد وضعه الأول ، واذ يعطى إشارة بجذب الحبل ، فإنه يرفع على التو الى القارب » * ويقول : « عندما يخرج الغواصون الخمسة الأول من البحر ويتنفسون ، ينزل الخمسة الآخرون بنفس الأحجار * ويخرج كل منهم حوالي مائة محارة في شبكته ، واذا هو لم تفاجئه حادثة فربما أمكنه القيام بخمسين رحلة قبل ظهر يوم واحد » * انظر (Asiat. Res.) (مج ٥ ص ٤٠١) ومع هذا فإن بيان هذه العمليات ، على ما أورده المستر كوردينر أكثر تفصيلا ، ولكن ما أوردهنا كاف للدلالة على صدق مؤلفنا فيما رواه .

(٨) عرف عن أحد الزوارق أنه أحضر الى البر ، في يوم واحد ، ثلاثة وثلاثين ألف محارة ، وفي يوم آخر مالا يزيد عن ثلاثمائة * « وحدث في كثير من مصائد اللؤلؤ أن اجتلب الغواصون الى الشواطئ ما يزيد على مليوني محارة في يوم واحد » * - انظر : Description of Ceylon ص ٥٧ .

(٩) نجد في خريطة لشبه جزيرة الهند ، أوردها فالنتين في مجلده الخامس ، مكانا يسمى وريالا أو فيداله ، يقع على الطرف الشمالي لخليج توتاكورين ، كما يقع بصفة مباشرة داخل جزيرة راميسيرام . وربما كانت هذه هي بيتالا الواردة في نسخة راموسيو ، التي لم يرد ذكرها في أية ترجمة أخرى للكتاب .

(١٠) ان ما يشيع بين الغواصين من خرافات يجعل عمل سحرة القرش دورا ضروريا في مؤسسة مصايد اللؤلؤ . وينتسب هؤلاء الدجالين جميعا الى عائلة واحدة ، وليس لأي شخص لا يكون منتسبا اليها ، الحق في التطلع الى تلك الوظيفة ويثق الأهالي بقوة في سلطانهم على تلك الوحوش البحرية ، كما أنهم يأبون النزول الى قعر البحر اذا لم يعلموا ان أحد هؤلاء السحرة كان موجودا على ظهر الأسطول . ويستخدم منهم اثنان على الدوام . يخرج أحدهما بانتظام في زورق الريان الرئيس ، بينما يقوم الآخر بمراسم معينة على الشاطئ . « ويسمى سناحر القرش كادال كاتي » بلغة الملايبار ، وفي الهندوستانية « هيباندا » وكل منهما معانها « مفيد القرش » . (انظر : Desc. of Cey. مج ٢ ص ٥١) .

(١١) لا شك ان هذه الخرافة ، من تلك الجهة ، موافقة تماما لمصلحة الحكومة ، لأنها تمنع بواسطة رعبهم من الغوص بغير وقاية التعازيم ، أية محاولة لنهب شطوط المحار . (ص ٥٢) وربما اخترعت تلك الخرافة أو شجعت من وجهة النظر هذه .

(١٢) أصاب مؤلفنا كبد الحقيقة فيما يتعلق بطول مدة الصيد وأنه في العادة ثلاثون يوما ، وان تجاوز القوم هذه المدة في بعض الأحيان اذا حدثت فيها انقطاعات ، على أنه ذكر البداية متأخرة شهرا على الأقل عما جرت عليه عادة الأهالي . فان صبح ما يظن بعضهم ، من أن هناك تغييرا بطيئا مضطربا في فصول السنة ، فلربما كانت الرياح الموسمية فيما سلف من الزمان تغير اتجاهها في موعد متأخر قليلا عما تفعله في الوقت الحاضر . أو لعله حدث في عام ١٢٩٢ ، شيء خاص في الجو آخر بداية المصايد وساعد على مزاولةها . على أنه من المرجح جدا ان مؤلفنا كتب في مذكراته أبريل ومايو عن خطأ بدلا من مارس وأبريل .

(١٣) بدلا من أن تأخذ الحكومات العصرية عن سبيل حق « الالتزام » نسبة من الناتج ، الأمر الأكثر انطواء على العدل ، وان كان أسلوبا غير مريح تماما ، - جرت عاداتها ببيع امتياز الموسم لأي شخص مسئول يدفع أغلى ثمن ، أما العاملون في المصايد من الغطاسين وغيرهم من العملاء فيتلقون أجورهم عينا .

(١٤) لم يظهر من هذا القول أى مكان هذا الذى يبعد ثلاثمائة ميل ،
والذى اعتادت السفن الانسحاب اليه عند مغادرتها مصايد هذا
الساحل . وطبقا لرواية كورديئر : « فان الزوارق ، بما حملت من بحارة
وغواصين ، تجيء من منار وجافنا وراميسيرام وناجورة وتيوتاكورين
وترافانكور وكلكيرى ومن اجزاء أخرى من ساحل كورومانديل » ، ولكن
ورد فى Asiatic Researches ما نصه : « ان الدونى (أى القوارب
Donies) المستخدمة فى المصايد لا تجيء جميعا من سيلان ، فان كثيرا
منها يفد من سواحل كورومانديل ومالابار » . (مج ٥ ص ٤٠٠) وربما
جاز لنا أن نلاحظ هنا أن الفصول فى شاطئ مالابار عكس ما هو موجود
فى كجها الشرقية من شبه الجزيرة الهندية .

(١٥) حدث فى بعض الفقرات أن طالب الملوك بأن تعد جميع اللآلىء
التي تتجاوز حجما معلوما ملكا خاصا للملك ، يحتفظ بها لاستعماله
الخاص .

(١٦) يقول سونيراه : « وفى الأحيان تكون ثيابهم أبسط من هذا
أيضا ، اذ لا يندر أن يشاهد المرء هنودا كل ما عليهم من ثياب سوى
قطعة من قماش تستر الأجزاء الطبيعية » . انظر Voyage aux Indes, etc. مج ١ ص ٢٩ .

« L'habito di queste genti à que vanno tutte nude, salvo que partano
uh panno intorno alla parte inhoneste ».

انظر Itin. di Lodovico Barthema ورقة ١٥٨ - ٢ .

(١٧) تستخدم السبع أو المسابح - وفائدتها أن تعين الذاكرة على
عد الصلوات أو الدعوات المكررة - لهذا الغرض عند اتباع براهيم ،
وبوذا أى فو ومحمد (ص) وكذا عند بعض المذاهب المسيحية . ويقال
أن عدد حبات السبحة التي يحملها أهالى الهندوستان وكذلك عباد «فو»
مائة حبة وثمانية) . ومن هذا يحتمل أن عدد ١٠٤ الذى ذكره مؤلفنا فى
النص الوارد أعلاه ، غلط ، وذلك لأن طريقة تدوين الأرقام فى المخطوطات
القديمة ، بالأعداد الرومانية معرضة للخطأ على نحو مفرط ، على أنى
لا بد لى أن اعترف فى الوقت نفسه ، أننى لم أتمكن من التحقق بدقة من
العديد فى أقسام السبحة التي يستخدمها هندوكى أو مسلم .

(١٨) يتفق وصف الحلى التي يلبسها هذا الأمير مع ما نقرؤه فى
رحلة لودوفيكو بارثيما ، الذى يقول :

« Non si potria stimare le gioie e perle che parta il re ». « Portava
tante gioie nell'orechie, e nelle mani, nelle braccia, ne piedi e
nelle gambe, che era cosa mirabile a vedere ».

(الورقة ١٦١) • انظر أيضا : Anciennes Relations تأليف رينودوت •

(١٩) يبدو أن مؤلفنا لا يتحدث عن راجا منطقة محدودة مجاورة لساحل مصايد اللؤلؤ ، وإنما هو يتحدث عن ملك شملت ممتلكاته الاقليم الداخلى الذى يعثر فيه على الماس وغيره من الأحجار الكريمة • والواقع أن ملك نارسنجا ، الذى كانت عاصمته فى زمن تال هى بيجا نجار أو جولكوندا ، لم يكن يحكم فقط فى تلك المدة اقليمى تلنجا وكارناتا ، بل وساحل كورومانديل بأكمله أيضا ، حتى رأس كومارى أو قومورين جنوبا •

(٢٠) ان اسناد عادة حرق خدام امراء الهندوك فضلا عن زوجاتهم ، مع أجسام اسيادهم ، كثيرة جدا • وأنا لنجد أيضا فى فقرة فى رواية باريوزا ، تؤكدى لممارستهم تلك التضحية التى كانت تجيء نتيجة لارتباط تطوعى سابق •

(٢١) ان الموانى المذكورة فى النسخة اللاتينية هى كورموز وتشيزى ودور فار وسيرودان • ولا داعى للحديث فى هذا المكان عن كورموز هيرفوز (أو ايرموز) ، وكذا عن أدن أو عدن • وتشيزى هى كيس أو قيس وهى جزيرة بالخليج الفارسى ، كانت تجارة سيراف تنقل اليها • فأما ديوفار (ظفار) وبشر ، اللتان هما فى طبعة بال دورنار وسير ، فيبدو انهما هما نفس اسكير ودولفار فى الفصل ٤١ و ٤٢ ، ومن ثم يمكن الظن بأنهما مدينتا شهر وظفار على الساحل العربى ، شرقى عدن •

(٢٢) لا توجد ، حتى فى هذه الأيام ، أية سلاله من الخيل فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الهندية ، ولذا فان جميع الأحصنة المستخدمة هناك أجنبية •

(٢٣) مهما يكن فى ذلك من غرابة خارقة للمألوف ، فان من الحقائق المؤكدة أن الخيل تطعم ، الفينة بعد الفينة على ساحل كورو ماندل ، باللحم ، وبخاصة لحم ربوس الضأن المسلوق والمكور كرات ، وذلك بالإضافة الى الحمص (Dolichos, biflois. Lin.) وجذور العشب • وتستخدم وسائل مماثلة بماكن أخرى • ويقول باريوزا متحدثا عن ساحل السند :

« In questo paese, mangiano li peschi secchi et ancho li danno a mangiare alli cavalli e ad altri bestiami ».

ورقة ٢٩٥ •

(٢٤) نجد فى بيانات عصرية متعددة سندا لا شك فيه لممارسة التضحية بالذات بين سكان الهند ، فى أعياد جاجارناتها وغيره من الأصنام ،

حيث يلقي ضحايا التعصب الدينى بأنفسهم أمام عجائز مأكينات هائلة الضخامة والثقل ، لكى يسحقوا حتى الموت .

(٢٥) يزودنا كل بيان عن شعب الهندوك وعباداته بوصف للاحتفال بحرق الزوجات أنفسهن مع أجسام أزواجهن المتوفين وللفنون التى تستخدم لاثارة حماستهن ، وللمهانة والعزلة التى ستترب على رفضهن الاندماج لهذه العادة المرعبة . والمظنون أن ممارستها قلت كثيرا بتأثير المسلمين والأوربيين ، عما كانت فيما سلف من الزمان .

(٢٦) يقول بوكانان فى يوميات طريقه فى الكرناتى الجنوبى : « يعد سكان هذا الجزء من البلاد الثور الها حيا ، يمنحهم خبزهم ، كما أنه يوجد بكل قرية ثور أو ثوران ، تقدم العبادة اليهما كل اسبوع أو كل شهر » . « على أن هذه الخرافة غير منتشرة فى الجانب الشمالى من نهر كافرى Cavery . إذ يعد الثور هناك جديرا بالاحترام ، لأن « أزوارا » اختار واحدا من الثيران جوادا له » . مج ٢ ص ١٧٤ .

(٢٧) ربما فهم من هذا البيان عن أخلاق شعب النجاوى ، أن مؤلفنا يتحدث عن قبيلة المنبونين التى تسمى على الجملة بارية وتشندالا ، والتى تعرف كذلك بأسماء أخرى فى أجزاء مختلفة من الهند .

(٢٨) يقول جروس : « متى كانت الجلة طازجة ، صنعوا منها عجينة ياطخون بها بيوتهم وأرصفتهم وجوانبها ، على سبيل التطهير » ص ١٨٥ - ويقول بارثيما :

« Il piano della casa è tutto imbrattato con sterso di vacche per honorificientia ».

راموسيو ، ص ١٦١ .

(٢٩) يقول فراير : « كانت تسكن حول هذا الجبل طائفة من الناس ، تبلغ احدى قدميها فى ضخامة قدم الفيل ، وهو أمر يتيح اشاعة أن ذلك قضاء حكم عليهم به ، بأنهم سلالة سفاحى الرسول القديس توما المبارك وقتلته ، وقد شهدت وانحداء منهم فى قلعة سان جورج » :
(New Acc. of East India and Persia) ص ٤٣ .

(٣٠) تكثر زراعة السمسم (Sesamum indicum) المسمى تل Til باللغة الهندوستانية ، بمعظم أرجاء بلاد الهند ، من أجل الزيت الذى يحصل عليه من حبوبه .

« Nell'paese di Calciut si trova gran quantità di zerkolino del quale ne fanno oglio perfetissimo ».

(انظر بارثيما ص ١٦٢) .

(٣١) كان تأنيث سكان الهند وبخاصة سكان الولايات الجنوبية ، موضع ملاحظة الناس في كل العصور .

(٣٢) نجد في Oriental Repertory لد الريمبل مج ١ ص ٤٩ ، قائمة بأسماء الطوائف الهندوكية التي يحظر عليها تناول الطعام الحيواني من أى نوع كان ، وأسماء من يسمح لهم بتناول أنواع معينة منها . ويذكر بين الأخيرة « البرهمانيين المحاربين » ، الذين يجوز لهم تناول السمك ، ولحم الضأن والصيد ، ولكن ليس الطير ، وكذلك طائفة « الراجاوات » ، ومع ذلك فلا يسمح لأى واحد من أية طائفة بتناول لحم البقر (كما هو المعتقد بوجه عام) كما أن ذبح بقرة جريمة لا يعلوها سنوى قتل برهمانى .

(٣٣) وعليهم طبقا لقواعد دينهم أن يصلوا ثلاث مرات فى اليوم . . . وعليهم فى الحين نفسه التطهر بوضوئهم ، ، وإذا أتيت لهم الفرصة ، وجب عليهم إثارة مجرى ماء جار على الماء الساكن ، ولكن عليهم واجبا لا مفر منه هو الاغتسال قبل تناول الطعام » . انظر Hindoo Sketches مج ١ ص ٢٢١ .

(٣٤) هناك لوحة توضح طريقة صب الماء هذه فى الفم ص ٨٧ من Account of Ceylon تأليف كنوكس . فهو يقول ويكاد يكرر كلمات مؤلفنا : « وعندما يشربون لا يمسون الاثناء بأفواههم ، ولكن يرفعونه عن بعد ويصبون ما فيه فى حلوقهم وهذه الممارسة منتشرة أيضا بأقطار أخرى فى الشرق » . يقول كتاب Hist. of Sumatra : « وأثناء الشرب يمسون الاثناء على وجه العموم (وهو فى العادة يقطينة أو قرعة) على مسافة فوق الفم ويتلقون السائل وهو ينصب ، حيث ينزل رأسا الى المعدة بغير عملية بلع » . الطبعة الثالثة ص ٦١ .

(٣٥) يذكر سونيرات (مج ١ ص ٢٥٧) حالة الأرذ المغلى الذى يوضع فى راحتي الشحاذ الذى ليس لديه وعاء يتلقاه فيه ، ولكن ليس من الأمور الغريبة أيضا أن يصب السائل فى كفى مثل ذلك الرجل ، الذى يقربهما تماما من فمه لهذا الغرض .

(٢٦) قام لودوفيكو بارثيما بتدبيج وصف تفصيلى لهذه العملية القانونية . يقول هاملتون : « ولديهم طريقة حسنة لاعتقال الناس من أجل الديون ، وأعنى بذلك ، أن يرسل القاضى إنسانا من العدول يحمل عصا صغيرة ، ويكون حادة حاد البراهمة ، فاذا وجد ذلك الشخص المدين ، رسم حوله بتلك العصا دائرة ، وكلفه ، باسم الملك والقاضى ، بعدم الحراك »

منها ، حتى يضر الدائن بالمدفع أو الضمان ، ولا يلقي المدين عقوبة أقل من الموت ، أن هو خرق محبسه بالخروج من الدائرة» . مج ١ ص ٣١٦ .

(٣٧) الكلمات الواردة في النص اللاتيني هي *Vini usus apud eos interdictus, est* ، كما أنه ليس من المحتمل أن يتحدث مؤلفنا عن خمر العنب ، وبخاصة بوصفه شيئاً محظوراً ، وذلك في بلاد لا تكاد تعرفها . فما عناه في هذا المكان وعدة أماكن أخرى التي استخدم فيها كلمة « الخمر » ، هو أى شراب مسكر ، ولكن بوجه أخص كل شراب يصنع بالتخمير من عصارة النخل ، وبالتقطير من تلك العصارة ومعها الأرض . يقول كروفورد : « لا يباح لهندوكي من الطوائف الأربع بحكم دينه أن يذوق أى شراب مسكر ، فلا يشربه إلا الغرباء والراقصون واللاعبون والتشندالا أو النبوذون » انظر *Sketches* مج ١ ص ١٤٠ .

(٣٨) مع أن بين الهندوك ملاحين ، وبخاصة في السفن التي تسير بين ساحل كورومانديل وأتشن ومضيق ملقا ، فإن الناس بميلهم الطبيعي ، يكرهون البحر ، وكذلك لا يستطيع أن يعلوه أشخاص ينتمون إلى أية طائفة محترمة بغير التعرض للتلجس من كل من ناحيتي الملامسة والطعام ، مهما تكن الاحتياطات التي تتخذ لتجنبه . ومع هذا فإن مؤلفنا يعزو كرههم للشعوب الماخرة للبحار ، إلى الرأي السائد بينهم بأنه ما من أحد سوى أرباب الحظوظ المحفوفة بالتهور والأخلاقيات المنحلة يكرس نفسه لمهنة ، يضحي فيها بالراحة البيتية وتتعرض فيها الحياة للمخاطر ، طلباً لمصلحة لا تقوم على أساس وطيء .

(٣٩) لا شك أن الموسم المطير الموصوف هنا هو الذي يسود منطقة ساحل مالابار .

(٤٠) ان كلمة تشوباتش أو كوباتش (ولعلها أصابها) كثير من التحريف) ، ليست مما يجوز اعتباره من المصطلحات التنجيمية البربرية الخاصة الشائعة بجنوب الهند . يوجد عند شعوب الناشترون واليوجون والتدين واللاكينون والكارينون ، وكذا أيام الأسبوع - (كما يخبرنا سونيراه) - « ما هو خير وما هو شر » . « ولم أستطع قط أبداً معرفة واحد منها . وليس برام سوى بوجوني وكارينوني » . « والأيام الطيبة والسيئة والساعات المشئومة أو المسعودة والعودة من رحلة وشفاء مريض ، وفقد بعض المئاع بل الواقع أن كل شيء يتيح للناس متادة يلجأون بها إلى العرافين » . ص ص ٣٠٥ - ٣١٣ .

(٤١) ان التقسيم الكنسي للنهار المسمى بالتيرس أو السباعة الثالثة (*Hora tertia*) كان يبدأ في - الساعة التاسعة صباحاً ،

ويستمر حتى الثانية عشرة وكانت صلاة العصر None تبدأ في الثالثة بعد الظهر . فأما صلاة الضحى Mi-tierce (وهي Mezza-trrsa أو في اللاتينية Media-tertia) ، فليست مثبتة في القوائم النظامية لساعات الصلاة الكنسية ولكن يمكن السطن بأنها تقع في موقع وسط بين الساعة التاسعة Tierce وبين الثانية عشرة Sext .

(٤٢) والكتب المتحدث عنها هنا هي تقاويم ، تسمى « بانجانجان » بلغة التامول .

(٤٣) كانت الطريقة الهندية القديمة لتقدير الارتفاع الزاوى للشمس وخط عرض مكان ، هي قياس طول الظل الذى يسقطه شاخص عمودى ذو ارتفاع محدد ، أو غياب ذلك الظل عندما تكون الشمس في سمت الرأس . وعلى أساس هذا المبدأ ، يستطيع الانسان ، في المناطق الواقعة بين المدارين وبخاصة قرب خط الاستواء ، أن يصدر حكما صائبا بدرجة مقبولة على الساعة من النهار ، وذلك بملاحظة ظله هو نفسه ، وهو ظل ، ينبغي أن يبين متى كان مساويا لارتفاع قامته ، أن الارتفاع الزاوى للشمس هو ٤٥ درجة ، فتكون الساعة تبعا لذلك هي الساعة صباحا أو الثالثة بعد الظهر .

(٤٤) يقول باربوزا :

« Come passano dieci anni, vanno facendo il medesimo come li pardi, di andar comprando monete piccole. et imparare il mestiere ».

(ورقة ٣١٠ - ١٢) .

(٤٥) ربما بدا في هذا التأكيد شيء من المبالغة في التعميم ، ولكن يبرره الى حد كبير مشاهدات الدكتور ف . بوكنان ، الذى يخبرنا انه لا الخيل ولا الحمير ولا الخنازير ولا الشياه ولا المعز ، تربى في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة ، أو على الاقل ان عددها ضئيل تماما لا يعتد به ، وان الاهالى الاصليين ليس لديهم دواجن ، ولا حتى الدجاج العائدى وكذلك الأوز والبط والديكة الرومية ، ان أنها ادخلها الأوربيون الى هناك » .
مج ٢ ص ٣٨٣ .

(٤٦) والخفافيش هي Vaspertilio vampyrus في تصنيف ليناوس عالم النبات السويدي وإمتداد أجنحتها أربعة أقدام ، فأما الثانية وهي (نسور بونديتشيرى الملكية ، فان ظهورها وبطونها وأجنحتها وذيولها سوداء) .

انظر : Sonnerat مج ٢ ص ١٨٢ .

(٤٧) ان هذا البيان عن الاناث اللائى يلحقن بخدمة المعابد ويسهمن ببيع أجسامهن فى البغاء بقصد جلب الايرادات الى تلك المؤسسات ، ربما أمكن أن يلقى التعزيز الكافى من أسناد كثيرة .

(٤٨) ما يوصف هنا هو « الناموسية » أو الكلة التى تصنع من نوع من الشاش ، وتصمم بحيث تبعد فعلياً البعوض وغيره من الحشرات الطائرة . والأشباه والبراغيث المذكورة فى نص راموسيو (ولكن ليس فى النص اللاتينى) لا بد وأنهما من نسج خيال بعض مترجمى مؤلفنا الأذكىاء .

(٤٩) تشيع بين الأهالى فى بنارس ومدن أخرى قديمة ، تضيق فيها الشوارع الرئيسية ، وتتحدد فيها حركة الهواء ، أثناء الجو الحار عادة اخراج فرشهم الى خارج البيوت ، والنوم مع عائلاتهم فى الشوارع العامة .

(٥٠) يبدو من هذه الفقرة أن مؤلفنا اعتبر مملكة المعبر ، أنها تمتد من الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة ، بامتداد ساحل كورومانديل . بقدر مدى انتشار لغة التامول ، التى تمتد قليلاً شمال مدينة مدراس : وهى منطقة يسميها الجغرافيون الهندوك درافيدا ديزا . فان صح هذا التمييز ، فربما أشار الى منطقة ماراثار الصغيرة أو ماراوار قسرب الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة .

(٥١) المكان المتحدث عنه هنا ، هو المدينة الصغيرة سان توميه ، التى تقع جنوب مدراس ببضعة أميال ، حيث تشاهد ، على جبل - كما يسمونه - أو قل صخرة مرتفعة (وهى تسترعى الأنظار أكثر لاختلافها عن الاقليم المجاور المسطح فى جملته) ، كنيسة مسيحية قديمة . وكانت فى قديم الزمان مدينة لها بعض الشأن ، ويسميها الأهالى مالياپور ، أو ربما مائلا بور بتعبير أصح . ويسميها العرب بيت توما أى كنيسة توماس .

(٥٢) لو سلمنا بصحة قراءة هذه الفقرة فى نص راموسيو ، وجب أن يلاحظ أن اسم أنانياس ، ليس له فى العبرانية ولا الغريزية نفس المعنى المعطى له هنا ، ولكن الشاهد الباطنى يؤيد قراءة أخرى باللغة الاختلاف ، تقدمها لاتينية طبعة بال ، وقد ورد فيها ما يلى :
Incolae regionis illius dicunt Apostolum probhetam magnum fuisse, vocantque eum Avarijam, hoc est sanctum virum .

وهنا يذكر أن الأهالى الهندود - وليس المسلمون - هم الذين أطلقوا على القديس توما اسم « الشخصىة المقدسة » ، ونجد فى كتاباتهم أن كلمة « أفيار » هى لقب فيلسوف تامولى شهير .

(٥٣) يلاحظ هذا الحجج كل من كتب في موضوع مسيحي شاطئ
مالابار أو القديس توما .

(٥٤) الشائع أن الجانب الشرقي من شبه الجزيرة كان يحكمه
تلك الفترة ملوك نارسنجا ، التي كانت فيجا ياناچارا قصبية لها ، أو بتعبير
اللهجة العامية الحوشية بيجانا چار ، بيد أننا نعلم من أبحاث الدكتور
ف . بوكافان أن المدينة الشهيرة المسماة بهذا الاسم لم تؤسس حتى عام
١٣٣٥ ، وأن الجزء الجنوبي من الساحل (الذي يسميه الجغرافيون
الهنود درافادا) ، كان خاضعا لأمراء ، مقر حكمهم ووراجولا (وارانكول
لدى المسلمين وورنجول في خرائطنا) ، وهي المكان الرئيسي في أوتلنجانا .
وكان اسم الملك الذي حكم في المدة من ١٢٦٨ إلى ١٣٢٢ ، التي تضم
السنة المذكورة في النص ، هو پراتابا روبرا ، ومما يستحق الملاحظة ،
أنه حدث في ١٣٠٩ ، أي بعد حوالي ستة عشر عاما بعد زيارة مؤلفنا
لهذا الجزء من الهند ، أن غزت جيوش علاء الدين ، امبراطور دلهي المسلم ،
مدينة تلنجانا ، واضطرت راجا ووراجولا أن يصبح تابعا له . ومع هذا
فربما كان كل هذا حدث هو أن هذا الأمير المتحدث عنه هنا ، لم يكن إلا
راجا ، حكم الاقليم تحت هيمنة مولى أعلى .

(٥٥) يرجح أنه ينبغي لنا بدلا من غروت أن نقرا فانام (Panam)
وهو العملة المتداولة بهذا المكان ، وتقدر قيمتها ببينسين ونصف البينس .
وذلك يجعل الضريبة السنوية شلنين ونصف . وفي سومطرة يقدر إنتاج
شجرة جوز الهند بوجه العموم بدولار اسباني أي ما يقارب خمسة
ثلاثينات .

(٥٦) يكتب باولينو موضحا التعليل الهجائي والتاريخي لأصل
أسماء الأماكن في هذا الجزء من شبه الجزيرة الهندية قائلا :
« Mailapuri o Mailaparum, città de paroni, Mèliapui ost. Tomò degli
Europei ».

فلو سلمنا بصحة هذا التفسير ، فربما جاز لنا التساؤل ، إذا كانت
الأسطورة التي فيها الطاووس ظاهرة شديدة البروز ، لم يقترحها اسم
المكان نفسه . علما بأن الطائر نفسه موقور الكثرة ببلاد الهند .

(٥٧) لا شك أن السكان الأصليين بالجزء الجنوبي من شبه الجزيرة
أقرب ، بلون بشرتهم ، بفرط التقاطع على وجه العموم ، ولذا فالراجح أن مؤلفنا
أخطأ في ظنه أن هناك أي شيء متشابه في درجة سوادهم . فاما عادة
ذلك أجسام أبنائهم بالزيت فربما الخرخي منها أشياء أخرى . والواقع
أنه جرت العادة في معظم أجزاء الهند أن الناس من جميع الأعمار كثيرا
ما يمسحون أجسامهم بالزيت .

(٥٨) الأشيع فى الأوثان الهندوكية أنها اما أن تكون من النحاس ، أو متى كانت كبيرة من نوع من الجرانيت الأسود ، ولكن مهما تكن المادة المصنوع منها الوثن ، فإنها جميعا تكتسب لونا سناجيا من دخان المصابيح أو البخور المحترق داخل المعابد ، وكذلك من عادة مسحها بالزيت . كانت فكرة رسم الشيطان أبيض عند أفراد الجنس البشرى الذين هم فى عهد ذاتهم من السود ، شائعة جدا ، وربما أمكن تمييزها بأمثلة معينة من أسورات (Asûrs) أى أبالسمة الميثولوجيا الهندوكية التى يتم تصويرها على هذا اللون ، على أنه ليس بتلك الميثولوجيا شخصية تتقابل ووصف الشيطان أو إبليس ، ونقرأ فى النقصن الرومانسية الفارسية عن ديف ستيقيد أى الشيطان الأبيض ، وهو شخص شهير لرستم .

● هوامش الفصل الحادى والعشرين

(١) المملكة التى تسمى هنا مورفيلى او مونسول (ولعل ذلك بدلا من مونسول)، وهى فى طبعة بال مورفيلى، وفى مخطوطى المتحف البريطانى ومتحف برلين مورفيلى ، كما أنها فى النسخة اللاتينية الباريسية مولفولى ، بدلا من مونسولى) ولكنها محذوفة حذفًا تامًا فى الخلاصات ، ليست فى الواقع سوى موتشلى باتان ، أو كما تسمى على نحو أشيع ماضولى باتام وهو اسم مدينة قصبية ، حلت — بغلطة ليست نادرة فى الكتاب — محل اسم الاقليم — يقول رنل : « ان هذه مدينة وميناء قرب مصب نهر الكستنا ، ويبدو أنها تقع داخل المنطقة التى اسمها بطليموس الجغرافى ميسوليا » . انظر : (*Memoir* ١٧٩٣ ، ص ٢١٠) وهى تتبع ما كان يسمى فى احدى الفترات مملكة جولكوندا ، التى كان اسمها فى زمن أشد قديمًا تلنجانا ، أما فيما يتعلق بالمعبر فان مؤلفنا غير متناقض مع نفسه (مهما يكن الظن فى صحة جغرافيته) ، وذلك لأنه أنبأنا بالفعل أنها تضم المكان الذى دفن فيه القديس توما ، غير بعيد من مدينة مدراس العصرية . وواضح أنه كان يعدها تمتد جهة الشمال بامتداد المنطقة التى يتكلم فيها الناس بلغة التامول ، أى بعبارة أخرى الى الخط الذى يبدأ عنده نهر التلنجا (قرب نهر بنا) ، الذى ستجد أنه يبعد أقل قليلا من خمسمائة ميل من رأس قومورين . والحق أنه ليبدو أنه محتمل جدا أن اطلاق اسم المعبر على هذا الجزء من ساحل كروماندل ، ربما كان مرد ظهور عادة الخلط عند الأوربيين (الذين كانوا يخلطون بين الكلمتين) من حيث تسمية سكان الجانب الشرقى لشبه الجزيرة باسم خاطيء هو الملاباريين .

(٢) تشتهر جولكوندا ، التى ميناؤها الرئيسية هى ماسوليباتام ، بانتاج الماس .

(٣) يقول تافارنييه متحدثا عن مناجم سمبهولبور ، الواقعة فى جزء آخر من الاقليم ، : « اليكم الطريقة التى يبحث بها عن الماس فى هذا النهر . فبعد أن تنتهى الأمطار العظيمة ، وهى تهطل عادة فى شهر ديسمبر ، ينتظر الناس أيضا شهر يناير بأسره ، حتى تصفو مياه النهر ؛ لأنه فى ذلك الوقت توجد أماكن كثيرة ، لا يتجاوز العمق فيها قدمين . فيبدأ الناس فى البحث عن النهر بمدينة سومبلور ، ويتجهون دائما صاعدين حتى الجبال التى ينبع منها النهر » . (انظر : *Voy. des Indes*) مج ٢ ص ٣٤٦ ، وعلم المستر توماس مور الذى زار هذا المكان فى ١٧٦٦

من شخص يقيم بنفس المكان بأن « عمله هو البحث في النهر بعد الأمطار ،
عن الثرى الأحمر المجلوب من الجبال ، وهو الثرى الذى كان الماس يعثر
عليه فيه على الدوام » انظر Asiat. Miscellany ٢ ص ٥٨ .

(٤) هذه الرواية عن طريقة الحصول على الجواهر النفيسة من واد
لا سبيل الى ولوجه تتطابق والقصة المروية فى احدى مغامرات السندباد
البحرى بكتاب ألف ليلة وليلة . ومن المحتمل أن قصة وادى الماس كانت
دارجة بالهند واصقاع أخرى من عالم الشرق ، كما ان شدة قدمها
ثبتت بطريقة مرضية من الاقتباس التالى من ابيفانيوس :
« de duodecim lapidibus rationali sacerdotis infixis ».

وهو عمل كتب فى القرن الرابع للحقبة المسيحية :

« Ibn igitur in eremo magnae seythiae penitiori vallis est quae hinc
atque inde montibus lapidies veluti muris cincta ».

وهو يضيف التالى فى هامشة : « كان أبيفانيوس أسقفا لسلاميس ،
وتوفى فى عام ٤٠٣ » ويتحدث عنه كثير من رجال الكنيسة الكتاب
بعبارات ملؤها الاحترام الجم .

كما أن القديس جيروم يلقب الرسالة الصغيرة التى اقتبست منها
الفقرة السابقة « :

« egregium volumen quod si legere volueris plenissimam scientiam
consequeris. »

(٥) اشتهر ساحل كورومانديل فى جميع العصور بقيام أرق وأتقن
صناعة للمنسوجات القطنية مما أطلق عليه الأوربيون اسم العبك أو البقعة ،
كما تشتهر ماسوليياتام ، بصفة خاصة ، بالشيت (أو قمناش البضمة)
هنا تقول نسخة باريس اللاتينية :

« Item, in ista contracta de Molifili fit melior vochosame et magis
subtile quod sit in mundo. et magis eorum, et videtur tela
aranei ».

● هوامش الفصل الثاني والعشرين

(١) ليس بين الأماكن الواقعة على القارة الهندية التي لاحظتها مؤلفنا ، ما هو أبعد كل البعد من أن تعرف هويته عن طريق تشابهه في الصوت أو الحروف والهجاء ، من هذا الاسم الذي يدور حوله موضوع هذا الفصل ، كما أنه لا يبدو أنه زاره بنفسه فعلا . فان لاه أو لواله أو لار ، وهي الصورة المتنوعة التي يكتب بها الاسم في نسخة راموسيو ، ولاهية (Lahi) في الخلاصات الإيطالية المبكرة ، ولاثيه في طبعة بال ، ولاتش في اللاتينية الأقدم ، يقال أنها ولاية أو ناحية تقع إلى الغرب من المنطقة التي دفن فيها القديس توما ، ومن ثم يجب أن تكون هي الجهة التي تقع فيها مدينة أركوت (أروكاتي) ، وكذلك المعابد الشهيرة ، أو البادوجات في كونجيفرام (كانجيپورام) الشهير ، حيث توجد في الوقت الحاضر مؤسسة ضخمة للبراهمة . انظر : (بوكانان Journey from Madras, etc. مج ١ ص ١٢) . وسواء أوجدت أم لم توجد ، أية رواية تاريخية ، أو سجل يسجل أن هذه هي النقطة التي انتشرت منها القبيلة المقدسة إلى كل أرجاء شبه الجزيرة ، فأمر نترك البت فيه لغيرنا ، ولكننا نعثر في الخريطة المرافقة لكتاب دانفيل Antiquité de l'Inde على كلمة براتشمية (استنادا إلى بطليموس) موضوعة قرب أركاتيس ، وفي موقع كونجيفرام ، التي تقع غربا على بعد يقارب الأربعين ميلا ، بميل إلى الغرب من مدينة سانت توميه . نلتقي أيضا في نص هذا الجغرافي العظيم بالفقرة التالية : « أن المجوس البراهمة ومدينتهم المسماة براشمية بين أركات ، والبحر في كتاب بطليموس ، تركن أبصارنا على مدينة كانجييه قارام ، تقع تقريبا بدرجة متساوية وعلى ما يقارب عشرة فراسخ من كل من أركات والبحر على السواء ، وفيها يحتفظ البراهمة بوحدة من أشهر مدارس مذهبهم » . ص ١٢٩ .

(٢) ربما بدت حرف كهذه غير متمشية مع الصفة المقدسة المظنون أن هذه الطائفة تتصف بها ، بيد أن لدينا أسنادا كثيرة تظهر لا أن البراهمة ليسوا مقتصرين بالضرورة فقط على وظائف الكهانة ، بل أن كثيرين منهم يعملون في أشغال دنيوية بحثة .

(٣) ربما لم يمل كثيرون إلى الاقرار بهذه الصفة الطيبة لهيئة البراهمة ، ومع هذا فليس مؤلفنا هو الوحيد في رأيه في فضائلهم . يقول مور : « أن البراهمة ، على وجه الجملة ، فيما أظن أشد من لقيت

من أجناس الناس تمسكا بالأخلاق وأفضلهم سلوكا . » انظر :
Hindu Pantheon ص ٣٥٩ . ويلاحظ المؤلف المتحرر لكتاب
الآيين الأكبر : « وموجز القول أن الهندوك متدينون ، ذوو بشاشة
ولطف ، مع التأدب مع الغرباء ، مرحون ، مولعون بالمعرفة ، مفرمون
بانزال ألوان التقشف بأنفسهم ، محبوبون للعدالة ، مبالون إلى العزلة ذوو
اقتدار في العمل ، شاكرون للجميل ، معجبون بالصدق ، أصحاب أمانة
وفاء لا حد له في كل معاملاتهم » . (مج ٢ ص ٢) . ويضيف هذا الكاتب
المسلم نفسه : « لا بد أن نتذرع بالانصاف فنقرر أن من يكرسون منهم
حيواتهم لعبادة الهيم يفوقون رجال كل ديانة أخرى (وهو قليل الدراية
بالمسيحيين) في التقوى والقنوت » . ص ٨١ .

(٤) يقول باربوزا :

« Questi bramini, e cori parimente brancani (baniani), tolgano moglie
all'usanza nostra, et ciascuno piglia una sola, et una volta
solamente ».

(الورقة ٢٩٥ - ٢) .

ولم أتمكن من أن أكتشف ، في كتاباتنا العصرية في موضوع هيئة
البراهمة ، ولا في ترجمات السنن الهندوكية ، أى تأكيد مباشر بأن تعدد
الزوجات محرم لديهم ، وأنه يجب على البرهمن أن يكون زوجا لزوجة
واحدة ، وان كان من الأمور الضمنية الشائعة الراسخة في الأذهان ،
وبخاصة في « نظم مينو » ، أن من اللياقة الامتناع عن التزوج ثانية ، متى
توفيت الزوجة الأولى .

(٥) يبدو أن بعض هذا الوصف ينطبق على طبقة من الناس مشتغلة
بالتجارة تماما ، وهناك أسباب كثيرة تدعو إلى الاعتقاد بأن مؤلفنا لم
يعالج في هذا الفصل ، شأن البراهمة فقط ، بل وأيضا طبقة من التجار
البانيانيين أو البانياني Baniani حسب الكلمة الإيطالية ، وهي كلمة
اقتطعت الأمر فيها على مترجميه فظنوها خطأ نفس كلمة البراهمة .

(٦) يلاحظ المستر ولكنز في هامشة في ترجمته للهيثوياديزا
Hitopadesa . « أنه وإن لم يقتصر البراهمة بأية حال على تناول غذاء
نباتي بحت ، كما يظن الناس بصفة عامة ، فإنهم ، شأن اليهود
والمسلمين ، محرم عليهم تناول أنواع كثيرة من اللحم والبنسج » .
(ص ٣١٨) . وبدهى ، أنه لا بد أن هذا ينطبق بوجه أعم وأوسع
على الطوائف الدنييا .

(٧) يقول كراوفورد : « أن » الزنار « أو الخيط المقدس يعلق حول
الجسم من الكتف اليسرى » . انظر : Sketches مج ٢ ص ٤١ .

(٨) ان كانت هذه حقاً مملكة منفصلة ، فلا بد انها كانت مع ذلك ذات تبعية لملك تلنجانا ، الذى ورد ذكره فى سامشة سابقة ، والذى يبدو أن ممتلكاته ، بعد أن غزاها امبراطور دلهى الباتانى ، قد اندمجت فيما بعد فى ممتلكات ملك نارسنجا الهندوكى ، كما يسمونه عادة وهو الذى كانت عاصمته بيجانار أو فيجاناجارا .

(٩) عندما يشاهد هؤلاء الناس ظلمهم ، متى اوشكوا ان يعقدوا صفقة أو يقوموا بأى عمل آخر، فانهم لا يقصدون الا مجرد معرفة الساعة من النهار ، باستخدام زاوية ارتفاع الشمس ، ليحكموا اذا كانت موافقة أم هى بخلاف ذلك .

(١٠) المقصود هنا من التركيب المسمى بالفوفل أو الكوثل ، المكون من ورق نبات الفوفل أى جوز الأريكة Arca Nut ، وجير الصدف المكلس ، الذى هو معروف جداً لدى العموم ، بحيث لا يحتاج الى مزيد من وصف .

(١١) اسم تنجوى هذا ، الذى هو فى خلاصة البندقية الباكورة كويجنى Cuigni ولكنه لا يبدو فى الترجمات لا شك أن المقصود به هو الفلاسفة الزهاد ، أو كما قد يسميهم آخرون المتسولين الدينيين ، الذين تسمى طبقة منهم باسم جوجى أو يوجى ، وطبقة أخرى باسم سانياس وكثيراً ما يسمون أيضاً باسم « الفقراء » ، ولكنها تسمية خاطئة ، نظراً لأن تلك الكلمة ينبغى ألا تطلق الا على المتسولين المسلمين .

(١٢) ونتيجة لحالة العرى المطلق هذه ، أسماهم القدماء : الزهاد الباطنية أو الجنوزوفبستيين « Gymnesophists » . ويلاحظ كراوفورد أن « كالانوس » الذى أحرق نفسه بحضرة الاسكندر ، أسماه بعضهم بالبرهمانى ، ولكن من الواضح أنه كان أحد أولئك المتبتلين الذين يجولون بأرجاء البلاد . ويقال انه كان يسير عارياً ، أما البراهمة فانهم لا يسيرون عراة على الإطلاق ، ولا يرتكبون أى عمل من أعمال الاسراف ومجاوزة الحد . (مج ١ ص ٢٤٧) .

(١٣) يوضع الثور موضع التمجيد عند السايفا Saivas بوجه خاص ، وهم الطائفة التى تعبد سيفاً وبهوانى ، الذى يعد ذلك الحيوان لديهم مركباً أو محملاً (أداة نقل) أى فاهانا أو مونتور ، ولكن الشيء الذى يرتدونه بصفة عامة أكثر ، ومعلقاً فى أعناقهم ، ليس تمثال لنجاويونى ، الذى ربما حمل الحياء ورقة النفس مؤلفنا أو مترجميه على العزوف عن وصفها . (انظر Asiat. Res. مج ٧ ص ٢٨١) ، ويقول باولينسو :

«Lingam o fallo del dio Shiva, simbolo della virtù generativa del sole. Alcuni lo portano al collo, altri al braccio, altri, dipinto sulla fronte».

(ص ٣٠٠) .

(١٤) تتميز جميع طوائف الهندوك المختلفة بعلامات خاصة تجعل على الجبهة والصدر . والأشيع كثيراً أن الرماد المستعمل في التركيب المستخدمة في عمل هذه العلامات أو رسمها ، متخذ من جلة البقر ، أو من أية مادة تحرق على الموقد القرباني وهو ما يخلطونه أو ينوعونه بإضافة تراب خشب الصندل فضلاً عن عناصر أخرى يقول مورو: «بالإضافة الى الجبهة ، يلاحظ أن الهندوك يضمخون أذرعهم وصدورهم أيضاً ، وكذا نحورهم أحياناً . فمسحوق الصندل ، والكركم ، والشونا أو الجير ، ورماد نار قربان ، وجلة البقر ، وغيرها من المواد المقدسة القابلة للاشتعال ، مع جعلها دبة بالمادة اللزجة في ماء الأرز ، أو دلكها جافة في بعض الأحيان ، هي العناصر والممارسات التي تجرى في هذه المناسبة . فالشائع أن تشاهد مرسومة على الأذرع والصدور عدة خطوط ذات لون رمادي فاتح أو صباغ أصفر ، كما انى أفهم أن طائفتي اليوجي والسانياس وغيرهما من الأشخاص الأتقياء ، كثيراً ما يحملون معهم ويطلة صغيرة من هذه الأصباغ المقدسة ، يضمخون بهم من يقدمون اليهم الاحترام في مقابل اهتمامهم بهم . » انظر Hindu Pantheon ص ٤٠٩ .

(١٥) ان موزة الجنة (Musa Paradisiaca عند لينابوس ، التي كانت تسمى فيما سلف Pomum paradisiacum أى تفاحة الفردوس) تسترعى الأنظار بحجم ورقتها ، التي جرت عادة الأهالي باتخاذ جزء منها يضمخون فيه أرزهم المسلوق .

(١٦) ويكثر من يسكنون على بعد من البحر من ارتياد الشواطئ الرملية للأنهار الكبرى لنفس تلك الغاية وفي أعداد غفيرة في وقت واحد ، بصورة تجعل الأمر مسترعياً للأنظار .

(١٧) يذكر كتاب عديدون براهين قوية ، تؤيد ما يريم على حياتهم بعمامة من تقشف ، بقدر ما تؤيد عفتهم بوجه خاص ، أو درجة كبح هؤلاء اليوجيين أو السانياسيين للمشاعر الحسية ، (انظر ثيبينوه Voy des Indes مج ٣ ف ٦ ، وانظر جروسي في : Voy to the East Indies مج ١ ص ١٩٦) . أما فيما يتعلق بطول عمرهم فمن العسير الوصول الى ما يؤيد ذلك ، ولكنه شيء له دلالة ضمنية قوية في الآيين الأكبر ، حيث ورد فيه في وصف الـ « جهار أشيروم Char asherum » ، أى

الدرجات الهندوكية الأربع ؛ وقساوات نظام الرهاده ، المعصوره عاده على المرحلة الرابعة أى الأخيرة : « أن بعضهم يقوم بهذه التقشفات كلها فى الدرجتين الأولى والثانية ، وبعضهم يسمح بخمسة وعشرين عاما لكل حالة من هذه الحالات » . - مج ج ٢ ص ٢٢٢-٢٢٥ . (وهنا تضيف النسخة اللاتينية من ماركو بولو :

« Dormiunt nudi in terra, nullum habentes vestitum infra nec supra, et hoc est mirabile quomodo sani evadunt, et toto anno jejunant, nec comedunt aliquid aliud nec bibunt quam panem et equam, et habent suos regulares qui custodiunt idola. Et quando volunt probare quod isti sunt boni et honesti ».

● هوامش الفصل الثالث والعشرين

(١) من الأمور المألوفة النظم أن الجبل الشاهق والعجيب القائم في سيلان ، والمعروف باسم قمة آدم ، اكتسب تلك التسمية من الملاحين البرتغاليين أو غيرهم من الأوروبيين ، بيد أن لدينا من الشواهد ما لا يتطرق إليه شك ، بأنه مهما تكن تسميته عند السنجاليين ، أو حيرانهم الهندوك ، فإن المسلمين ، ظلوا منذ أمد قديم جدا يربطون بينه وبين أسطورة النبي آدم واسمه ويقرر سيل : « يقول المسلمون ، أنها لما أخرجوا من الجنة ، سقط آدم على جزيرة سيلان أو سرنديب ، وسقطت حواء قرب جدة ببلاد العرب » . القرآن ، ص ٢٥ هامشية .

(٢) المقصود من الشخصية المقدسة الموصوفة هنا هو بوذا مؤسس نظام السنجاليين singalese الدينى ، الذى يشتهر فيما يحمل من عدد كبير من الأسماء ، التى أطلقت عليها أخذا من صفاته المظنونة ، باسم سাকা أو ساكيا موني ، ومعناها « الحكيم الأريب » ، وأضاف مؤلفنا إلى هذا الاسم كلمة باركهان : بدلا من بوركهان ، ومعناها « الإله » بلغة القطار المغوليين ، ويبدو أنه لا مبرر للشك فى أن الإمبراطور قبلاى ورجال بلاطه ، الذين كانوا هم وشعب سيلان على حد سواء ، يعترفون بالوهمية بوذا ، كانوا يدعونه باسم « ساكامونى بوركهان » الذى صنف هنا إلى سوجومون باركهان : ولدينا من عبادته فى هذه الجزيرة شواهد كافية ، يقول فوكس بعد الحديث عن خالق السموات والأرض : « هناك رب عظيم آخر ، يسمونه بودو » وهو الذى يرجع إليه خلاص النفوس : وهو فيما يعتقدون جاء مرة إلى الأرض : وهو قد رحل عن الأرض من قمة أعلى جبل فى الجزيرة وهو المسمى بيكو آدم : وبها يوجد أثر يشبه القديم يقولون أنه أثر قدمه » . (انظر Relation of Ceylon ص ٧٢) . ويقول كوردنر : « يشيع الاعتقاد بأنه يوجد على قمته (وهى قمة آدم) ، حجر مخفور ، يسمى بأثر قدم بوذا ، ويشبه من بعض النواحي أثر الإقدام الموجودة بمملكتى آفا وسيام . (انظر Description of ceylon ص ٨) ومن هنا يتجلى أن ما يعتقد المسلمون حول آدم ، ينسبه الهندوك إلى بوذا .

(٣) تقول بعض الروايات ، وخاصة منها ما هو جدير بكل اعتبار ، أن مسقط رأسه هو جايا ، بولاية باهار ، أو كيشمير فيما يقول آخرون .

ولكن لا تعوزنا الأسناد (ان أمكن تسميتها بهذا الاسم) ، التى تقول :
 انه من أهالى سيلان . يقول المسيو لالوبر ، متحدثا عن معبودات سيام ،
 وهم دون وراء البوذا أو ساكيامونى عند أجزاء أخرى من الشرق : « ان
 أبا سومووثوسودوم » ، كان ، حسبما يروى ذلك الكتاب نفسه - بالى
 Bali ملكا على تيف لانكا ، أعنى أنه كان ملكا على سيلان الشهيرة .
 (انظر Du. Roy. de Siam مج ١ ص ٥٢٥) . ويقول لاکروز : « وفيما
 يتعلق بشخص زاکا Xaca الذى سمي صنمه باسم قوى Foe
 بعد تأليهه ، فإنه من أهالى الهند ، كما أنه حسب الشعور الأشد رسوخا ،
 مولود بجزيرة سيلان » . (انظر : Hist. du Christ. des Indes
 ص ٥٠٥) .

(٤) هناك درجة من الصحة الدقيقة فى هذا البيان حول محاولات
 الأب اقراء ابنه بالعزوف عن حياة الاعتزال التى كرس لها ذاته ، لمن تكون
 دهشة القارئ لها قليلة عندما يطلع على فقرة فى كتاب « بيان تجسد
 بودهو Boodhu » ، الذى ترجمه عن اللغة البورمانية المسترف . كارى
 والذى قدمه للعالم ، فى سيرامبهر بالبنغياهل ، المسترف . و . وارد
 بارسالية ، البشرين العمدانين فى كتابه :
 « View of the Hist. Literature and Relig. of the Hindoose » .

« فأما الملك فإنه بعد التأمل ، وغيره قال : « يا بنى سأهبك فيالة
 الفيلة وراكبة العجلات ، والخيالة ، والمشاة المصففين ، مع الخيول
 البهيجة وسأهبك كذلك العذارى المزدانات بكل أنواع الحلى ، فأتنا منهن
 بالذراى ، تصبح ملكنا المطاع . بفتنتهن العذراوات - المجيدات لفنون
 الرقص والتشدد ، والمتقنات للمهارات الأربع . فماذا تفعل هنا فى هذه
 البرية؟ » ولكن يظهر اعراضه عن الملكة ، أجابه موهاسوتوو (مهاساتوا :
 القديس الكبير) ، « ياسيدى ! لم تغرينى بثروة زائلة ، وجمال فان (ميت) ،
 وريعان شباب ؟ أيها الملك ! ما الحب ؟ وما النظرة الممتعة ، والابتهاج
 الوقتى ، والقلق فى نشدان الثروة والابناء والبنات والزوجات ، لدى
 أنا الذى أطلق سراحى من أسار الخطيئة ؟ انى لأعلم أن الموت لمن ينسانى
 واذن فما جدوى السررات والثروات ؟ لا فلتعد ، فلتعد أيها الملك ! ..
 فلا رغبة لى فى الملكة . » (ص ص ٤٠٧ - ٩) يقول الآيين الأكبرى :
 « الذى حدث فعلا وبنفس الطريقة ، وبالضبط فى نفس الميعاد الذى تنبأ
 به المنجمون ، انه حول وجهة عقله عن شئون العالم واختار حياة عزلة » .
 « ومات فى سن العشرين بعد المائة » . مج ٢ ص ١٥٧ .

(٥) لاحظ كثير من الرحالة هذه الحجات . . يقول المستر دانكان
 فى ملاحظاته التاريخية عند ساحل مالابار ، متحدثا عن محادثة ملك

لتلك البلاد (أثناء حياة النبي محمد) نقلا عن رواية مؤرخ من الأهالي :
« انها تمت على يد جماعة من الدراويش من بلاد العرب ، رسوا في
كرانجلور من مدن جرانجانور ، (كانت آنذاك مقر حكومة مالابار) أثناء
رحلتهم لزيارة أثر قدم آدم الموجود على ذلك الجبل في سيلان ، الذي يعرفه
البحارة باسم قمة آدم » . تحت اسم « سريبود » أي القيم المقدسة -
بالمثل بإجلال الهندوك وليأذهم به « انظر : Asiat. Res. مج ٥ ،
ص ٩ » .

(٦) لم يرد أن هذه السفارة العجيبة ذهبت الى الهند بحرا . ومن ثم
فإن طريقها إما أنه كان من خلال ولاية يون نان الى البنغال ، أو عن
طريق التبت الى بلاد الهند وشبه الجزيرة ، فقد بلغ من عظم اتساع
ممتلكات الأسرة المغولية التترية ، في ذلك الزمان ، أنه ، حتى في التسيير
العادي للشئون السياسية ، اعتادت شعوبهم القيام برحلات بعيدة الشقة
طويلة الآماد . أما فيما يتعلق بالهدف من البعثة فإنها لا تعدم مثيلا
لها في تواريخ الأقطار الأخرى .

(٧) هذا الاحتفال المهيّب بإدخال مخالقات (مقدسة) الى قصر
الامبراطور ، ليس أيضا مجرد ظرف جديد في الحوليات الصينية . يقول
دوهالد متحدثا عن الأمير السابع عشر من أسرة تانج : « وفي السنة
الرابعة عشرة من حكمه أمر فنقلت بأبهة عظيمة الى قصره ، عظمة من
عظام الوثن فوئي » مج ١ ص ٤٥٦ .

● هوامش الفصل الرابع والعشرين

(١) ان تعنى كلمة كائل او كويل فى لغة التامول هو المعبد ، وهى تشكّل المقطع الأخير فى أسماء كثيرة من الأماكن التى تقع فى الجزء الأخير فى أسماء كثيرة من شبه الجزيرة . وكانت أيضا ، على أعم وجه : اسما لمدينة ضخمة وميناء للتجارة ، تقع فيما نسميه الآن إقليم تينيفلى ، وهى لا تبعد أميالا كثيرة عن نوتاكورين . ويمكن مراجعة موقعها فى الخريطة المثبتة فى كتاب فالنتين Beschryving van Choromander (مج ٥) ، حيث تدل على أهميتها القديمة ، ولكن نظرا لاختلافها عن الخرائط الحديثة ، فإنه يصح لنا ان نستنتج ان كويل باتنام لم يعد لها وجود بمدينة ، ونجى هذا فإنه يوجد فى مجموعة دار ليل « لتكرائط الموانى » ، خريطة كانت (نقلا عن فان كويلان) لا موقع كایل باتنام فقط ، بل وبورتو كایل ، ومكان يسمى كایل القديمة .

(٢) يبدو ان ملك نارسنجا او تلتانجا وضع الولايات الجنوبية من ممتلكاته المترامية تحت الحكم المباشر لأخوته العديدين ، الذين كانوا يمارسون السلطان الكامل للملوك داخل ممالكهم . ويرجح ان اسم استيار تصحيف ، ولكن البقايا المحببة للحوليات الهندوكية ، التى وصلت إلى يدنا ، لا تتيح الا اقل الفرص للتحقق من الهجاء الصحيح للكلمة . وسيتجلى ان هذا الجزء من البلاد ، انتزع فى زمن لاحق من قبضة ملوك نارسنجا على يد ملوك كولا او كولام Koulamor Kolam على ساحل مالايار .

(٣) هنا نجد ورقة التامول (اليقطين الهندى) مسماة باسمها الفارسى الحقيقى وهو القنبول .

(٤) ليس من غير المألوف لدى هؤلاء الناس ، بالاضافة الى العناصر العادية ، ان يمزجوا فى التركيبية (او التحويجة) حب الهال (الحبهان Cardamom) والعقول القابض Gutta gambir وعقاقير أخرى ذات نكهة عطرية وحريفة . غير انى على غير بينة ، من ان الكافور يمكن ان يستخدم اطلاقا على هذا النحو ، كما ان هذا غير محتمل بناء على خواص ذلك العقار . ومن ثم يمكن الظن بأنه جرى احلال اسم أحد عناصر التركيبية محل آخر ، وينبغى ان يلاحظ أنه فى لغة الملايو (التى كانت مألوفة

أكثر لدى تجار ساحل كورومانديل (في الأزمنة القديمة ، منها في زمننا
هذا) تطلق كلمة كابور Kapūr (وهي الكافور عند العرب) ،
ليس فقط على الكافور Camphor ، بل وعلى الجير الحي أيضا
(Calx viva) الذي هو عنصر جوهري في أعداد التنبول .

(٥) يصف ياربوزا بتفصيل دقيق ظروف هذه الممارسة القانونية
لللمبارزة ، حين يتكلم عن باتاكالا ، هي مكان على شاطئ مالابار المقابل ،
قرب أونوره .

● هوامش الفصل الخامس والعشرين

(١) كانت كولام وهى كولان فى خرائطنا، مكانا عظيم الشهرة عندما زار البرتغاليون الهند لأول مرة ، وتلقوا المساعدة من أمرائها على ملك قاليقوت ، أو الزامورين ، على ما كان يلقب . ويبدو أن أهميتها كموقع تجارى زالت فى العصر الحديث وحلت محلها أنجنجو الواقعة بالقرب منها . والاسم معناه فى لغة التامول الصهريج أو البركة أو الحوض . ومع هذا فمسالة البعد عن كائل تقارب مائتى ميل لا خمسمائة .

(٢) يقول أبو الفداء فى « تقويم البلدان » ، ص ٢٧٤ :

« Narravit mihi aliquis qui eo suscept iter ibi esse arborem ol Bakkami (seu Brasillam) cujus lignum smille sit lingo granati mali ».

وورد اسم خشب الصندل بكثرة أكبر باعتباره منتجا للجبال بالمناطق الداخلية من البلاد .

(٣) يقول باربوزا متحدثا عن كولام :

« Nasce in questo luogo, molto pepe, del quale se ne caricano molte navi ».

(الورقة ٣١٢ - ٢) لعل من نافلة القول الاكثار من عدد الأسناد بقصد اظهار أن الفلفل يزرع باقليم ترافانكور ، الذى تقع فيه كولام . ومع هذا فقد أخطأ مؤلفنا فيما يتعلق بالفصول ، وذلك نظرا لأنه على ساحل مالابار تزهى عرائش الفلفل حوالى شهر يونية ، وتنضج الثمار فى ديسمبر .

(٤) ورد هنا بيان صحيح بدرجة مقبولة عن خطوات العمليات البدائية لصناعة النيلج . فأما النبات نفسه فانه ينمو ، ويستخدم مادة صباغة بكل أرجاء الهند بلا استثناء تقريبا . ووردت الكلمة فى رامسيو والخلاصات endigo و endic (بدلا من endici) فى طبعة بال .

(٥) هناك من الشواهد القوية ما يحمل على الاعتقاد بأنه فى الزمان الخالى كان الصينيون يتجرون فعلا (بالتبادل مع العرب) ليس فقط حتى شبه جزيرة الهند ، بل وأيضا حتى الخليج الفارسى نفسه . وهذا الرأى يؤكد الدكتور روبرتسن الذى درس - الموضوع : انظر Hist. Disquisitions etc. ص ٩٥ . ويترك الرحالة العرب فى القرن التاسع ، بعض ظلال الشكوك مخيمة الى حد ما فى أن السفن المستخدمة فى التجارة بين

سيرافوكانتون لم تكن الا عربية صرفة ، وان سميت فى ترجمة رينودوت « سفنا صينية Vaisseaux Chinois » ، كما نسمى نحن السفن المستخدمة فى هذه التجارة نفسها ، باسم سفن الصين . بيد أن سند الاديسى الذى كتب فى القرن الثانى عشر ، يعد سنداً فى صميم الموضوع مباشرة . فهو يقول عن ميناء فى اليمن :

« Ex ipsa, solvuntur navigia Sindae, Indiae, et Sina-rum, et ad ipsam deferuntur vasa sinca »

(انظر Geographia ص ٢٥) (وهى بالعربية : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ») ، ونجد ما يؤيد هذه الحقيقة من جانب الصينيين أنفسهم فيما يروى ده جنى .

(٦) لاحظنا من قبل أن مؤلفنا يطلق فى جميع الأحوال اسم الأسد على الببر أو الفهد . وهو انما يعنى أن يتحدث عن الآخرين فى هذه الحالة الراهنة ، وان كانت الكلمة الواردة فى النص هى ليونى Leoni أى أسد . فأما عن وجود الببور السود أو الفهود فشىء لا مجال فيه لشك .

(٧) ربما كان المقصود بالطيور الموصوفة هنا هو الكوكاتوا واللورى والبيغاء Kokatua, Lury and Paroquet وان تكن الأولى ليست من طيور المكان الذى رآها فيه . وقد سبق أن ورد بالكتاب ذكر الطواويس وأنها طائر شائع بالهند فأما الدجاج المنزلى ، فان بالهند منه بعض أنواع أضخم حجماً بكثير مما يربى بأوربا - انظر Hist. of Sumatra ط ٣ ص ١٢٥ .

(٨) يرجح أن ما يسميه مؤلفنا هنا بالخمر ، انما هو كحول حاد ، يستخرج من السكر الخام المحبب تحبيبا غير كامل ، المسمى بسكر النخل الأسمر أو الجاجرى أو جاجورى الذى هو فى حد ذاته تكثيف للعصارة (طازجة أو مخمرة Tari or Toddy) المستخرجة من « نخلة Borassus flabelliformis » التى اسمها السوقى هو نخلة براب Brab palm فى شبه الجزيرة الهندية .

(٩) يقول لودوفيكو بارثيما ، متحدثاً عن رعايا ملك نارسنجا : « Il popolo minuto, vanno tutti nudi, salvo che intorno le parti inhoneste portano un panno ».

(الورقة ١٥٩ - ٢) . وهذه الطبقات العليا من الناس فى مالايالا (مالابار) ، يستخدمون أقل القليل من الملابس ، ولكنهم يحافظون على نظافة أجسامهم بصورة بالغة جداً : انظر بوكانان مج ٢ ص ٣٥٣ .

(١٠) مهما بلغت أخلاق هؤلاء القوم من الحسية الشهوانية بصفة عامة ، فانى لا أجد دليلاً مباشراً يثبت وجود زواج المحارم بينهم ، على

أنه يحتمل أنه نشأ شيء من الارتباك والخطأ في هذا الصدد عن بعض عادات غير مألوفة اختصوا بها ، وبخاصة طبقة النايير Nairs الذين يحترفون في غالب أمرهم حرفة الجندي . وطبقا لهذه العادات ، فإن ابن الأخت الكبرى ، وليس الابن ، هو الذى يرث أملاك أبيه ، أو هو الذى يؤول إليه التاج فى الأسرة المالكة . وهناك عادة ترتبط بممارسة أخرى ذات طابع شهوانى داعر نرى أنه ستفسرها على خير وجه كلمات الدكتور بوكانان ، يقول هذا المشاهد الفطن : وعندما تم حشد أعلى رجال النايير قدرا فى هذه الجيرة ، قدموا الى البيان التالى عن عاداتهم . فإن النايير أو كما ينطقونها بالجمع النايمار — هم طائفة السودرة الانقياء الدم فى منطقة المالايالا ، وهم جميعا يدعون أنهم يولدون جذدا مطبوعين ، ولكنهم مختلفون مراتب وحرفا . . . — « ويتزوج النايير قبل أن يبلغوا العاشرة . . . ، ولكن الزوج لا يعيش البتة بعد ذلك مع زوجته . والحق أن هذا يعد شيئا بعيدا عن الاحتشام . وهو يتولى منحها الزيت والثياب والزينة والطعام ، ولكنها تعيش بمنزل أمها ، أو تعيش — بعد وفاة والديها — مع اخوتها ، وتعاشر معاشرة الأزواج أى شخص تختاره من مرتبة معادلة لمرتبتها أو أعلى . وان هى ضبطت تمنح حبها الى أى رجل وضع ، عدت من المنبوذات . وليس ثمة عار على سمعة المرأة أن يقال عنها أنها كونت أوثق العلاقات الحميمة مع كثرة من الأشخاص ، بل الأمر بضد ذلك ، فإن نساء « النايير » يفخرون بأن يعددن بين محبيهين المقربين كثيرا من البراهنة والراجات وغيرهم ذوى المولد الرقيق » . « وأم الرجل تدبر شئون عائلته ، فإذا ماتت تولت الادارة محلها كبرى اخواته . ويكاد الأخوة أن يعيشوا جميعا على الدوام تحت سقف واحد ، ولكن متى افترق أحد أفراد العائلة عن سائرهما ، فإنه تصحبه على الدوام اخته المقربة اليه » انظر : Journey from Madras, etc. مج ٢ صص ٤٠٨-٤١٢ . وليس عجيبا فى مثل هذا الوضع المنزلى ، أن يشتبه مسافر ، لم يرزق وسيلة للبحث الدقيق فى أن بينهم اختلاطا جنسيا فى المحارم .

● هوامش الفصل السادس والعشرين

(١) ان كومارى Komari أو Comari كما تكتب فى الترجمة اللاتينية ، وهو اسم صحيح للنتوء الجنوبى الأقصى للهند ، الذى ذكره بطليموس بأنه Promontarium kamariae « الذؤابة الكامارية » والذى يسميه الأوربيون العصريون « رأس قومورين » . وتبعاً لاسير مؤلفنا من ساحل شبه الجزيرة الشرقى الى ساحلها الغربى ، كان ينبغى أن يكون هذا المكان موضع ملاحظته قبل مدينة كولام ، وهى قلة ذقة ربما نشأت عن تصحيف فى مواضع المواد غير المترابطة .

(٢) يبدو أن La tramontana أو Nostra tramontana تدل - كما ينبغى حقاً أن تفعل - على النجم القطبى الشمالى ، فى بعض أقسام الكتاب ، ولكنها تدل فى بعض أجزاء أخرى على مجموعة نجوم « الدب الأكبر » . ولما كانت المجموعة توصف هنا بأنها لا ترى الا جزئياً ، وجب بطبيعة الحال أن يكون المقصود هو المجموعة الأخيرة . وعندئذ لا يمكن أن تفهم ملحوظة مؤلفنا غير العلمية ، الا على فرض أن الدب الأكبر Ursa Major كان تحت الأفق ليلاً ، أثناء معظم الوقت المستخدم فى قطعه لهذه البحار ، وهو الوضع الجارى فى خطوط العرض الدنيا ، مدة تقارب ستة أشهر فى السنة . ويمكن تطبيق هذا الحل بالمثل أيضاً على فقرة فى بلينى المؤرخ (lib VI. Cap. 24) حيث ورد أن ملاحاً دفع الى المحيط الهندى ، ونزل فى هيبورى بجزيرة تابروبان - قرر عند عودته الى روما ، أن الدب الأكبر « Septemtrio » ، لم يكن يشاهد من الجزيرة ، ولكن ، ان كان المقصود أن ملاحظته تنصب على الدب الأكبر نفسه ، فربما أمكن أخذ العبارة بهذا المعنى . وهو أن النجم ، وان كان غير مرئى من جاوة الصغرى فإنه متى أصبح المرء على بضعة أميال من رأس قومورين ، (عند خط عرض ٥٨) فإنه (أى النجم) كان يمكن تمييزه أحياناً على ارتفاع قليل فوق الأفق ، حيث لا يشاهد بسهولة نجم من الحجم الثالث ، ما لم يكن الجو بتلك الجهة أوضح مما هو عادة . وطريقة تقدير ارتفاعه بالأذرع أو القامات بدلاً من الدرجات مهما تكن خشنة بدائية فإنها تبدو من رحلات كاداموستو Cada Mosto فى القرن الخامس عشر ، انها كانت لا تزال تستخدم .

(٣) أفضت عبارة هانومان - وهو قرد (أعلى) عاقل ومسل جدا - في الميثولوجيا الهندوكية ، وقد تمكن بجيش من أبناء جنسه ، من مساعدة راما في فتح سيلان ، بعد انقاذ حياة زوجته من قبضة رافانا ، معذبها ، الذي اختطفها - الى ظهور احساس بالتوقير نحو الجنس القردى كله ، وبوجه خاص ، نحو القردة العليا الأضخم حجما التى يقترب شكلها كل الاقتراب من الشكل البشرى . وكانت عاقبة هذه الخرافة هى أن هذا النوع ، نظرا لعدم تعرض أى انسان بالمضايقة ، صار يتكاثر بافراط شديد ، حتى غدا - مصدر المضايقة لسكان القرى . وقد حدس بعضهم على نحو مستساغ عقلا الى حد كبير - أن قردة جيش راما لم تكن فى الحق الا الجبابين شبه المتوحشين القاطنين بالاقليم المجاور لرأس قومورين .

● هوامش الفصل السابع والعشرين

(١) ان ديلى الواردة فى نسخة راموسيو ، وهى فى نسخة بال ايلى Elii ، وفى اللاتينية الأقدم هيلى ، وفى الخلاصة المبكرة للبندقية اللى Elli ، هى جبل ديللا بالخرائط الانجليزية وديلى بالخرائط الهولندية ، ويقع تقريبا على خط عرض ١٢ شمالا ، حيث تنتهى طبعا لما أورده باولينو ، الذى يسميه مونت ديللى - منطقة مالابار أو مالا يالا ؛ وتبدأ منطقة كانارا . ومع هذا فان بوكانان يمد حدود مالابار الى نهر كهندراجيرى ، الذى يقع على نصف درجة أعلى شمالا من جبل ديللا ، الذى يصفه بأنه : « تل تفصله عن القارة أجوان مالحة المياه ، ويشكل بالنسبة للساحل نتوءا عجيبا ، اسمه بلغة الأهالى - فيما لاحظته - مفرط الصعوبة ؛ ولا يكان يستطيع أوربى نطقه ، ولا يمكن كتابته بحروفنا - (اللاتينية) . وهو يشبه فى الصوت قولك ييساوى مالاى Yesay Malay »
مج ٢ ص ٥٥٩ .

(٢) النهر المذكور هنا ، يصب مياهه رأسا الى الجنوب من جبل ديللا ، غير بعيد من كانا نور ، بعد مروره باقليم الراجات الكهريكالين أو الكولاسترى ، الذين ازدهرت مملكتهم فى المدة التى يتحدث عنها مؤلفنا . يقول بوكانان : « انه نهر يستمد اسمه من مدينة تسمى قاليا باتانام » . وهو شديد الاتساع عند المصب ، وينقسم عند السد مباشرة الى فرعين . كلاهما صالح للملاحة بالزوارق الى مسافة بعيدة » .

(٣) ويؤكد باولينو رأى مؤلفنا فيقول :

« Questo paese ... è quai in espagnabile, essendo coperto da alte montagne, e tutto tagliato da' fiumi. che impediscono la cavalleria ».

(ص ٧١) . ويلاحظ بوكانان : « يبدو أن راجات مالابار لم يثقوا يوما فى إقامة التحصينات للدفاع عن بلادهم » . ص ٦٤٢ .

(٤) بعد اعطاء بيان تفصيلى لطريقة زراعة الفلفل فى هذه المناطق ؛ يواصل الدكتور بوكانان حديثه قائلا : يزرع فى حدائق هذه المنطقة المجاورة الكثير من الزنجبيل والكركم » . ويكشط الزنجبيل المعد للبيع بسكين .

لإزالة قشره الخارجى ، وبعد نثر رماد جلة البقر عليه ، ينثر على الحصر ، ويجفف لمدة ثمانية أيام أو عشرة ، ويذا يصبح صالحا ، ص ٤٦٩ .
وحب الهال (الحبهان) أيضا من السلع الانتاجية .

(٥) تشابه ظروف الرسو المرصوفة هنا مع مثيلاتها فى تليكهري وماهيه والجنجو ، التى منها يشحن الفلفل الى أوروبا على سفن شركة الهند الشرقية ، فى الطريق العام ، حيث يكثر أن تحل السفن أمراسها (حبالها الغليظة) .

● هوامش الفصل الثامن والعشرين

(١) الصحيح ان اسم مالابار (وورد فى الترجمات الأخرى ميليار) . وان شاع إطلاقه على الساحل الغربى لشبه الجزيرة الهندية ، انما يخص بالتحديد الجزء الذى يقع الى الجنوب من جبل ديلا ، الذى يسميه الأهالى مالايالا ومالايالام . ومن هنا فان مؤلفنا وقع فى خطأ عدم الدقة : بإطلاقه الاسم ، على عكس ذلك ، على ذلك الجزء من الساحل الممتد نحو الشمال من ذلك النتوء ، ذلك الجزء الذى هو فى الواقع ما نسميه ولاية كانارا والكونكان بدلا من الشقة الممتدة نحو الشمال ابتداء من رأس قومورين ، التى قدرها تقديرا صحيحا بثلاثمائة ميل تقريبا .

(٢) يقول رنل : « ان هذا العدد الجم من المرافىء الصغيرة ، والرؤية التى لا يحجبها شىء على امتداد الشاطئ ، والساحل المرتفع ، الموائم للرؤية البعيدة ، كانت كلها عوامل جعلت هذا الساحل صالحا لأن يكون قاعدة للقرصنة ، كما أن نسائم البحر المتناوبة التى تعم المنطقة فى أثناء جزء كبير من السنة تضطر السفن الى الملاحة اقرب ما يكون من الساحل . فلا عجب اذن أن يلاحظ بلينى (المؤرخ الرومانى) السرقات التى تتعرض لها التجارة الرومانية فى الهند الشرقية فى عصره ، ومع أنه تم كبح جماحهم مؤقتا بتدمير أساطيل انجريا لهم ، الخ الا أنه يجوز لنا أن نتوقع أن تتواصل هذه العمليات ما استمرت التجارة وضحالة الموانى ، وقوة البلاد فى الداخل تحمى القراصنة » . (انظر Memoir المنشورة ١٧٩٢ ص ٣٠) . ويقول جروس : « يبدو أنه منذ أقدم العصور كانت تملك السكان اقوى الميول الى القرصنة ، وفى هذه الأيام تستخدم جميع الامارات المختلفة الواقعة على الشاطئ سفنا تخرج الى البحر للمسطو على جميع ما يستطيعون التغلب عليه من سفن الأمم الأخرى » مج ٢ ص ٢١١ .

(٣) يلاحظ هاملتن فى حديثه عن راجابور ، وهى مكان يقع قرب جهيريا ، وبالتبعية على ما يسمى باسم ساحل القراصنة ، ان ما حول المنطقة ينتج أنعم ما فى الهند من أنواع الموسلين والبتيلا Betillas ص ٢٤٣ .

(٤) الراجح أن هذا هو نحاس اليابان الذى كان على الدوام موضع الطلب الشديد . فأما السلع الأخرى المعقدة أعلاه ، فمن المعروف أنها من إنتاج بلادها .

(٥) يبدو من فقرة في رحلات باريوزا أنه في زمانه كان هؤلاء التجار ، ولو الى حد جزئى على الأقل - ان لم يكن الى حد رئيسى - من الفارسيين (أو البارسيين) ، وهم الاسم الذى اعتدنا اطلاقه على سكان فارس وأحفادهم الذين طردهم المسلمون من بلادهم ، بسبب تمسكهم بديانة أسلافهم - وهى ديانة زرادشت أو زرواستر ، المسماة « عبادة النار » ومع هذا فإنه يدعوهم بجهالة عريا ، ويبدو كأنما يخلط بينهم وبين التجار العرب وغيرهم ، .

• هوامش الفصل التاسع والعشرين

(١) كان اسم جوزيرات ؛ كما يبدو فى نسخة راموسيو وكذا فى خرائطنا العصرية ، من الأسماء التى لقيت من التحريف أثناء النقل أقل من كثير غيرها ، فهى جوزورات فى طبعة بال وكذلك فى الطباعات اللاتينية الأقدم ، وجوزوراتش فى مخطوطتى المتحف البريطانى وبرلين ، وجيسوراتش فى الخلاصات المبكرة . على أنها فى الكتابات الفارسية والعربية جوجرات أو جوجورات *Gujurat* . ويبدو أن هناك بعض الشك : إذا كان ما يسمى الآن شبه جزيرة جوزيرات كان فى قديم الزمان جزءا مكملًا من المملكة المسماة بهذا الاسم ، التى كانت عاصمتها هى نهرواليه أو بوتان .

(٢) نظرا لأن منطقة جوزيرات انتقلت الى حكم أباطرة المغول بدلهى ، الذين اتخذوا اجراءات فعالة لكبح جماح نزعة القرصنة عند سبكان هذا الجزء من الساحل ، فان ملاحى القرنين الخامس عشر والسادس عشر لا يتحدثون عن سرقات يتجاوز مداها شمالا مدينة طناه الواقعة على جزيرة سالسيت .

(٣) طبقا لكلمات النص ، يمكن الظن بأن مؤلفنا أخطأ فى نبات البومباكس *Bombax* أو شجرة القطن الحريرى ، وهو نبات ينمو عادة الى ارتفاع يتراوح بين خمسة عشر قدما الى عشرين ، فظنه نبات القطن *Gossypium arboreum* وهى شجرة أو *Goss herbaceum* وهو نبات سنوى ، ولكن لابد أن المؤلف ومواطنيه على معرفة تامة بهذين النوعين الأخيرين نظرا لأنهما من منتجات بلاد المشرق ، ولا يبعد أن يزرعا ببعض اجزاء ايطاليا ، ولا شك أن غرضه لم يكن الا وصف نوع جديد عليهم من انواع الأشجار التى تحمل القطن ، فذلك هو فيما يحتمل الوضع بالنسبة لبومباكس أو شجر القطن الحريرى . وهو يمضى مع هذا لابلأغهم أن قطنها لا يصلح لخدمة النول ، ولا يستخدم الا فى صنع الألحفة أو ، لعله كان يضيف أيضا لحشو المخدات ، وعندما تابع حديثه فالتزم أن يقول ، انه لو أخذ من الشجرة وهى بعد فى سن الثانية عشرة ، كان صالحا للاستخدام فى صنع الموسليينات الناعمة الرقيقة وهو قول يتناقض مع الواقع ، وهنا يكمن أقوى الأسباب للاعتقاد بأن معناه قد قلب . فليس ثمة تعبير ينطوى على هذه الفحوى موجود فى أية نسخة

الحري من ...
العادي أو قطن الشجيرات المألوف ، كتنقيض للنوع الآخر الجميل ، ولكنه
عديم النفع تقريبا ، الذي كان يصفه من توه .

(٤) ربما ذهب الظن الى أن هذه تجارة غير عادية بالنسبة لميناء
هندي ، بين أن لنشوتن (الذي ابتدأت رحلاته في عام ١٥٨٣) ، اذ يتحدث
عن الاقليم الواقع بين جوزيرات والاندوس (السند) ، يلاحظ صناعة
المصنوعات الجلدية على النحو التالي
« Ex Corio item Peritè quaedam facta, floribusque ex bysso »

(ووردت في النسخة الهولندية بلفظة « حرير »)
« Varis coloribus oranta ».

(انظر Ivavigac Itiner ف٧ ص ١٢) ولم يرد ذكر لتجهيز
الجلود ، ولكن الدكتور ف. بوكمان يصف بدقة في ثنايا رحلته بالمناطق
الوسطى من شبه الجزيرة العملية التي يستخدمها الأهالي في التجهيز
والدباغة والصباغة ، ايس فقط لجلود الماعز والغنم ، بل وجلود الثيران
والجاموس أيضا . مج ١ ص ٢٢٧ .

(٥) ويضيف لنشوتن قوله :
« Eademsarte, stragula faciunt serico filo exornata, et acu picta

● هوامش الفصل الثلاثين

(١) ان الطرق المختلفة التى كتب بها اسم هذا المكان ، يعوزها الانسجام بشكل غير عادى ، فبينما يرد فى نسخة راموسيو كانام او كانان ، اذا هو فى نسخة بال تانا ، وفى اللاتينية الاقدم تانا وكهانه وكهانا ، وفى مخطوطتى المتحف البريطانى وبرلين وفى الإخلاصات المبكرة توما . (وربما جاز لنا ان نلاحظ ان حرفى T و C يحدث التبادل بينهما باستمرار فى المخطوطات الوسيطية) ويحتمل ان تكون تانا هى القراءة الصحيحة بين هذه القراءات ، وذلك هو الرأى الذى ذهب اليه دانفيل ، الذى راح بعد تنوييهه بأن مكانا بهذا الاسم يبدو فى « جداول نصر الدين » وأولوغ بك ، يلاحظ ان : « مارك بول يتحدث عنها بوصفها مملكة ، يضمها الى مملكتى كبايت وسيمينات » . (ص ١٠١) . ويمكن الشك فيما اذا كان المكان موضوع هذه الملاحظة ، والمسمى تانا فى نسخة بال وتوما فى الخلاصات ، لم يكن المقصود به هو تانا ، وهى مدينة تجارية شهيرة عند رأس دلتا نهر الأندوس (السند) ، وليس تاناه بسلسل ، المتوغلة كثيرا فى جنوب جوزيرات .

(٢) لا يصل انتاج الفلفل شمالا حتى بمباى ، كما ان زراعته بعد ولاية كانارا ليست ذات حجم يذكر ومن البين ان البخور المتحدث عنه هنا هو اللبان الجاوى Gum Benzoin الذى ليس فى الحقيقة مما ينمو باى جزء من اجزاء الهند ، ولكنه يشاهد بمقادير ضخمة فى مستودعات التجار ، الذين يستوردونه من سومطرة ، ليوزدوا به اسواق بلاد العرب وفارس واسيا الصغرى . ولونه على الجملة بنى قاتم ، واجود انواعه لا تشويه الا عروق من اللون الأبيض .

(٣) كانت الخيول تحمل من البحر الأحمر والخليج الفارسى والأماكن المجاورة لهما ، الى موانئ الهند الشمالية ، ومنها كانت سلالتها تصدر الى الولايات الجنوبية . وذلك فيما يبدو هو - على الأقل - السبيل الذى كانت تسلكه التجارة قبل ان يفسد عليها النفوذ الأوربى نهجا .

● هوامش الفصل الحادى والثلاثين

(١) سبق أن أشرنا أنه متى ورد ذكر جوزيرات ، فإن المقصود منها لم يكن شبه الجزيرة المسماة بهذا الاسم ، بل الجزء الأشد امعانا فى الجنوب من المملكة ، الذى يضم مدينة سورات ، ويمتد بامتداد الشاطئ حتى قاناه أو بمباى . وتمشيا مع الفكرة وتقدم مؤلفنا نحو الشمال ، فإنه يعالج كامبايا فى ترتيبها ، وهى ميناء تجارية شهيرة تقع عند قاعدة الخليج المسمى باسمها وورد ذكر هذا المكان فى الآيين الأكبرى تحت اسم كامبايت بين مدن جوجيرات الرئيسية ، التى كانت عاصمتها قديما نهرواله ، المسماة عادة باسم بوتان (كما أوضح ذلك رنل) .

(٢) يقول لنشوتن :

« In cambaia praeparatur, ac per universas orbis partes distrahitur ».

انظر : (Navig. ac Itiner.) ص ١٣ . ويقول الآيين الأكبرى فى وصف مكان يقع الى جوار « أحمد آباد » ، العاصمة الحديثة ، الواقعة غير بعيدة من ميناء كامبايا : « هنا ينمو نوع ممتاز جدا من النيلج ، يصدر الى بلاد الروم وغيرها من الأماكن البعيدة » . مج ٢ ص ٧٧ .

(٣) يصدر قطن الخشبو فى الزمن الحاضر ، بمقادير وافرة من سورات وبمباى الى الصين .

(٤) سبق أن ورد ذكر التوتياء فى الكتاب الأول ، ف ٢٠ ، وأنه تجدير من فلز (هو الزنك أو الأثمد) يوجد بالجهة الشرقية من بلاد فارس . وهو يحمل الى الهند بصفة رئيسية بقصد صنع القطرة منه المسماة سورميه وأنجان ، وتكثر نساء الهندوستان من استخدامه .

● هوامش الفصل الثانى والثلاثين

ان سرفينات ، التى تسمى فى طبعة بال تسمية أصبح هى سميناث ؛
وفى اللاتينية الأقدم سيميناتش ، ولكنها محذوفة فى الخلاصات المبكرة
(ما لم تكن سيبيليتش Sebelech هى المقصودة بدلا منها وليس
كامبايث) ، هى كما هو واضح المكان المسمى سومينات ، الذى ذاع
اسمه بسبب التدميرات التى ارتكبها هناك (فى عام ١٠٢٥) محمود
الغزنوى ، وهو متعصب مسلم ، دمر معبدا هندوكيا شهيرا وحطم وثنه
الهائل اربا ، واستولى على الأحجار الكريمة التى كان مزدانا بها .

(٢) ربما ولدت القساوات التى مارسها المسلمون مع السكان
الهندوك بهذا المكان ، الذين لقوا الذبح طبقا لرواية أبى الفداء ، فى
أعداد غفيرة

« Ea in urbe, Sumenat, ingentum Indorum numerum necabat Mahmud,
omnes auferebat divitias, et super idolo rogum accendebat ».

(ولدت) روحا انتقامية عنيفة ، وبخاصة بين الكهنة ، وتسببت
فى انتهازهم الفرص للنار للاعتداءات التى حلت بهم ، وليس من المستبعد
أن مؤلفنا ربما حصل على معلوماته حول أخلاقهم من رفاقه الملاحين
المسلمين .

● هوامش الفصل الثالث والثلاثين

(١) يبدو أن اسم هذا المكان ، الذى هو كوران أو كوران فى نسخة راموسيو ، ورسم كورام فى طبعة بال وربما كورون فى اللاتينية الأقدم ، ورسم كيران فى الخلاصات الباكراة كان سببا فى مصاعب كبيرة . ويطابق الماجور رنل بينه وبين كدج ماكران ، « التى ربما اعتبرت فى ذلك الحين ، جزءا تابعا للهند ، مثلما اعتبرت فيما تلا ذلك من الأزمان فاندهار وولايات فارسية أخرى . ويتصادف أنى أصدرت من قبل حكى .» فى هذا المكان ، والآن أجد فى ملحوظة فى كتاب أستلى ، أن الناشر كان يرى نفس الرأى . والحاصل أنهم بالهند يضمون كدج ومكران معا ، كما هى العادة الشائعة فيما يتعلق بأماكن أخرى . وربما كانت كدج أو كيدج هى العاصمة السابقة . وهى دون أدنى ريب ، مدينة جيدروسيا عند الأقدمين . ويتحدث بوتنجر عند كيدج قائلا أنها العاصمة الحديثة لمكران ، وهو ولاية مترامية الأطراف قرب البحر ، على الجانب الغربى لنهر السند . وكانت الأماكن الواقعة قرب هذا النهر هى حدود ما أورده مؤلفنا من أوصاف سابقة ، حيث قال فى (الكتاب الأول ف . ٢٧) : «واذا أنا تقدمت فى هذا الاتجاه نفسه أفضى بى السير الى بلاد الهند ، على أنى وجدت من الملائم الاحتفاظ بوصف هذا القطر الى كتاب ثالث » . واذن فهو قد استقام مع نفسه حين ختم بيانه عن ساحل الهند ، عند وصوله فى اتجاه مضاد ، الى ولاية تربطه بفارس ، وكانت تعتبر ، فى أوقات مختلفة ، تابعة سياسيا لأحد القطرين . على أنه يمكن أن يقال طبقا لنظام الجغرافيين القدامى . أن مكران تابعة للسند ، مميزا عن بلاد الهند ولكنها كليهما كانا يدمجان فى تعريفهم لبلاد الهند ، بمفهومها المترامى العام .

(٢) يقول ابن حوقل : « يشبه كثير من سكان مكران العرب ، فهم يأكلون الدجاج والسمك . وآخرون منهم يشبهون الأكراد . » إذ هنا يقع الحد الأقصى لبلاد الاسلام فى هذا الاتجاه . والآن سنغير وجهتنا ونشرع فى وصف أرمينا ، الخ . . » (المسالك والممالك ، ص ١٥٥) مما

يستوعب النظر أن مؤلفنا تبني خط التقسيم الأكبر نفسه ، الذي استخدمه هذا الجغرافي العربي ، الذي سبقه بما يقارب ثلاثة القرون ، ولكن يمكن تعليل ذلك بارتباط الأمر بالربابنة العرب .

(٣) المقصود من المعبر (متميزا عن مالا بار) هو الساحل الشرقي لشبه الجزيرة ، من قرب كستناه ، أو بعبارة أدق ، من نهر بنار الى رأس قومورين ، أو تلك الشقة التي تنتشر بها لغة التامول .

● هوامش الفصل الرابع والثلاثين

(١) من العسير التحقق بالضبط من اسم الجزيرتين اللتين رويت عنهما قصة العجائب هذه لمؤلفنا ، على أنه رغم الاعتراضات التي تنهض بصدد المسافات ، فان من المعقول الاعتقاد أن المقصود بهما هما الجزيرتان اللتان تقعان قرب جزيرة سقطرى وتسميان عبد ال كوريا والشقيقتين ببعض الخرائط أو الشقيقتين في خرائط أخرى . وفي خريطة فرا . مورو تسميان مانجله ونبيله .

(٢) سيوضح من هوامش الفصل التالي ، ان المسيحية تأسست بهذه المنطقة ، شأنها في بلاد الحبشة ، في زمن مبكر جدا ، والتبعية الكنسية لسقطرى تقوم على التجاور وان لم تصل الى حد البرهان القاطع .

(٣) من المعلوم أن السمك المملح سلعة تجارية مهمة بتلك المناطق ، التي يندر بها النبات لشدة الحرارة وجذوبة الأرض ، كما أن طعام الناس والماشية يحصل عليه بشق الأنفس . وعلى هذا الأساس أطلق الاغريق على سكان هذا الساحل اسم اخثيوفاجي Ichthyophagi أى من يعتمدون في حياتهم بصفة رئيسية على أكل السمك .

• هوامش الفصل الخامس والثلاثين

(١) تقع هذه الجزيرة الضخمة ، وهي المسماة سوقوطورا فى خريطة لمانفيل وسقطرين عند الجغرافيين الانجليز ، قرب رأس غردفوى ، البوز الشمالى الشرقى لقارة افريقيا . ووردت فى نسخة راموسيو باسم صحيح هو سوقوتيرا ، ولكنها فى طبعة بال اسكويرا ، وفى اللايتينة الأقدم اسكويران وفى الخلاصات الايطالية الباكرا اسقرسيا : فما أشد عدم انتباه النساخ فى نقلهم أسماء الأعلام حتى أسماء الأماكن المشهورة !

(٢) كثيرا ما ورد ذكر العنبر وأنه يوجد فى ساحل افريقيا المجاور .

(٣) ان ذكر هذا الزيت المستخرج من رأس السمكة يدل على أنها هى الحوت العنبرى ، كما أنه دليل على صدق ما أورده المؤلف . ثم ان طريقة الرشق بالحربونة وصفت هنا وصفا صحيحا كذلك .

(٤) هناك أدلة وفيرة على وجود المسيحية فى زمن مبكر بجزيرة سقطرى . يقول الثانى من الرحالتين العربيين فى القرن التاسع : « وفى هذا البحر ، توجد جزيرة سقطرى ، التى ينمو بها الصبر السقطرى ، وهى تقع قرب بلاد الزنج وبلاد العرب ، كما أن غالبية سكان تلك الجزيرة من المسيحيين الذين يذكر عنهم هذا السبب » . فأما الاديسى الذى صنف عمله قرب منتصف القرن الثانى عشر ، فإنه ينقل عن هذا المصدر وهو الرحالة المسلم مرددا أقواله بالحرف تقريبا . على أن ياربوزا : الذى تمت رحلاته قرب نهاية القرن الخامس عشر يتحدث باحتقار عن نوع المسيحية الذى وجدته هناك أبناء وطنه البرتغاليون ، عند زيارتهم الأولى للجزيرة ،

ولكن لما كان السكان يعدون على أحسن الفروض اتباع شيعة مسيحية منشقة ، وجب أن تولى شعوره المتعصب شيئا من التسامح . ويقدم ج . ديه باروس بيانا تفصيليا عن « سوقوطورا » ويقول عن الأهالى :

« Todos sao Christiaos Jacobitas da casta dos Abexijs (Habeshis or Abyssin ans), pero que muitas cousas neo guardao de seus costumes ». (Dec. 2, L, I Cap III).

(٥) من الواضح أن مؤلفنا ظن السكان من النساطرة ، حيث وردت Zatolia كغلطة مطبعية بدلا من Zatolic وهى فى حد ذاتها تصحيف

من البعاده لحلمه الجامليق ، Kallipolis وهو اللعبد الذي يتلقب به
البطيريك النسطورى المقيم فى بغداد . على أن الأرجح أنهم كانوا من
اليعاقية (كما يؤكد ذلك البرتغاليون) ، ويخضعون للسيادة الروحية
لبطيريك ، كان يقيم فى الأزمنة القديمة بأنطاكية وبالإسكندرية ، ويقيم فيما
بعد بمدينة ماردين بأرض الجزيرة بالعراق .

(٦) من المحتمل جدا أن هذه الجزيرة قبل استيلاء البرتغاليين عليها
جعلت مستودعا للبضائع التى تنتهبها سفن القراصنة وإن تبرير الأهالى
المسيحيين المناقض للضمير شيء متوافق وطبائعهم كثيرا ، ولكن يبدو أن
أبا القداء يعد هؤلاء الأهالى طرفا رئيسيا فى عمليات السرقة حيث يقول :
« Incolae eius sunt Christiani piratae ».

انظر : « Geographia » ، « تقويم البلدان » لوحة ١٦ ص ٢٧٨ .

(٧) كان الاعتقاد فى السحر وقدرة التعاويذ على تغيير خط السير
العادى للطبيعة وبخاصة على التحكم فى الرياح ، شائعا فى تلك الأيام ،
واستمر كذلك الى عهد متأخر عن ذلك كثيرا ، حتى فى أشد بلاد العالم
تجسرا . واذن فلن ندهش إذ نجد ذلك الفن ينسبه الملاحون الى سكان
جزيرة سحيقة ، كانت ، شأن « برمودة المنكودة الآن » ، توصف بأنها
هدف لعواصف عنيفة . ويتحدث ده باروس وهو مؤرخ جاد فى القرن
السادس عشر ، عن الشعوذة التى تمارسها نساء سقطرى قائلا عنهن :
« Por hoje serem ainda tao grandes feiticeiras, que fazem cousas mara-
vilhosas. »

(الكتاب الأول ف ٣ Dec. II) ويورد جامع رحلات أستلى
Astley's Voyages بعض التفاصيل العجيبة عن فرط بساطة البرتغاليين
وقابليتهم للتصديق ، فيما ، يتعلق بهذه الوساطة المزعومة البخارقة للطبيعة .
(مج ١ ص ٦٣ هـ) .

● هوامش الفصل السادس والثلاثين

(١) الحقيقة أن محيطها الواقعي يقارب ألفي ميل لا ثلاثة آلاف .

(٢) الأهالي على الجملة ليسوا مسلمين ، على أنه سيتضح لنا أن العرب استقروا وتوطنوا ونشروا دينهم في مناطق كثيرة على امتداد الشاطئ ، ولم يقتصروا على ذلك ، بل أنهم باختلاطهم بالأهالي الأصليين ، تكونت عدة أجناس من الناس يدينون بتلك العقيدة ، مهما تكن مراعاتهم لسننها بعيدة عن الكمال .

(٣) لكلمة « شيخ » العربية معنى مزدوج هو « الأسن أو الأكبر سنا » (كما يتضح من النص) ، وكبير القبيلة أو رئيسها . وبهذا المعنى الأخير ، نجدها عادة مستخدمة ، ومن المحتمل أن القبائل المذكورة في الهامشة السابقة ، كان يحكمها رؤساء يلقبون بالشيوخ ، كما هو معلوم من أن حكام شاطئ أفريقيا المواجهة ، حيث وطن العرب أنفسهم - كانوا بالمثل شيوخا .

(٤) أن الأقيال والعاج تكثر على الساحل الأفريقي (كما يلاحظ في الفصل التالي) ، ولكنها لا توجد بالتأكيد على جزيرة مدغشقر ، ومن ثم فلا بد أن ماركو بولو تلقى هنا معلومات خاطئة ، أو لعله خلط بين ما وقع له من معلومات .

(٥) زعم بعضهم أن المقصود بالجمال هنا هو ثور مدغشقر أو الليزون ، وهو الشهير بالحديد أو السنلم الموجودة فوق كتفه ، على أن من المحقق على ذلك ، أن العرب ، وربما المسلمين بصفة عامة ، يستحيون لجم الجمال . . . حيثما استطاعوا الحصول عليه - على كل أنواع اللحم الأخرى .

(٦) من الواضح هنا أيضا أن الظروف المذكورة تنطبق على الشاطئ الأفريقي المواجه ، وليس على الجزيرة ، التي لا يعرف أن أسودا ولا أي حيوان من الأسرة البيرية يوجد بها . والواقع أن جميع ما ورد من مدغشقر تقريبا ، يبدو أنه معلومات التقطها مؤلفنا من البجارة العرب ، فيما يتعلق بالساحل الجنوبي من أفريقيا ، وإنها أدخلت من مذكراته في غير موضعها .

(٧) ان التيارات المتجهة جنوبا من خلال مضيق موزمبيق ، ثم المتخذة بعد ذلك اتجاهها غربيا ، مندفعة بقوة حول رأس الرجاء الصالح ، مصدر خشية جميع ملاحينا الى بلاد الهند الشرقية . ومن هنا جاء أن لسانا يمتد من أرض أفريقيا ، الواقعة قبالة خليج القديس أوغسطين بجزيرة مدغشقر ، تحت مدار الجدى تقريبا ، سماه المكتشفون البرتغاليون رأس التيارات : Cabo des correntes غير أن ملحوظة مؤلفنا حول هذا الظرف العجيب ، بمنطقة من الكرة الأرضية ، لم يزرها فى ذلك الوقت أى أوربى جديدة حقا بإشارة خاصة .

(٨) ان كل من قرءوا قصص « ألف ليلة وليلة » لابد أنهم يعلمون حجم هذا الطائر العجيب وقوته ، المسمى فيها بالرخ ، على أن شهرته لا تقتصر على ذلك العمل . يقول القاموس العربى والفارسى : « ان الرخ هو اسم طائر جبار ، يقال ان به من القوة والمنعة ما يكفيه لحمل كركدن حى » . والحق أن وجوده ، يبدو أنه كان موضع التصديق العام ببلاد الشرق ، ولم يكن الملاحون العرب الذين التقى بهم مؤلفنا ليترددوا فى تقرير حقيقة لها مثل تلك الشهرة ، ولكن لعلهم يجدون من المناسب - فى نفس الحين - أن يجعلوا مسرح ظهوره مكانا بعيدا غير مطروق هو الطرف الجنوبى لمدغشقر ، حيث تقل فرص مناقضة هذا القول عن طريق المعرفة المحلية . ومع هذا فان ظرف لجوئه الى الجزيرة من المحيط الجنوبى ، يتيح المجال للظن بأن الحكاية وان بولغ فيها ، ربما لم تكن خيالية تماما ، وربما كان منشؤها رؤية طائر حقيقى ، بين حين وآخر ، اوتى أبعادا ضخمة وان لم تكن إعجازية وهذا الطائر اما أن يكون هو القطرس - (Demedia exulans) الذى ربما أمكن ، وان كان يقطن خطوط عرض جنوبية أكثر ، أن يزور بالصدفة شواطئ مدغشقر ، واما أن يكون هو الكوندور الذى يقطن جنوب أفريقيا . والمعلوم أن بعض أفراد القطرس يبلغ طول ما بين الجناحين من طرفها الى طرفها الآخر مالا يقل عن خمسة عشر قدما مما يجعل الناظر اليها لأول مرة يخلل اليه أنه يرى ظاهرة خارقة . وقد أمكننا بفضل الوصف الذى قدمه الينا باور ، فى « Travels in S. Africa » أن نكون فكرة عن ضخامة وقوة الطائر الثانى . فهو يقول : « تكاد الغريبان والحدأة والنسور أن تكون هى تقريبا الأنواع الوحيدة من الطيور التى يلتقى بها (فى منطقة روجفلد) . وتمكنت من كسر جناح أحد أفراد النسر الذى يسميه علماء الطير باسم الكوندور وله ضخامة حجم مذهلة فامتداد جناحيه كان يبلغ عشرة أقدام وبوصة واحدة . وحدث ذات مرة أنه جعل ثلاثة كلاب فى وضع حرج تماما ، حتى اذا تمكن فى النهاية من امساك أحدها بمخالبه ، وانتزع قطعة كبيرة من لحم فخذه ، اضطرها جميعا الى التراجع فورا » . (مج ١ ص ٣٥٨ ط ٢) . ان كان المقصود من لفظة

Passi الواردة في النص هو الخطوات العادية التي بعدها قدما
ونصف ، لمكان معنى هذا أن الطول المعطى لجناحي الرخ هو أربعون قدما .
والمبالغة في وصف ريشة القوادم أعظم وأدهى ، وهنا يكون ريش القطرس
والكوندور قزما مصغرا بالموازنة ، ولكن ينبغي أن يلاحظ أنه بصدد العينة
التي قيل أن رسل الخزان الأعظم قدموها عندما أرسلهم لفحص عجائب
الطبيعة ، وإذا دراسة الحالة السياسية للبلاد ، يعبر مؤلفنا عن نفسه
بهذر ويستخدم عبارات ملطفة كقوله « Sicome intesi » و « Laqual
li fu affermato » كأنما يريد أن يكون مفهوما أنه لا يدعى أنه رأى
الشيء رأى العين ، فأما اعتقاده بوجود الطائر نفسه فأمر لا يتطرق إليه
شك .

(٩) يقول كتاب The Hist. of Quadropeds ان الخنزير البري الأفريقي
أي - (sus Aethiopicus) له أربعة أنياب . منها اثنان كبيران جدا
يبرزان من الفك الأعلى ويتجهان الى فوق كالقرن، وطولهما تسع بوصات
ومحيطاهما عند القاعدة خمس بوصات كاملة ، فأما النابان الآخران
الناثقان من الفك الأسفل فلا يبرزان الا ثلاث بوصات من الفم . ويستخدم
الحيوان هذه الأنياب أداة رهيبية لانتقامه . ويدهي أن أنياب الخنازير
البرية ، شأن الفيلة على حد سواء ، لابد أن تختلف اختلافا بينا في
حجمها حسب السن وغيره من الظروف : وربما كان الناب الذي حمل الى
الصين وبلغ وزنه أربعة عشر رطلا ، مأخوذا من حيوان غير عادي من هذا
النوع .

● هوامش الفصل السابع والثلاثين

(١) ان هذا الاسم الذى ورد بنسخة راموسيو زانزيبار ويكل من النسختين اللاتينيتين زانزيبار ، وبالخلاصات الباكرة تانجيبار هو « زانجبار » فى الجغرافيا العصرية ، ويطلق هذا الاسم بنوع خاص على جزيرة صغيرة قرب الشاطئ الأفريقى ، كما يطلق على شقة من الساحل داخل نطاق تلك الجزيرة ، تحدها فنلندا شمالا ، ورأس الجادا فى الجنوب ، ولكن يبدو محتملا أن الأشخاص الذين حصلوا منهم مؤلفنا على معلوماته ، اعتسأوا على استخدام اللفظ بمعنى أكثر ايهاما (كشأن اسم أثيوبيا) ، وربما على إطلاقه على الشاطئ الأفريقى الجنوبى بأسره ، الذى يسكنه الشعب الذى يطلق عليه العرب جملة اسم الزنج ونطلق نحن عليه اسم النجرو أو الكفري Cafres وربما أمكن الذهاب أيضا على سبيل الظن أنه لما كانت كلمة « جزيرة » العربية معناها جزيرة أو شبه جزيرة ، فربما كان قصدهم مما سماه مؤلفنا جزيرة زنجبار الدلالة على جميع الطرف الجنوبى فى أفريقيا أو شبه الجزيرة الأفريقية الذى يبلغ امتداده من جزئه الشمالى أو ما يمكن تسميته بزنجبار الأصلية ، ثلاثين درجة عرضية أى حوالى ألفى ميل وأنا لنقرأ عند المؤلفين العربيين وغيرهما من الكتاب الشرقيين ، نفس الاسم (زنجبار) وقد أطلق على هذه الشقة ، مع إطلاق لقب الزنج على نحو عام على جميع سكان الشاطئ الشرقى لأفريقيا ، يقول الرحالة المشار اليهم آنفا : « ان بلاد الزنج (أو النجرو) ، تمتد امتدادا عظيما » انظر (Anc. Relat. ص ١١١) ، وكذلك ده باروس أيضا ، فإنه يعطى اسم زنجبار مدى فسيحا يطلقه عليه ، كما أنه لا يحتمل بناء على فحوى اسم مثل (بلاد الأثيوبيين أو الأحباش) ، أنه كان فى الأصل قاصرا على بقعة صغيرة .

(٢) هنا تضيف النسخة اللاتينية الباكرة ملحوظة معينة نتركها بلغتها الأصلية :

« Sed cooperiunt suam naturam ; et faciunt magnum sensum quando eam cooperiunt, eo quod ha bent eam multum magnum et turpem, et horribilem ad videndum ».

(٣) سيحكم القارئ بنفسه الى أى مدى يتطابق هذا الوصف للجنس الزنجى الذى يبدو أنه شوه بسبب نقله عن طريق المسلمين وتحيزهم - مع مشاهداته هو الخاصة - على أنه ينبغى ألا يغيب عنه فى الحين نفسه ، أنه

وان كان هناك من حيث فلتحة الأنف وانقطاعها وغلظ الشفتين ، وتقلل الشعر ، اتساق وتطابق عام ، فانه من حيث الحجم والشكل وقنامة اللون ، وشراسة الهيئة ، يختلف أهالى صقع ما بين أفريقيا اختلافا جوهريا عن أهالى أى صقع آخر .

(٤) الراجع أن البلح المذكور هنا ليس من النوع الحقيقى المعروف الذى تنتجه نخلة البلح : *Phoenix or palma dactylifera* ما لم يكن مستوردا كسلعة غذائية . أجل أن ده باروس اذ يتحدث عن القطر المحيط بكويلوا *Ella he mui fertil de palmeiras* « ولكن هذا - رغم لفظة بالميرا *Palmeira* - تترجمها المعاجم بالنخلة أو البلح » يبدو أنه لا يعنى سوى نخلة الكافور (*Palma Sylvestrier of Kampfer*) واذ يسمى البرتغاليون هذا النوع باسم *Palmeira brava* أى النخل البرى أو *Braba* كما تنطق الكلمة باللهجة العامية المحرفة لمستوطناتهم ببلاد الشرق - فانه اكتسب عند غيرهم من الأوربيين التسمية العامة وهى شجرة الأسل .

(٥) كل ما يمكن التماسه عذرا لهذه القصة التى لا أساس لها حول طريقة التزاوج بين هذه الحيوانات ، هو أن الفلطة قديما جداً وعامة ، وظلت قائمة لا يفندها أحد بسبب ندرة الفرصة اللازمة لدخولها .

(٦) لا شك أن الزرافة أو ما يسميه عالم الحيوان السويدي الشهير لينايوس *corvus camelopardolis* معروفة الآن تماما بانجلترا .

(٧) يقول هملتون متحدثا عن ساحل زيبلا قرب رأس جاردافوى : « الغنم عندهم بيضاء الجسم كله من رعوس فاحمة السواد وأذان صغيرة ، وأجسامها ضخمة ولحمها رقيق وذيلها عريضة بقدر الليتها » .
مج ١ ص ١٥ .

(٨) يقول هملتون : « ان لهم لأجساما وأطرافا ضخمة ومتينة ؛ كما انهم بالغو الجراءة فى القتال » . مج ١ ص ٨ .

(٩) من الصحيح ما ورد أعلاه من أن ساحل أفريقيا لا ينتج أى نوع من الخيل ، ولكن مع أن الفيلة المتوحشة تكثر بالبلاد ، فليس هناك أى سبب يدعو للاعتقاد بأن الأهالى متعودون فى أى مكان هناك فى الزمن الحاضر ، على استئناسها أو استخدامها فى حروبهم ، فأما أنه لا بد أن ذلك قد حدث فيما مضى فى الزمان ، فأمر تناقشه بغاية البراعة رحلات المستر بارك الجدير بالثناء والسيىء الحظ حيث يلاحظ ما يلى : « قيل ان الفيل الأفريقى ذو طبيعة أقل وداعة من الآسيوى ، وأنه غير قابل للاستئناس . من المحقق أن الزوج لا يرضونه فى الوقت الحاضر ، ولكن لو تذكرنا

أن القرطاجنيين كانت لديهم دوماً فيلة مستأنسة في جيوشهم بل نقلوا بعضها إلى إيطاليا فعلاً ، في أثناء الحرب البونيقية (التي دارت بين روما وقرطاجنة في قديم الزمان) ، بدأ محتملاً أكثر أنهم كان لديهم من ترويض فيلتهم ، أكثر من تحملهم نفقات استجلاب مثل هذا الحيوانات الضخام من آسيا » . (ص ٣٠٧) . ورغم هذا كله فاني أميل إلى الظن بأن مؤلفنا إما أنه تلقى معلومات خاطئة حول هذه الحقيقة ، وإما أن المقصود من ملحوظاته من استخدام الفيلة هو الحديث عن مكان آخر غير زنجبار كالحبشة مثلاً أو سيلان .

(١٠) إن البنج ، وهو عصير مخدر ، يستخرج من أوراق القنب الهندي ، يقال إنه يعطى أحياناً للفيلة الهندية ، بقصد بث الضراوة فيها وعدم الاحساس بالخطر وهي وسيلة لا بد أن يصحبها قدر غير قليل من الخطر على الجانب الذي يلجأ إلى استخدامها . ويبدو أن المقدونيين السوريين Syro-Macedonians كانوا يستخدمون شراباً مثيراً آخر لإنتاج نفس الأثر : « ورغبة في إهانة الفيلة للقتال ، كانوا يجعلونها ترى دم العنب والتوت » . (I. Macc. اصحاح ٦ : ٣٤) .

● هوامش الفصل الثامن والثلاثين

(١) من الواضح أن المقصود بكلمة « مجموعة الجزر الوفيرة » ببحر الهند هو الحشد الهائل المسمى بجزر مالديف بالإضافة إلى الحشد الأقل عدداً المسمى بجزر لكديف . فلو أن هناك مبالغة في تقدير عددها بأثنى عشر ألفاً وستمائة ، فلا بد عندئذ من التماس العذر ، ليس فحسب لمؤلفنا ، بل ولهؤلاء الريائيين المجريين الذين أشار أنه نقل عنهم ، وذلك لأنه سيتجلى أن الاعتقاد الشائع بكل أرجاء الهند ، وبذلك الجزر نفسها ، هو أن الجزر الأولى وحدها تتألف من أحد عشر أو اثني عشر ألفاً ، من جميع الأوصاف والأحجام . يقول لنشوتن :

« Quid am harum isularum numerum », and 11,000 ferunt ; sed non est certa ratio. Innumberabiles enim sunt ».

(الفصل ١٣ ص ١٦) (وفي الامكان اضافة مصادر أخرى قديمة بنفس هذا النحو) وورد في الفصل الثامن من هذا الكتاب في موضوع لوتشاك ، التي يظن أنها كمبوديا العبارة التالية : « من هنا تصدر جميع الأصداغ الخزفية ، التي متى حملت إلى أقاليم أخرى ، تبادله الناس عملة متداولة » . وهذا التأكيد يمكن تطبيقه بدقة وبتخصيص يكاد يكون تالما على جزر ملديف وكان المقصود به عند مؤلفنا (كما أنا مقتنع تمام الاقتناع) أن يوضع في هذا المكان بالمذات .

(٢) لا يبدو أن هذا التقسيم للهند إلى كبرى وصغرى ووسطى ، له أية علاقة لا بالموقع الجغرافي ولا بالأهمية النسبية . والمفهوم هنا من الهند الصغرى هو ما كان يسمى الهند خارج الجانج India extra Gangem أو بعبارة أدق ، المسافة المحصورة بين الشاطئ الشرقي لشبه جزيرة الهند وساحل كوشين صين أو تسيامبا . وجعلت الهند الكبرى محتوية بلاد الهندوستان الحقة بأكملها وشبه الجزيرة ، ممتدة غرباً حتى ولاية مكران أو المنطقة الممتدة بين الجانج (الكنج) والسند بكل ما فيها . فلما اسم الهند الوسطى أو الثانية فإن مؤلفنا يطلقه على الحبشة قصداً . ولكنه يبدو كأنما يعنى أن شاطئ بلاد العرب أيضاً ، حتى الخليج الفارسي ينبغي أن يضم إلى هذا القسم .

❦ هوامش الفصل التاسع والثلاثين

(١) يقول لودولفوس :

« Uni tamen regi, Habessinia paret qui ob subjectos quosdam regulos, regem regum Aethiopiae semet vocal ». (Hist. Aethiop. Prooem).

انظر (Hist. Aethiop. Prooem) يقول جيبون : « رفعت المسيحية هذه الأمة فوق مستوى البربرية (الهمجية) الأفريقية . كما أدى اختلاطهم بمصر وكذا بخلفاء قسطنطين الى نقل مبادئ الفنون والعلوم اليهم ؛ وكانت سفنهم تخرج للتجارة حتى جزيرة سيلان ، كما أن النجاشي (Negus) أو الأمير الأعلى للحبشة كانت تخضع لأمره سبع ممالك » . (مج ٤ ص ٢٦٧) على أن العنود لا بد أنه تفاوت في أوقات مختلفة ، وطبقا لهذا نجد عند ب تلّز ولودولفوس وغيرهما من الكتاب أعدادا تتراوح بين أربع عشرة ولاية وثلاثين ، يخفّضها لودولفوس مع ذلك في تازيخه الى تسع رئيسية . ويورد دابر أسماء ممالك ، يعتبرها مكونة لممتلكات العاهل الحبشي في زمانه . ص ٣٢٠ .

(٢) الموقع المتوسط المشار اليه هنا هو موقع مدينة اكسو أو اكشوما ، العاصمة القديمة لبلاد الحبشة ومقر حكم الأمير الذي أطلق عليه الفاريز ياربوزا وغيره من الكتاب البرتغاليين الأوائل اسم بريسترجون الحبشي « Prete Joao » .

(٣) سيبدو فيما تعد محتملا أكثر أن الاقليم المتحدث عنه هنا يقصد به اقليم عدل وهي مملكة مجاورة للحبشة في الجانب الجنوبي أكثر منه عندهم أو عدن ، التي يفصلها عنها البحر الأحمر أو الخليج العربي . على أن طبعة بال تقول بصورة أدق :

« Contingit hanc regionem (Abasiam) alia quaedam provincia Aden dicta » .

(٤) لدينا أسانيد وفيرة تؤيد وجود العداء المستحكم والحروب المستمرة بين ملوك الحبشة وملوك عدل (التي ميناؤها الرئيسية هو زيلع ، على الساحل الجنوبي الغربي من البحر الأحمر) ، وبخاصة كتابات اندريا كورسالي وهو رجل من فلورنسا وفرائسنگو الفارين وهو برتغالي ، (وهي توجد عند راموسيو مج ١ الورقات ١٧٦-٢٦٠) . وهنا يصح للمقارئ أن يطبق هذه الحقائق التاريخية على الظن الذي اوردناه في

الهامشة السابقة من أن عدل وليس عدن هي المقصودة بكلمة الولاية
المجاورة للحبشة .

(٥) فيما يتعلق بفتح ملك الحبشة ، سواء العاصمة سلطان عدل على
الساحل الأفريقي ، أو عدن على الجانب العربي من البحر الأحمر ، ربما
نبئت بعض الآمال في الحصول على بعض الضوء من حوليات بروس
Brucés Annals عن تلك البلاد ، وبخاصة نظرا لأن الفصل الثاني
يقرز أنه يروى الأحداث منذ ١٢٨٣ حتى ١٣١٢ ، بما فيها المدة التي
يتحدث عنها مؤلفنا ، على أن المعلومات الموجودة بها ذات صبغة عامة ومع
أنها تؤيد البيانان المنبئة بوجود ما لا نهاية له من الحروب والخلافات مع
عدل إلا أنها لا تسجل أية عملية بعينها .

(٦) « تسكن الفيلة والخراتيت والزرافة المناطق المنخفضة المستنقعة ،
وكذلك أيضا لا يشاهد الأسد ولا النمر ولا الفهد في المناطق المرتفعة
والمزروعة . وليس ببلاد الحبشة ببر Tiger ، ولا في أفريقيا كلها
على حد علمي . . . وتقوم قطعان لا حصر لعددتها من القرود والريثاخ
(البابون) ، من مختلف الأنواع بتدمير حقول الدخن بكل مكان » . انظر
(بروس مج ٥ تذييل ص ٨٤) . « يفوق عدد الطيور بالحبشة عدد
الحيوانات الأخرى بصورة تتجاوز كل تناسب » . ص ١٤٩ .

(٧) مع أنه يقال إن الذهب يوجد بأنهارها ، فإن أحدا من الكتاب
العصرين لا يتحدث عنه بأنه يكثر بتلك البلاد ، ومع هذا فلما كانت
شواطئ أفريقيا المجاورة اشتهرت في كل العصور بانتاج الذهب ، فإن
من المعقول الظن بأنه - في أثناء أيام ازدهار الامبراطورية - ربما كان
يجتمع هناك من جهة الجنوب في مقادير ضخمة ، ويسعر مجز يعود بمكسب
ضخم ، متى بيع الى تجار بلاد العرب . يقول نيبور في وصفه لبلاد
العرب : « يوجد الكثير من الذهب الوارد من الحبشة بالمدن التجارية
المهمة » ص ١٢٤ .

● هوامش الفصل الأربعين

(١) مهما يكن اسم المكان الذى وجهت عليه الحملة الحربية لملك الحبشة (على ما ذكر فى الفصل السابق) ، فليس ثمة شك فى أن عدن هذه الموصوفة هنا ، إنما هى مدينة وميناء عدن الشهير الواقعة فى الطرف الجنوبي الشرقى لليمن أى بلاد العرب السعيدة - Arabia Felix والواقعة غير بعيد من مدخل البحر الأحمر . وحقا ليس من المدهش أن اسم مكانين متشابهين تماما (كعدل وعدن) ، وكانا موضوعى الحديث فى فصلين متعاقبين يختلطان على مترجمى هذا العمل ، فيظن خطأ أنهما لمكان واحد ، كما أنه ليس من المستبعد أن مؤلفنا نفسه ربما أساء فهم المعلومات التى تلقاها من الريبانة العرب .

(٣) يتحدث ده جنى عن أمراء أسرة صلاح الدين ، الذين حكموا عدن من عام ١١٨٠ فيقول : « يعد وفاة هذا الأمير ، التى حدثت حوالى ٦٣٧ للهجرة ، (وللبلاء ١٢٣٩) ، استولى تركمانى يسمى نور الدين عمر على حكم البلاد ، وأرسل الى الخليفة المستنصر يطلب اليه براءة تنصيبه سلطانا على اليمن ، فمنحه الخليفة طلبته ، واستمرت هذه العائلة فى حكم اليمن الى ما بعد عام ٨٠٠ للهجرة (١٣٩٧ للميلاد) . (انظر : Tab. Chronol. ك ٧ ص ٤٢٦) . ونتيجة لهذا يكون أحد هؤلاء السلاطين هو الذى كان مقربا فى الحكم فى المدة التى يعالجها مؤلفنا .

(٣) هنا ورد بيان صحيح عن خط سير ما نسميه بالتجارة البرية من الهند . فالتجارة التى تجمع بميناء عدن ، عند أبواب البحر الأحمر تماما ، (كما يحدث فى الزمن الحاضر فى مخا Mokha الواقعة فى أول داخله تماما) كانت تنقل من هناك فى مواعين سهلة الجرف فى الماء بسبب كثرة (المناطق الضحلة) . الى القصير ، وهى مكان على الشاطئ الغربى لذلك البحر ، يقع شمال محطة بيرينيس القديمة وهنا كانت البضائع تحمل على ظهور الابل ، فتنتقل على هذه الشاكلة عبر الصحراء الى قوص ثم اخيرا الى قنا على النيل ، داخل بلاد مصر ، حيث كانت توضع فى قوارب اسمها الجرعات ، وهو اسم صحيح ، حتى يحملها التيار هابطا بها الى القاهرة ، ومنها بواسطة الخليج أو الترعة العظيمة الى

الاسكندرية ، المستودع التجارى الكبير الذى يزود أسواق أوربا بالسلع
الشرقية .

(٤) سبق التحدث فى هوامش سابقة عن تصدير الخيول من بلاد
العرب ، وخليج فارس الى بلاد الهند ، وبخاصة الولايات الجنوبية منها .
(٥) (أسلفنا اليك أن بابل هو الاسم الذى كان يطلقه أهل العصور
الوسطى فى أوربا على القاهرة ، عاصمة مصر) .

● هوامش الفصل الحادى والأربعين

(١) مع أنه فيما يتعلق بموقع هذا المكان بالنسبة لعدن ، ينبغي لنا بالضرورة أن نقرأ الشمال الشرقى بدلا من الجنوب الشرقى ، والمسافة تزيد كثيراً جداً عن أربعين ميلاً ، فلا مجال للشك أن اسكير هذه لابد أن تكون الشحر Schahr عند نيبور (أو شحر Sheher فى كتابتنا الحديثة) ، وشحر Sahar عند دانقيل وسير Seer فى رحلة أوفنجتون . وإذا هى نطقت بالطريقة العربية الشحر ، اقتربت كثيراً من النطق الايطالى لكلمة Escier الشير .

(٢) يقول هاملتن : « ان محصول البلاد هو المر واللبنان ، والناس يبادلون عليهما بالعبك (الدمور) الخشن الوارد من الهند ، ولكنهم لا يديرون تجارة ضخمة مع الأجانب » . (مج ١ ص ٥٥) . على أن التجارة الأهلية لذلك الجزء من العالم انحطت كثيراً فى أيامه ، عما كانت عليه فى الأيام التى كتب فيها باريوزا بعد الاستكشافات البرتغالية بقليل .

(٣) سبق الحديث عن طريقة الحصول على شراب مخمر مسكر من نقع البلح فى الماء الدافئ ، على ما يفعله الأهالى المقيمون بسواحل الخليج الفارسى . ويستقطر كذلك من البلح محلول كحولى .

(٤) نظرا لأن نيبور لم يزر هذه المنطقة من ساحل بلاد العرب ، فان معلوماتنا عنها ليست مباشرة تماما ولا تفصيلية بقدر ما كان ينبغي ، على أن عادة تجفيف السمك فى الشمس (وهى ليست بأية حال عادة شائعة) وان لم يلحظها فيما كتب بعنوان « غذاء العرب » ، لها ما يثبتها بالقدر الكافى فى مصادر أخرى .

(٥) تغيرت أهمية عدن بالنسبة للأقاليم المجاورة ، تغيرات جسيمة فى مختلف الآماد . فان سلطانها كان يمتد فى زمان مؤلفنا ، وفيما بعد تحت الحكم التركى ، - الى الشحر وكيشين ، وأماكن أخرى تقع على الشاطئ الجنوبى لليمن وشاطئ حضرموت . وكانت عدن تابعة فى القرن السابع عشر لامام اليمن أو مخا . ثم استقلت فيما عقب ذلك من زمن وأصبحت غير ذات شأن .

● هوامش الفصل الثاني والأربعين

(١) ان دولفار هي نسختنا هي ظفار عند نيبور وفي خرائطنا .
واتجاهها من المكان المذكور أخيرا ، وفي تمشييه واتجاه الساحل اجمالا ،
يكاد يكون شماليا شرقيا ، كما أن بعدها يتجاوز كثيرا ما هو وازد
متا .

(٢) خلعت هذه البلدة أيضا نير تبعيتها لسيادة متعاقبين . ويقول
الكاتب الأول (نيبور) : « لظفار شيخ ابن مستقل » ص ٢٤٨ على أن
أوفنجتن يضيف قائلا : « يشتبك ملك ذلك المكان بين حين وآخر في مناوشات
ومنازعات حربية مع جيرانه من الأمراء ، ملوك شير (اسكير او شحر)
وكاسين (كيشين) » ص ٤٥٢ .

● هوامش الفصل الثالث والأربعين

(١) من الواضح أن قلاياتى هى قلعة الواقعة على ساحل عمان وعن غير بعيد جنوبا من مسقط . وكتب الاسم فى خريطة دانفيل « قلعة او قلجة » ، ويتحدث عنها نيبور (فى ص ٢٥٧) بأنها من أقدم مدن ذلك الساحل . على أن المسافة والموقع الواردين فى النص خاطئان تماما ، كما يحدث غالبا جدا .

(٢) الأصل فى هذا اللقب أن يطلق على الملوك ، ولكنه كثيرا ما يطلق على الأفراد التابعين وعلى حكام الولايات . وكان سلطان أو ملك هرمز (المذكور فى الفصل الخامس عشر من الكتاب الأول) يعترف بأنه تابع لملك كرمان ، وإن حدث أنه كثيرا ما اشتبك معه فى الحروب .

(٣) توجد بين اسم قلعة واسم القلعة من المشابهة والقربى ، وهى المكان الحصين القائم بوجه خاص على قمة جبل ما يمكننا من أن نعتبر أن هذا المكان قد اشتق اسمه من الظروف المحيطة به ، وأنه سمي (شأن أماكن كثيرة بجهات مختلفة من العالم) باسم القلعة بالتخصيص .

(٤) من هذا البيان المشير لجودة المرفأ (وهى ميزة لا أخال قلعة نفسها تملكها) ، وربما جاز لنا الظن بأن المقصود هو أن يشمل الوصف ميناء مسقط الشهير ، الذى يقع الى جوار القلعة ، ولعله كان تابعا لها فى ذلك الوقت وإذ أنه كان يقع فى قاعدة خليج أوجون ، فإن مؤلفنا يسميه خليج قلاتو .

(٥) ينبغى أن يفهم من هذا أن موقع الحصن البارز فى البحر ؛ إذ يهيبه ملجأ للسفن المعدة للتطواف ويمكن حاميته من رؤية السفن التى تقترب من الشاطئ ، بينما هو بمأمن تام من كل هجوم ، كان يمنح الأمير الذى يملكه السيادة على تجار البحار ، فضلا عن الميناء التجارى العظيم الواقع الى جواره ، فأما أن من الأمور العادية أن تدرك السفن هذه

النقطة فواضح من يوميات نيبور عن رحلته من بمباى الى مسقط . وقد كان هذا النوع من الحروب الصغيرة التى تحدث عندها النص ، موجودا على طول الزمان ، ولا يزال بتلك المنطقة .

(٦) يقول أوفنجتن : « ان السلعة الرئيسية فى هذه البلاد هى البلح ، الذى توجد منه بساتين كاملة تمتد أميالا عديدة متتالية » . « والبلح عندهم من الكثرة والالتداز به والاعجاب ، بحيث يخلطونه بكل ما يتناولونه من أنواع الطعام الأخرى ، ويأكلونه مستعيزين به عى الخبز ، بكل هذه الأرجاء من بلاد العرب ، ومعه ما تهيأ لهم من سمك ولحوم » . انظر Voy. if Surat. ص ٤٢٣ - ٤٢٧ .

● هوامش الفصل الرابع والأربعين

(١) لما كانت مدينة هرمز وصفت آنفا في الفصل ٥١ من الكتاب الأول فإن ما ورد هنا عنها لا يكاد يتجاوز تكرار ما قيل : ومع أن هذا ربما عد ناحية تكشف عن افتقار جميع منهج أو عن ارتباك في خطة العمل (: الكتاب) ، فإنه من الناحية الأخرى دليل على أصالته بل حتى على استقامته المنطقية ، ذلك أنه ربما يمكن ادراك أن هذه المدينة الشهيرة التي يبدو أن مؤلفنا أقام بها ردحا من الزمن، تؤلف نوعا من نقطة الارتكاز في وصفه ، راح منها يترسم الأقاليم الداخلية الغديدة والمدن الرئيسية الواقعة في المسافة المتوسطة بين شطآن الخليج الفارسي وإمبراطورية الصين ، وهي التي يعود في النهاية ، في دورة تخترق البحار الصينية والهندية والأثيوبية والعربية ، فيقتاد قراءه إليها .

(٢) نظرا لأنه في أثناء الانقلاب الصيفي ، تكون الشمس عمودية تقريبا فوق بلاد الغرب ، فإن الجو يكون على الجملة هناك شديد الحر في شهرى يوليو وأغسطس ، بحيث لا يجزئ انسان على الخروج الى الطريق الا في حالات الضرورة القصوى ، بين الحادية عشرة صباحا والثالثة بعد الظهر . وقلما اشتغل العرب أثناء هذه المدة ، والعادة أنهم يقضونها في النوم في بدروم (أو طابق تحت أرض يأتيه الهواء من أعلى ، بواسطة أنبوبة لتحريك الهواء . وهذا هو ما يمارس في بغداد وجزيرة شاردج (Chareds) وربما بمدن أخرى من نفس المنطقة » . انظر (Descriptino de l'Arabie) ص ٦) . ويقول الماجور رنل : « وصف لى المستر كالاندر المراوح المستخدمة في طاطا باقليم سندي ، وهي أنابيب أو مواسير مثبتة في الحيطان ، ومفتوحة لهواء أبرد قليلا ، وتقوم بنفس العمل الذى تقوم به أقماع التهوية في السفن » . وملاحظة هذه الطريقة العجيبة في ادخال الهواء المنعش الى الطوابق السفلية من البيوت ، تعد برهانا غير عادى على أمانة مؤلفنا في الملاحظة . وحول موضوع هذه المراوح ، انظر أيضا « الافادة والاعتبار » (فى وصف مصر) تأليف عبد اللطيف موفى الدين عبد اللطيف البغدادي ، ترجمة سلفسترديه ساسى ص ٢٩٥-٣٠١ .

(٣) فيما يتعلق بكيسى أو كيسى ، وهى جزيرة بالخليج الفارسي كانت تجارة سيراف تنقل اليها ، انظر الهامشة ٢ ص ٤٣ ، فأما مملكة أو ولاية كرمان ، فانظر عندها الهامشة ١ ص ٥٦ .

(٤) زودنا المؤلف فى الفصل الأول من الكتاب الثانى ببيان تفصيلى عن التمرد الخطير ، الذى شق عصاه نايان بالاتفاق مع قايدو ، وهو أمير تترى قوى آخر ، على قبلاى قرييهما ومولاهما الأعلى ، وكيف تم القضاء على ذلك العصيان ، بهزيمة الأميرين المتحدين وموت الأول منهما فالى ذلك الفصل نحيل القارئ على أنه يبدو مما قاله المؤرخون الصينيون أن قايدو (وهم يسمونه هايتو ، على طريقته من تعديل نطق الحروف) لم تضطره هذه الهزيمة الى الخضوع ، بل ظل يناصر الامبراطور عداء متفاوت النشاط اثناء البقية الباقية من حكم قبلاى ، وجزءا من حكم حفيده وخليفته فى العرش تيموخان ، حتى اضطر ، وقد شئت شمل جيشه على ضفاف نهر ارتش ، الى التخلي عن القتال ، ومات بعد ذلك بمدة وجيزة كمدا وياسا .

(٥) عندما غادر مؤلفنا بلاط بكين حوالى عام ١٢٩١ ، كان قايدو - مهما يكن تابعا اقطاعيا بالاسم لقبلاى - مستقلا بالفعل ، ورغم بعض القيود المفروضة عليه ، كان مع ذلك أميرا قوى السلطان . ويبدو ان الذى حدث بعد أن أتم قبلاى فتح الصين نهائيا - وبدلا من الاحتفاظ بها على أنها ولاية من ولاياته ، والتربع على عرشها ، واختصاص نفسه بهوية سلسلة ملوكها - هو أن بقية أمراء أسرة جنجيز خان اعتبروه متخليا بالفعل عن امبراطورية المغول التترية ، التى أسسها جدهم المشترك ، واتخذوا ، أو حاولوا أن يتخذوا لأنفسهم ممالك ذات سيادة من تلك الممتلكات المترامية التى لم تكن لهم فى الأصل الا اقطاعات وذلك هو فيما يبدو وضع الأمور ببلاد فارس ، وبلاد التتار الغربية وكذلك الشمالية .

(٦) يقول تاريخ الحيوان « Hist. of Quadrupeds » ان الدب القطبى أو الدب الأبيض الضخم ، وهو (Ursas Albus) عند لينايوس يختلف اختلافا بالغا عن الدب العادى فى طول الرأس والعنق ، ويكبر حتى يبلغ ضعف حجمه . ويصل طول بعض أفراده الى ثلاثة عشر قدما . وتتركنا المعاجم الايطالية فى حالة عدم تأكد من كلمة « بالمو Palmo » ، حيث يترجمها بعض المعاجم بكلمة empan الفرنسية ومعناها الشبر ، وبعضها الآخر بكلمة « Pied » أى قدم . وطبقا للاحتمال الأول (وهو يتمشى أكثر مع المعقول) ، واعتبار الشبر فى الرجل المتوسط الحجم ثمانى بوصات ، فإن القياسين يتطابقان فى حدود طفيفة ؛ حيث يكون عشرين شبرا معادلة لثلاثة عشر قدما وأربع بوصات .

(٧) يقول المرجع نفسه : « أن الثعلب الأسود يعد ثمينا جدا من أجل فرائه ، ويعد فى روسيا أفضل كثيرا من أفخر أنواع فراء السمور . إذ يباع الجاد الواحد بأربعمائة روبل » . ويقول بل : « ان فراءها يعتبر

أجمل أنواع الفراء قاطبة ، بل انه ليفضل على السمور الأسود ، من حيث خفته ودفته » . مج ١ ص ٢٢٢ .

(٨) « ان السمور الأسود الذى يسمى *mustela Zibellina* فى تصنيف لينايوس Lin. والذى يلقى تقديرا عاليا من أجل فرائه ، يعيش فى المناطق الثلجية الشمالية ، وهو يوجد فى سيبيريا بوجه خاص . واقتم الفراء أغلاه ثمنا . وان جلدا واحدا لا يزيد عرضه عن أربع بوصات ، ليقدر ثمنه أحيانا بخمسة عشر جنيها . ويختلف السمور عن كل أنواع الفراء الأخرى فى أن شعره يميل بسهولة تامة فى الاتجاهين المتقابلين (Hist. of Quadrupeds) ورد اسم الروند - الذى يظن أنه كلمة مغولية - فى الفصل ١٦ من الكتاب الثانى ، ولكنه لم يفسر هناك على أن معناه السمور . (انظر هـ ٢٠ ، ص ١٩٩) .

(٩) يتضح لنا بالاطلاع على الخريطة ، أن منابح عدد من الأنهار العظيمة ، التى تصب مياهها شمالا وشرقا ، توجد بالسهول المرتفعة بين خطى عرض ٤٥ و ٥٥ درجة ، وهى الأماكن الأصلية التى قرتاها هذه الجحافل الجواله والتى يصح لنا تبعا لهذا أن نتوقع بها اقليما تغمره المياه كالذى يصفه هذا النص » . والحق أن اقليم بارابا (بين نهري الأرتش والأوبى) ومعناها المنبسطة المائى الفسيح اسم على مسمى بمعنى الكلمة . فهو مملوء على الجملة بالبحيرات وأراضى المستنقعات وهو مزدهم بغابات طويلة من اشجار الحور وجار الماء والصفصاف ونباتات مائية أخرى انظر « Bell's Travels » مج ١ ص ٢٠٥ .

(١٠) ان هذه المحطات ، مهما بلغ من ضلالة شأنها من حيث المبادئ أو السكان ، هى من النوع المسمى بلغة الروس ، الذين تضم امبراطوريتهم الإقليم الجارى وصفه هنا ، باسم أوستروج 1810 أى القرى ، كما أن المنازل هى نفسها التى يسميها المسافرون من كمشتكا واليها باسم بالاجان Balagan لا الاسبا I ba أى بيوت الجزوع والعروق الخشبية . (ولعلها الأصل فيما نسميه العزبة) .

(١١) يقول الكابتن كننج : « يقارب طول الزلاقات أربعة أقدام ونصف ؛ وعرضها قدم واحد ؛ وهى مصنوعة على شكل هلال من خشب خفيف صلب وقد ربطت بعضها ببعض ربطا قويا بالإماليد المجدولة Wicker Work وتقوم على أربع أرجل ، ارتفاعها قدمان ، تستقر على قطعتين طويلتين مسطحتين من الخشب ، وعرضهما خمس أو ست بوصات وتمتدان قدما واحدا عند كل من طرفى الزلاقة ، وهما ترفعان اماما ، على طريقة الزلاقة الرياضية كما أنها تكسى من الخارج (كحدوة الحصان) بعظام بعض

أنواع الحيوانات البحرية » • انظر : Cook's 3rd Voyage, Continuation :
مج ٢ - ص ٢٠٢ •

(١٢) من المعروف الآن جيدا أن الكلاب تستخدم للجبر بالأقاليم الشمالية الشرقية من بلاد القتر ، أجل أنه يبدو هناك بعض المبالغة حول حجمها ، وإن جاز أن السلالة انحطت في مدى الأعوام الخمسمائة التي انصرمت • يقول الكابتن كننج : « أن هذه الكلاب تشبه في شكلها إلى حد ما السلالة البوميرانية ، وإن كانت أكبر منها كثيرا » • ص ٢٠٤ •

(١٣) يقول الكابتن : « أن الزلاقة قلما استخدمت لحمل أكثر من شخص واحد في وقت واحد ، فيجلس جانبا مركزا قدميه على الجزء السفلى من الزلاقة ، وحاملا مئونته وإلزامه الأخرى ملفوفة في ربطة خلفه • والعادة أن تكون الكلاب خمسة ، مقرونة كل زوجين معا مع دليل لها في المقدمة » • • « ولأننا لم نرد أن نعتمد على مهارتنا ، فإن كل واحد منا كان معه رجل ليسوق الزلاجة ويوجهها ، وهي عملية.ظهر أنها شاقة جدا نتيجة لسوء أحوال الطرق • • وذلك لأن الذوبان كان تقدم تقدما ضخما جدا » • (صص ٢٠٣-٣٠٥) يقول ليسبيس : « يتوقف عدد الكلاب التي يلزم ربطها بالزلاقة على مقدار الحمولة ، فعندما تكون أكثر قليلا من وزن الشخص الذي يركب الزلاقة ، يتكون فريق الكلاب في أربعة أو خمسة • • فأما زلاقات العفش أو الأمتعة فتجرها عشرة كلاب » • ص ١١٨ •

● هوامش الفصل الخامس والأربعين

(١) هذا وصف صحيح للمظاهرة التي تشاهد حول الدائرة القطبية الشمالية والمناطق القطبية ، حيث يحدث ، أثناء فصل الشتاء أو الفصل الذي تكون فيه الشمس دون الأفق أثناء دورة الأرض اليومية بكاملها ، أن تمنع قوة السحر - رغم ذلك - وجود الظلمة التامة .

(٢) يلوح أن الشعب المشار إليها هنا هو التونجوزي أو جيرانهم الساموييد من جهة أو من جهة أخرى الياكوت الذين يسكنون الاقليم المجاور لنهر ليننا . يقول بل : « ان التونجوزي ، الذين يسمون بهذا الاسم نسبة الى نهر (نونجوسكا) ، الذي يمشون على امتداد جانبيه ، هم سلالة سكان سيبريا القدامى ، ويختلفون لغة وعادات وملبسا ، بل حتى في أشخاصهم وقامتهم ، عن كل القبائل الأخرى من هذه الشعوب التي أتت الى رؤيتها . وهم قوم ليست لديهم بيوت يقيمون بها أية فترة من الزمن ، بل يتجولون على هواهم خلال الغابات أو على امتداد الأنهار » (مج ١ ص ٢٢٥) والرجال طوال القامة متينو الأجسام كمسا انهم شجعان شديدي الأمانة . وينبش أن يلاحظ أنه ابتداء من هذا النهر وشمالا حتى المحيط المتجمد ، لا يوجد أي سكان ، الا قلة من التونجوزيين *Tongusians* المضاربين على ضفاف الأنهار الكبرى ، ان يغطي كل هذا الاقليم المتراعى الأطراف غابات مظلمة كثيفة لا يمكن اختراقها . ويقول الرحالة نفسه : « قبل أن أغادر اليمسكي ، سأورد بيانا موجزا عن بعض الأماكن المجاورة ، وبخاصة تلك الواقعة الى الشمال الشرقي بإزاء نهر ليننا وياكوتسكي ، وذلك طبقا لما سمعته من رحالة ، أستطيع أن أعتمد اعتمادا تاما على صدقهم . فمن سافر شتاء من هنا الى هذه الأماكن ، جعل سفره على الجملة في يناير أو فبراير . وهي رحلة بالغة الطول والمشقة ، وليس لاحد القدرة على القيام بها الا التونجوزيين أو أمثالهم من الأقوام الأشداء » ، (ص ٢٣٤) . ويختلف الياكوت اختلافا قليلا عن التونجوزيين ، في كل من تكوينهم الجسمي وطريقة عيشهم ، فهم يشتغلون مثل غيرهم من الأهالي بصيد السمك واقتناص الحيوان ، (ص ٢٤٠) .

(٣) ان أسماء الحيوان التي تعقب في نسخة راموسيو اسم « القائم *Armellini* هي فاري واركولينى ، « والأول منهما هو *Vares sen varii* المذكورة في المسارد *Glossaries* (أي الشروح الختامية

اللاتينية ومن كلمة (Vairs) التى تدل على نوع من الدلق أو ابن عرس ، ذى اللون الرمادى المبيض . فأما الاسم الآخر الوارد فى نسخة بال « Herculini » و « Erculini » فلم أوفق فى العثور عليه لا فى المعاجم ولا فى التاريخ الطبيعى ، على أنى وجدت فى القائمة الفخمة الفروات (Furs) التى وضعها البروفسور بالاس باعتبارها تؤلف جزءا رئيسيا من التجارة الصينية مع الروس على التخوم ، اسم جلد حيوان صغير وأسماء الفرنسيون « Vielfrass » وأسماء الألمان « فييلفراس » goulou أو Glouton بمعنى المنهوم أو الأكل ، وأسماء الايطاليون Adeigoloso وهى الكلمة التى ربما صحفت الى Bell ويلاحظ بل Arcolino هذا الحيوان نفسه ببلاد المغول .

(٤) من المعروف تماما لدى من يتجرون فى الفراء . ان أئمنها هى ما يحصل عليه من أبرد الأجواء ، وهو أمر يتوافق مع اقتصاد الطبيعة المألوفة .

(٥) من المحتمل أنه فى المدة التى كانت سيبيريا فيها مستقلة ، كان الفراء الذى يرام بيعه فى الأسواق الأوربية ينقل بأجمعه الى مكان يسمى فرشاتوريا ، فى الجانب الروسى من توبولسكى ، وقرب سلسلة الجبال المسماة فرشاتورسكى جورى . يقول بل : « ان هذه الجبال تفصل روسيا عن سيبيريا . وهى تجرى مكونة سلسلة جبلية من الشمال الى الجنوب » . والشئ الذى يجعل لفرشاتوريا أهميتها هو وقوعها على التخوم ، وتحكمها فى المدخل الوحيد من روسيا الى سيبيريا .
مج ١ ص ١٧٢ .

• هوامش الفصل السادس والأربعين

(١) قيل هنا عن الروسية انها ولاية لأن التتار اجتازوها وأخضعوها لسلطانهم مع شطر ضخيم من مملكتي بولندة والمجر بقيادة باتوخان حفيد جنجيزخان حوالي عام ١٢٤٠ ، وظلت تثن تحت نير هؤلاء البرابرة الهمج ، حتى الاوان الذى كتب فيه مؤلفنا ، والى ما بعد ذلك بعدة سنوات .

(٢) ان هذا ينطبق مباشرة على بلاد السامويديين ، الذين ، كما يلاحظ بنكرتن : « يظهرون لأول مرة خارج نهر ميزان ، على بعد حوالي ثلاثمائة ميل داخل الدائرة القطبية » .

(٣) المقصود بالمتتار الغربيين هنا هو رعايا باتوخان وخلفاؤه الذين ورثوا نصيبه من امبراطورية جنجيز خان ، وهو اقاليم « الكبشاك والالان والروس والبلجار » وفى تمييز عن هؤلاء التتار الغربيين ، يطلق اسم التتار الشرقيين - فى مواطن أخرى - على اتباع هولاكو وسلالته الذين استقروا بخراسان وفارس .

(٤) بطبيعة الحال كان عدد الحيوانات البرية ، التى يشكل فراؤها سلعا تجارية ، أكبر كثيرا بالروسيا يوم كانت البلاد اقل سكانا واضيق رقعة زراعية مما هى فى الوقت الحاضر . فاما الآن فان أكثر الفروات التى تصدر عددا واغلاها ثمنا هى ما تنتجها مناطقها السيبيرية ، وهى التى تجمع بوصفها جزءا من جزية الدولة أو ايراداتها ، ولكن حتى قبل اكتشاف ذلك القطر وفتحها عسكريا ، كان الفراء يحصل عليه بسعر معتدل عن طريق المقايضة على الحدود . ويصدر الشمع بمقادير كبيرة وبخاصة الى انجلترا .

(٥) لا يبدو فى أى بيان حديث عن تلك البلاد ، ان مناجم الفضة تستغل الآن بروسيا الأوربية ، ولكن ربما كان ذلك موجودا فيما سلف واستنفد ما فيه . على ان الولايات السيبيرية يوجد بها الذهب والفضة كلاهما . (ويذكر ابن بطوطة مناجم الفضة الروسية) .

● هوامش الفصل السابع والأربعين

(١) ورد هذا الفصل والفصول التي تليه حتى ف ٦٣ ، في النسخة الاصلية بين منتصف الفصل ٤٤ في ترجمة مارسدن ، وقصده الخامس والأربعين ، ولكنها المغيث في النسخ التي ترجم عنها مارسدن .

(٢) توضيحا للمسائل التاريخية التي تحتويها هذه الفصول الاضافية ، نرجع القارئ الى النص والهوامش صص (٢٧ الى ٣٠) من هذا الكتاب .

(٣) هو نهر جيحون ، أو أكسوس Oxus عند الأقدمين ، أموداريا الآن .

(٤) النقرزان Nacar أو Nacaire ، كان نوعا من الطبول ، أو صنجا ، يستخدم في الشرق في الموسيقى العسكرية ، ولا تجهله بلاد الغرب .

● هوامش الفصل التاسع والأربعين

(١) في النسخة اللاتينية التي نشرتها الجمعية الجغرافية بباريس ،
كتب اسم السيدة أرجيا لكوكور أو أرجيا لمتشوكور . وهي في النسخة
الايطالية ايجيارن .

(٢) ان هذا الاسم ، الذي حذف من النسخة الفرنسية ، مأخوذ من
الايطالية وورد في احدى المخطوطات الايطالية : بيومر .

(٣) عن التتار الشرقية أى تتار فارس وخراسان . انظر الهامشة
١ ص ١٢ .

● هوامش الفصل الخمسين

(١) كان كتاب العجائب التي شاهدها الاسكندر في فتوحه الشرقية ، الذي يدعى أن مؤلفه هو أرسطو طاليس ، موضع المحبة الشديدة من الناس إبان العصور الوسطى ، كما أنه اتخذ أساسا لكثير من الآراء المنتشرة الشيوع بين الناس في كل من علمي الجغرافيا والتاريخ الطبيعي . وعن الشجرة الجافة انظر ص ٧٢ من كتابنا هذا .

● هوامش الفصل الرابع والستين

(١) تعقب الفصول التالية ، الفصل الأخير في ترجمة مارسدن .

هوامش الفصل التاسع والستين

(١) أعنى أنه فتى لم يصل بعد الى مستوى الفارس • وبديهي أن منكوتيمور وتوتامنكو ، هي نفسها الأسماء التي كتبت في الفصل ٦٤ منجلتيمور وتوتا مونجور •

(٢) في النسخة المطبوعة ، التي ترجمنا عنها ، في هذا الفصل والفصول التالية ، يكتب توتامنكو خطأ بدلا من تولوبغا ، كما يحدث العكس، مما يترتب عليه حدوث ارتباك كبير في القصة : رأينا الأوفق أن نصحح هذا الخطأ أثناء الترجمة •

اقرا في هذه السلسلة

أحلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ي . رادونسكاية
نقطة مقابل نقطة	الدس مكسلى
الجغرافيا فى مائة عام	ت . ر . فريمان
الثقافة والمجتمع	رايمونت وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر . ج . فوريس
الأرض الغامضة	ليسترديل راى
الرواية الانجليزية	والتر المن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دumas
الانسان المصرى على الشاشة	د . قدرى حفى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية - مقال فى النوع الادبى	د . محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف س . بى . كيكس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جون ويسست
الرواية الحديثة	بول لويس
المسرح المصرى المعاصر	د . عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	انور المعداوى
القوة النفسية للأهرام	بيل شول وأدبنييت
فن الترجمة	د . صفاء خلوصى
تولستوى	رالف ثى ماتلو
مستندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات هي مضممار	
الأمم-زياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التقاربات للغامض ماركس والماركسيون	سسدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف . ع . أدنيكوف
أعيب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم المزواوى
أعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للإنسان	جاكوب برونوفسكى
هل تستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د . روجر ستروجان
قريبة الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعائلهم فى مصر القديمة	ا . سبنسر
التحليل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف دامموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤	د . لينورا تشامبون رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د . جون شندلر
الصحة	بيير البير
أثر الكسوميديا الالهية لدانتي فى الفن	الدكتور غبريال وهبه
التشكيلى	
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية	
وبعدها	د . رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبي الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى	شوكت الربيعى
١٨٨٥ - ١٩٨٥	
التشقة الأسرية والأبناء الصغار	د . محيى الدين أحمد حسين

تأليف : ج . دادلى أندرو
جوزيف كونراد

د . جوهان دورشنر
مجموعة من العلماء الأمريكيين
د . السيد عيسى
د . مصطفى عيسى
صبرى الفضل
فرانكاين . ل . باومر
جابريل باير
انطونى دى كرسبى
دوايت سوين
زافيلسكى ف . س
ابراهيم القرضى
بيتر رداى
جوزيف داهموس
س . م بورا
د . عاصم محمد رزق
رونالد د . سمبسون
دورمان د . اندرسون
د . انور عبد الملك
والى وتيمان روستو
فرد . س . هيس
جون يوركهارت
آلان كاسسبير
سامى عبد المعطى
فريد هويل
شاندرا ويكراما سينج
حسين حلمى المهندس
روى روبرتسون
دوركاس ماكلينتوك
هاشم النحاس

نظريات الفيلسوف الكبرى
مقتارات من الادب القصصى

الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟
حرب الفضاء
ادارة الصراعات الدولية
الميكروكمبيوتر
مقتارات من الادب اليابانى
الفكر الأوروبى الحديث (٢ ج)
تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
كتابة السيناريو للسينما
الزمن وقبائمه
أجهزة فكيف الهوا

الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
التجربة اليونانية
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
العلم والطالب والمدارس

الشاعر المصرى والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
العادات والتقاليد المصرية
التذوق السينمائى
التخطيط السباحت
البذور الكونية

دراما الشاشة (٢ ج)
الهيرويين والايذز
صور افريقية
نجيب محفوظ على الشاشة

الكيمياء في مجالات الحياة
 المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
 وفئات الأعضاء من الألف إلى الياء
 الهندسة الوراثية
 تربية أسماك الزينة
 كتب غيرت الفكر الانساني (٣ ج)
 الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
 الفكر التاريخي عند الاغريق
 قضايا وملامح الفن التشكيلي
 التغذية في البلدان النامية
 بداية بلا نهاية
 الحرف والصناعات في مصر الاسلامية
 حوار حول النظامين الرئيسيين
 للكون
 الارهاب
 اخلاقيات
 القليلة الثلاثة عشرة
 الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
 الاساطير الاغريقية والرومانية
 تاريخ العلم والتكنولوجيا
 التوافق النفسي
 الدليل البيولوجي في
 لغة الصورة
 الثورة الاصلاحية في اليابان
 العالم الثالث غدا
 الانقراض الكبير
 تاريخ النقود
 التحليل والتوزيع الاوركسترالي
 الشاهنامة (٢ ج)
 الحياة الكريمة (٢ ج)
 قيام الدولة العثمانية

د . محمود سرى طه
 بيتر لوري
 بريس فيدروفيتش سيرجيف
 ويليام بينز
 ديفيد الدرتون
 احمد محمد الشنواني
 جمعها : جون ر . بورز
 وميلتون جولدينجر
 ارنولد توينبي
 د . صالح رضا
 م . ه . كنج وآخرون
 جورج جاموف
 د . السيد طه أبو سديرة
 جاليليو جاليليه
 أريك موريس وآلان هو
 سيريل الدريد
 آرثر كيسستر
 جون بورز
 ب . كـوملان
 ر . ح . فوريس
 توماس ١ . هـريس
 مجموعة من الباحثين
 روى أرمز
 ناجاي متشيرو
 بول هاريسون
 ميخائيل البى ، جيمس لفلوك
 فيكتور مورجان
 اعداد محمد كمال اسماعيل
 الفريدوسى الطوسى
 بيرتون بورتر
 محمد فؤاد ، كوبرلى

عن النقد السينمائي الأمريكي
قرايم زرادشت

السينما العربية
دليل تنظيم المتاحف

سقوط المطر وقصص أخرى
جماليات فن الاخراج

التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج

الحملة الصليبية الاولى
التمثيل للسينما والتليفزيون

العثمانيون في اوربا

الكنائس القبطية القديمة في مصر ٢ ج

رحلات فارتيما

انهم يصنعون البشر

في النقد السينمائي الفرنسي

السينما الخيالية

السلطة والفرد

الازهر في الف عام

رواد الفلسفة الحديثة

سفر تامه

مصر الرومانية

كتابة التاريخ في مصر ق ١٩

الاتصال والهيمنة الثقافية

مختارات من الاداب الاسيوية

كتب شيرت الفكر الانساني ٣ ج

الشموس المتفجرة

مدخل الى علم اللغة

حديث النهر

من هم التتار

مستريخت

معالم تاريخ الانسانية ٤ ج

مشاهدة الامم

السينما الصليبية

ادوارد ميرى

اختيار / د . فيليب عطية

اعداد / موني براخ وآخرون
آدم فيليب

نادين جورديمر وآخرون
زيجموند هبتر

ستيفن اوزمنت ،

جوناثان ريلي سميث
توني بار

بول كولنر

الفريد ج . بتلر

رودريجو فارتيسا

فانس بكاره

اختيار / د . رفيق الصبان

بيتر نيكوللز

بوتراند راسل

بينارد دودج

ريتشارد شاخت

ناصر خسرو علوى

نفتالى لويس

جاء كرايس جونيور

هربرت شيلر

اختيار / صبرى الفضل

احمد محمد الشنواني

اسحق عظيموف

لوريتو تود

اعداد / سوريال عبد الملك

د . ابرار كريم الله

جابر محمد الجزار

ه . ج ولز

جوستاف جرونيباوم

ستيفن رانسيمان

الطفل ٢ هـ

افريقيا الطريق الآخر

السحر والعلم والدين

الحضارة الاسلامية في القرن ٤ هـ

الكون ذلك المجهول

كونتا المتمد

تكنولوجيا فن الزجاج

رحلة فاسكو دا جاما

حرب المستقبل

الفلسفة الجوهرية

الأعلام التطبيقية

تبسيط المفاهيم الهندسية

تحول السلطة

التفكير المتجدد

فن المايما والبيانتومايم

السيناريو في السينما الفرنسية

خفايا نظام النجم الأمريكي

رحلة جوزيف بتسي

الفيلم التسجيلي

بين تولستوى ودوستويفسكى

المرأة الفرعونية

فن الفرجة على الأفلام

ما هي الجيولوجيا

الاحمر والبيض والاسود

انواع الفيلم الأميركي

أرنولد جزل وآخرون

بادي اونيمود

برنسلو مالىنوفسكى

ادمز مترز

جلال عبد الفتاح

إيفر شاتزمان

محمد زينهم

فاسكو داجاما

مارتن فان كريفلد

سوندرای

فرانسيس ج • برجين

ج كارفيل

الفين توفلر

ادوارد وبونو

توماس ليبهارت

كريستيان سالين

بول وارن

جوزيف بتسي

محمود سامى عطا الله

جورج ستايز

كريستيان دى روش

جوزيف • م • بوجز

ويليام ماثيوز

جارى ب • ناش

ستانلى جيه صولومون

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٢٠١٠

ISBN — 977 — 01 — 4668 — 4

في عام 1271 خرج ماركوبولو، وكان آنذاك في السابعة عشر من عمره، مع أبيه وعمه في رحلة عجيبة انطلقت بهم من مدينة البندقية في ايطاليا وحملتهم عبر قفار وجبال وسهول آسيا الشاسعة حتي أرض الصين في عصر الإمبراطور المخولي العظيم قبلاي خان الذي احتفي بهم وضمهم إلي حاشيته فعاشوا هناك سنوات طويلة...

وقد كان ماركوبولو اخبار رحلته هذه في ذلك الكتاب الذي يعد أشهر وأهم كتب الرحلات قاطبة، فهو سجل في نادر لحياة الكثير من الشعوب والحضارات القديمة التي إندرت اليوم ولم تبق منها سوى تلك الصور التي التقطها ماركوبولو بقلمه عنها، فهو علي طرافته مرجع علمي عظيم عن تاريخ آسيا والصين في العصور الوسطى..

وقد ترجم هذا الكتاب إلي العربية مترجم قدير هو الأستاذ عبدالعزيز توفيق جويد ضمن إسهاماته المتعددة في إثراء المكتبة العربية بالنفيس والهام من الكتب..

وفي الجزء الثالث من الرحلة نتقل مع رجالنا عبر أراضي الهند، جزيرة جاوه، جزيرتي سونداور وهوندور، جزيرة بنتان، جزيرة نوهاويران، جزيرة زيلان، جزيرة سقطري، جزيرة مدغشقر، جزيرة زنبار وترهيا.

